من سير الأبطال

أشهر قادة الحرب العالمية الثانية

تأليف

بكباشى ا.ح
عبد الفتاح حسين
مدرس بمعهد الدراسات للضباط العظام

بكباشي ا.ح
منير يونس نظمي
مدرس بمعهد الدراسات للضباط العظام

أحمد الأرفلي
سكرتير معهد الدراسات للضباط العظام

الطبعة الأولى

١٩٤٩

صدقت إدارة العمليات الحربية على نشر هذا الكتاب
بخطابها رقم ١٦ - ٣ - ١ بتاريخ ١٩٤٩/٧/٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد

منذ عمر الناس هذه الأرض ، وهم يترجحون بين الخصام والوئام ، ويشقون تارة بالحرب ، ويسعدون حيناً بالسلام ، ولم تستطع صلات القربى والجوار وتبادل المنافع ، ولم تستطع دعوات الفلاسفة ولا دعوات الأديان أن تجتث من الناس غريزة السيطرة والمقاتلة ، فما زالت الدماء تراق ، والأرواح تزهق ، وما زالت الحروب تخرّب وتدمّر . ومن عجب أن الإنسان كلما نضج عقله وسما فكره ، افتن فى أقوى الوسائل وأسرعها للقضاء على خصمه ، فتطورت عدد القتال من العصا والحجر إلى الرمح والقوس والسيف ، ثم إلى البندقية والمدفع ، ثم إلى المفرقعات المختلفة الأنواع ، وأخيراً كانت الطامة الكبرى القنبلة الذرية ، ولا يعلم إلا الله ما وراء الغيب من أفانين الاختراع .

وهذه الحروب المتوالية التى يلد بعضها بعضا شر أى شر ، ولكنها شر لا محيد عنه ولا مناص ما دامت طباع البشر كما نرى .

وقد درج التاريخ على الإشادة بأبطال الحروب ، وجرى الناس على تمجيدهم ، واتخذ الدارسون للنظم الحربية المواقع الشهيرة والحروب الكبيرة مجالا فسيحاً للبحث والدرس والاستفادة ، واستخلصوا من سجلات

الماضى دروساً تنطبق على الحاضر ، وهم محقون فى ذلك ما دامت البشرة مهددة بحرب تنشب فى أى مكان وزمان .

وهذا الكتاب الذى نقدمه للقراء لون من ألوان هذه الدراسة لأبطال الحرب العالمية الأخيرة ، عرضنا فيه كثيراً مما يتصل بها من خطط ومشكلات وسير ، معتمدين على ما دوّنه القواد وسجله الثقاة . وهؤلاء الأبطال الذين اخترناهم للدراسة عمل أكثرهم فى مناطق قريبة من مصر وعلى أرض مجاورة لنا ، لجاءت سيرتهم سجلا دراسياً شاملا ، نأمل أن يكون مصباحاً يمتزج نوره بأنوار المصابيح الأخرى فتتجلى الحقائق ، ويستفيد الدارسون ، وتحبب حياة الأبطال إلى التواقين إلى البطولة والبذل فى حماية الوطن وإعلاء مجده .

نسأل الله التوفيق فى ظل حضرة صاحب الجلالة « فاروق الأول » ملك مصر وقائد جيشها الأعلى أدام الله ملكه .

تم بالقاهرة فى { ٢١ رمضان ١٣٦٨
١٧ يوليو ١٩٤٩

المفاجأة أقوى وأمضى أسلحة الحرب

« ويفل »

ويڤل

هناك فى ربوع سوريا ، حيث بدأت سحب الحرب العظمى الثانية تتجمع وتنذر بالشر ، وقف قائدان يستعرضان القوات الأجنبية والفرنسية .

كان أحدهما قائداً ذائع الصيت ، ضئيل الجسم ، حاد البصر ، حليق الشارب . يبلغ من العمر تسعة وستين عاماً ، ذلك هو الجنرال « ماكسيم ڤيجان » الزميل السابق للجنرال فوش ، وزميل بيلسودسكى البولندى فى معركة وارسو عام ١٩٢٠ ، ونائب رئيس مجلس الحرب الأعلى بفرنسا سابقاً .

أما زميله الآخر الواقف بجانبه ، فضابط مجهول الاسم ، متوسط القامة ، مستدير الذقن ، ذو عين واحدة . . ذلك هو الجنرال « سير أرشيبالد بيرسيڤال ويڤل » .

تطلعت العيون جميعها إلى ڤيجان ، فهو قبلة الأنظار فى ذلك الوقت ، بل معقد الأمل والرجاء . فالكل ينتظر منه القيام بالدور الرئيسى لو قدر ونشبت الحرب فى منطقة البحر الأبيض المتوسط .

أما « ويفل » فلم يكن يستمتع بشهرة كبيرة ، بل لم يكن معروفاً حتى لرجال الصحافة الذين حاولوا كتابة نبذة صغيرة عنه فى صحف الصباح فما وجدوا مادة يستقون منها أخبارهم ، فاكتفوا بالإشارة إلى أنه من تلامذة الجنرال اللنبي ،وأنه من الرجال دائمى الصمت حتى أنه يتخذ شعاراً له تلك الحكمة المعروفة « السكوت من ذهب » .

كان لبريطانيا إذ ذاك قائدان معروفان : هما الجنرال « جورت » قائد الحملة البريطانية فى فرنسا ، والجنرال « ايرونسيد » رئيس هيئة أركان الحرب البريطانية .

أما « ويفل » فلم يكن معروفاً على الإطلاق .

ولكن لما كانت العقلية الإنجليزية تختلف عن عقليات الشعوب الأخرى ، فلم يكن عجيباً أن يرى الجنرال « ويفل » فى عدم شهرته وذيوع صيته ما يميزه على غيره من القواد .

لم يكن له اسم أو شهرة تتعرضان للسقوط لو قدر له أن يخسر المعركة ، وليس معنى هذا أنه كان خامل الذكر ، بل على العكس كان معروفاً بين زملائه من رجال العسكرية لخدماته السابقة فى الحرب العظمى الأولى ، وكذا لتخصصه فى شئون الشرق الأوسط وشئون روسيا ، ثم لمؤلفه الممتع عن حملة فلسطين ومحاضراته فى جامعة « كامبردج » عن القيادة .

* * *

اشتق اسم ويڤل من ڤوڤيل ، وهو مكان على بعد بضعة أميال من شربورج فى شمال فرنسا ، وكان أشراف هذه المنطقة يلقبون باسم دى ڤوڤيل ، وكثيرون منهم كانوا ضمن حاشية الدوق وليم الفاتح ، وقد رافقه بعض أفراد أسرة « دى ڤوڤيل » عندما قام بغزو انجلترا سنة ١٠٦٦ ، ثم استقروا فيها نهائياً . وما أهلّ القرن الثالث عشر حتى كانوا قد اقتنوا الضياع وتملكوا الأرض ، وعلى مرّ الأجيال بدأ الاسم يتخذ سمة إنجليزية ، فبدأ « بدى ووڤيل » ، وفى القرن الرابع عشر حذفت « دى » ، وفى عام ١٤٧٨ ظهر اسم « ويڤل » لأول مرة ، وكان حامله أستاذاً فى كلية ونشستر . وقد أخرجت العائلة كثيراً من الأساتذة والعلماء ورجال الدين والأطباء ، ولم تخل من عدد من رجال الجيش أظهروا مهارة وكفاءة فى مختلف أدوار خدمتهم ، وقام بعضهم بكثير من المغامرات خارج حدود انجلترا .

وكان أحد هؤلاء هو أرشيبالد جراهام ويڤل ، الذى خدم فى آلاى نورفولك ، وفى الحرس الأسود ، واشترك فى حروب جنوب افريقيا وهو برتبة ميجر جنرال ، وقاد اللواء ١٥ من الفرقة ٧ . وقد توفى أرشيبالد هذا فى سن الحادية والتسعين تاركاً ثلاث أبناء كان أحدهم قد وصل إلى رتبة جنرال قبل وفاة أبيه .

وهذا الابن هو أرشيبالد بيرسيڤال ، الملقب حالياً بالفيلد مارشال ڤيكونت ويڤل ، وقد ولد فى ٥ مايو سنة ١٨٨٣ فى مقاطعة إسكس حيث كان والده ضابطاً من ضباط حاميتها .

وفى عام ١٨٩٦ نال ويقل الصغير جائزة فى مسابقة لاختيار الطلبة الذين ترشحهم مدرسته للالتحاق بجامعة ونشستر ، وقد التحق ويقل بالقسم العسكرى بالجامعة رغم خطاب احتجاج أرسله ناظر المدرسة إلى والده قائلا « إنى أشعر بالأسف لإرسال ابنك إلى القسم العسكرى وأبادر بإخبارك أن هذا العمل الذى يدل على يأسك من مستقبل ابنك ليس له ما يبرره ، لأنى أعتقد أن ابنك لديه الكفاءة اللازمة ليشق طريقه فى سبل الحياة الأخرى بنجاح » .

والذين يذكرون ويقل فى ونشستر يقولون عنه أنه كان هادئاً متحفظاً ، مكباً على العمل والدرس ، شديد العناد ، صلب الرأى ، وكان يحفظ كثيراً من الشعر الذى ظلت بعض أبياته عالقة بذاكرته حتى اليوم .

وقد تخرج ويقل من ساندهرست فى يناير ١٩٠١ ، وعين فى الحرس الأسود فى ٨ مايو أى بعد بلوغه الثامنة عشرة بثلاثة أيام ، وبذلك أصبح ثلاثة أفراد من أسرة ويقل فى القوات العاملة البريطانية فى وقت واحد .

وظل ويقل فى الحرس الأسود حتى نهاية حرب البوير ، وقد احتفلت القوات هناك بمناسبة انتهاء الحرب بإقامة مباراة لكرة القدم اشترك فيها ويقل ، ولكنه سقط أثناء اللعب وأصيب بكسر مضاعف فى عظمة الترقوة وعظمة الكتف ، وظل بالمستشفى بجنوب أفريقيا طيلة ثلاثة شهور أعيد بعدها إلى انجلترا . وكانت نتيجة هذا الحادث

أنه لم يتمكن بعد ذلك من رفع ذراعه اليسرى إلى أعلى من مستوى الرأس .

وفى عام ١٩٠٣ عاد لوحدته وكانت قد انتقلت إلى الهند ؛ وفى عام ١٩٠٦ التحق كضابط اتصال بإحدى بطاريات المدفعية الجبلية الهندية على الحدود الأفغانية حيث كانت الاضطرابات لا تنقطع ، فأكسبته هذه الفترة خبرة واسعة بالعمليات الحربية فى تلك المناطق الجبلية .

وعندما عاد ويفل إلى انجلترا بالاجازة فى عام ١٩٠٨ التحق بكلية أركان الحرب ونجح فى المسابقة التى عقدت بها وكان ترتيبه الأول بين ٤٠٠ طالب . وعندما بلغت سنه الخامسة والعشرين كان أصغر بما لا يقل عن تسع سنوات من معظم الضباط الآخرين الذين كانوا فى كمبرلى .

وكان أمل ويفل أن يقضى بضع سنوات مع وحدات البنادق فى بلاد الصومال ، ولكن والده كان يرى أنه أمضى فترة كافية خارج انجلترا ، وأنه (أى الوالد) قد تقدمت به السن ، وأن نجاح ابنه فى كلية أركان الحرب كان يعطيه الحق فى قضاء عامين بانجلترا . وقد نجح ويفل بتفوق وحصل على الدرجة (أ) ومع ذلك لم يقدّر له البقاء فى أرض الوطن حيث رشحه قائد الكلية للسفر إلى روسيا عندما تقرر اختيار أحد الضباط المتفوقين لتعلم اللغة الروسية . وعلى ذلك سافر ويفل إلى روسيا وأمضى هناك طيلة عام ١٩١١ تقريباً مع عائلة روسية فى موسكو . وعندما عاد إلى انجلترا تقدم لامتحان

المترجمين العسكريين ونجح فيه ، ثم عمل بعد ذلك فى فرع التدريب بوزارة الحربية فترة قصيرة عين بعدها فى قلم المخابرات الحربية حيث قضى به عامين فى الفرع الخاص بروسيا . وفى عامى ١٩١٢ و ١٩١٣ زار روسيا مرة ثانية لمشاهدة المناورات العسكرية ، وفى المرة الأولى كان ذلك مع فيلق قوقازى ، وكانت المناورة تجرى فى شمال القوقاز فى المنطقة التى كانت مسرحاً لقتال عنيف فى خريف سنة ١٩٤٢ ، أما فى زيارة عام ١٩١٣ فكانت المناورة بمنطقة كييف .

وقد أتاحت له زيارته لروسيا فرصة لم تتح لغيره من الملازمين ، إذ شاهد عن كثب تحركات الجيوش الضخمة في وقت كانت فيه المناورة حتى بفرقة واحدة أمراً غير مألوف في انجلترا ، وقد ساعدته ذاكرته القويه وقوة ملاحظته على درس ما شاهده فى تلك الفترة من حركات عسكرية وتدريب .

الإيبر وروسيا

عندما دخلت بريطانيا الحرب فى أغسطس عام ١٩١٤ كان ويفل يعمل فى وزارة الحربية ، وقد فشلت جميع المحاولات التى بذلها للحاق بقوة التجريدة البريطانية الأولى ، وحتى لما تمكن من الحصول على الموافقة على السفر إلى فرنسا فى شهر سبتمبر ، احتجز بضعة أسابيع فى مركز الرئاسة العام لأعمال تتعلق بالمخابرات ، وأخيراً عين أركان حرب للواء التاسع المشاة وهو برتبة يوزباشى . وقد اشترك هذا اللواء فى معركتى المارن والإين كمقدمة للفرقة الثالثة ، وقام بعمل

رأس حربة عند معبر هذين النهرين فى نانتوى وفايى . وفى قطاع لا باسيه نجح اللواء المذكور فى تثبيت الألمان رغم هجمات مشاتهم العنيفة ورغم ضآلة المعاونة التى كانت تقدمها المدفعية للواء .

وقد كتب عنه صديق له فى تلك الأيام هو الكابتن بوكانن يقول :

« لقد كانت تلك الأيام من نوفمبر أياماً عصيبة . ولكن ويفل لم يفقد هدوءه لحظة واحدة ، وكانت جميع تصرفاته توحى بالثقة . لقد كان شديد الاحتمال ولم يكن يرحم نفسه مطلقاً ، وقد وطد العزم على معرفة كل شبر من الجبهة التى كان يعمل بها ، فكان يقطع عدة أميال فى اليوم ، نهاراً وليلا ، فى هذا السبيل » .

كانت قوة اللواء فى ذلك الوقت تبلغ ٥ آلاف رجل ، وعندما غير اللواء التاسع فى نوفمبر من ذلك العام كان عدد القوة الباقية به لا يزيد عن ٦٠٠ رجل . ولكى نفهم شخصية ويفل جيداً ، يجب أن نعرف أى نوع من الجيوش حصل فيها على التدريب وخرج منها بتجاربه : كانت الفرقة التى من ضمن لواءاتها اللواء التاسع هذا ، تتكون من ١٢ كتيبة من المشاة المتعبين ، وليس معهم سوى مدفعية قليلة ، وفى الإيبر واجهت هذه الفرقة ٣٩ كتيبة من المشاة الألمان و ٢٨ آلاياً من الفرسان تعاونهم مدفعية قوية ، وأوقفتها ، والألمان كما هو معروف قوم تجرى روح الحرب فى دمائهم .

وفى شتاء وربيع ١٩١٤ / ١٩١٥ كان ويفل قد اختبر حرب الخنادق الحقيقية ، تلك الحرب المضنية للجسم والروح معاً . وفى أجازة قصيرة

حصل عليها فى إبريل عام ١٩١٥ عاد إلى لندن حيث عقد قرانه على ابنة الكولونيل أوين كيرك. وقد أثمر هذا الزواج ثلاث بنات وولداً واحداً اتبع خطا والده وتعلم فى ونشستر وساندهرست، ثم التحق بالحرس الأسود.

وكان أول ما شاهده ويفل بعد خروجه من الكنيسة إعلانات كانت تلصق على الجدران تعلن أول غارات الألمان بالغازات السامة فى الإيبر، وتوقع أن تلغى أجازته ويعود إلى الميدان، ولكن جبهة اللواء التاسع كانت هادئة نوعاً ما فبقى ويفل فى لندن لتكملة أجازته.

حدث بعد ذلك أن كلفت قوات الفرقة الثالثة التى يتبعها اللواء التاسع بالاستيلاء على قصر هوج، وبعد انتهاء العملية اشتبكت قواتها مع الألمان فى معركة دامية عند تبة بيلاوارد. وكان قائد الفيلق الذى تتبعه الفرقة الثالثة هو «اللنبى». وبانتهاء المعركة كانت الفرقة المذكورة قد خسرت ١٤٠ ضابطاً و ٣٤٠٠ من الرتب الأخرى، وخص اللواء التاسع من هذا العدد ٧٣ ضابطاً من مجموع ضباطه البالغ عددهم ٩٦! وكان ويفل من ضمن الجرحى الذين تعتبر جروحهم خطيرة. وبينما هو عائد إلى الخط الأمامى فى المساء المبكر فتح الألمان نيران مدافعهم الشديدة الانفجار ومدافع الماكينة وانفجرت بالقرب منه قنبلة عيار ٥.٩ فأصابت شظية منها عينه اليسرى وأفقدته إبصارها. وقد عاد ويفل إلى انجلترا وظل بها حتى ديسمبر ١٩١٥. ولما عاد إلى فرنسا عمل فى مركز الرئاسة العام طيلة فترة معارك السوم التى ظلت مستمرة طيلة صيف وخريف عام ١٩١٦.

وعندما قاربت المعركة الأخيرة الانتهاء فى أكتوبر ، أرسل ويفل إلى روسيا لتغيير ضابط بريطانى آخر كان هناك وقام بالأجازة ، ولكن الأخير لم يعد إلا بعد ستة شهور . وفى تلك الأثناء كانت الثورة الروسية قد ابتدأت ؛ وكانت زوجة ويفل معه فعادا معاً إلى انجلترا .

وفى خلال إقامته فى روسيا ، وفى أوائل عام ١٩١٧ ، وصلت إلى ويفل برقية من لندن تفيد بأن القوات البريطانية بقيادة الجنرال مود تتقدم نحو بغداد وينتظر لها النجاح فى عملياتها ، وطلب منه أن يحاول إقناع الروس بالتقدم بقواتهم نحو الموصل بالتعاون مع قوات البريطانيين فى العراق . وعلى ذلك ذهب ويفل لمقابلة رئيس هيئة أركان الحرب الروسية ومعه الملحق الفرنسى بالسفارة ، وقدم له هذه المعلومات ، واقترح عليه تنفيذ ما جاء بالبرقية .

وقد وافق رئيس هيئة أركان الحرب الروسية على هذا الطلب بالرغم من أن الملحق الفرنسى كاد أن يؤدى بحديثه إلى إفساد المناقشة حين اقترح أن يرفع العلم الفرنسى على الموصل بعد استيلاء الروس عليها ! ولكن لحسن الحظ لم يكن القائد الروسى يجيد الفرنسية وأفلح ويفل بلباقته فى تغطية الموقف .

فلسطين

كان ويفل يأمل فى العودة إلى فرنسا ، ولكن السير ويليام روبرتسون الذى كان وقتذاك رئيساً لهيئة أركان الحرب الإمبراطورية ، عينه للقيام بمهمة ضابط اتصال بين « اللنبى » ووزارة الحرب البريطانية ، وكان

« اللنبي » وقتذاك يتولى القيادة العامة فى فلسطين ، وكانت العمليات تسير بنجاح باهر فى صالح البريطانيين . فكان اشتراك ويفل فيها ومراقبته لها عن كثب برفقة « اللنبي » عاملا هاماً فيما اكتسبه من خبرة ومعلومات عن القيادة . ولمناسبة أعمال المطاردة المتصلة التى كانت تقوم بها القوات البريطانية فى ذلك الوقت كتب ويفل فى بعض كتبه يقول « إن القائد المنتصر الذى يقوم بالمطاردة يجد أن عدوه يزداد قوة كلما اقترب من قواعده ، كما أنه لا بد أن يقابل فى أثناء المطاردة كثيراً من الموانع وأعمال التعطيل » .

وعند ما عاد ويفل إلى لندن ليقدم لرئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية تقريراً عن الحملة فى فلسطين والموقف العام هناك ، كلفه السير روبرتسون حضور مجلس الحرب الأعلى المنعقد فى « فرساى » ، حيث كانت تدور مناقشات حامية عن مستقبل فلسطين .

وقد أمضى ويفل حوالى خمسة أسابيع فى « فرساى » إلى أن سمح له بالعودة إلى فلسطين . وبعد وصوله إليها بقليل عينه « اللنبي » رئيس أركان حرب الفيلق ٢٠ الذى كان يقوده الجنرال تشتوود ، وكان ويفل وقتذاك برتبة البكباشى ، وقد كتب عن الخطة التى وضعها « اللنبي » للعمليات هناك فقال « إنها كانت خطة جريئة بالرغم من أن العدو كان دوننا فى العدد والروح المعنوية . وكانت تلك الخطة تقضى على الفرسان بالسير لمسافة تزيد على ٥٠ ميلا يعبرون خلالها سلسلة من التلال التى يملكها العدو والتى لا يتخللها سوى

طريقين غير ممهدين . ولم يشهد التاريخ خطة تفوقها جرأة يقوم بتنفيذها مثل هذا الحشد من الفرسان ضد عدو لا يزال سليما » .

وكان رأى ويفل فى حرب فلسطين أنها لم تكن مجرد فرصة لإظهار فنون القيادة فحسب ، ولكنها كانت مرشداً قيماً إلى طبيعة العمليات الحربية فى المستقبل ، وكان اعتقاده أنها ستكون آخر حرب تستخدم فيها الخيول ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن تلك العمليات ستظل درساً مفيداً للاستخدام الجيد لخفة الحركة ، كما كان من ضمن ما استخلصه ويفل من دروس هذه العمليات أنها كانت مثلا رائعاً للفوائد العظمى التى يجنيها القائد الذى يستطيع أن يخفى نواياه ويخدع العدو إلى أن يضرب ضربته النهائية بأقصى ما يمكن من القوة والمفاجأة . كما كان من رأيه أن القوة الجوية كانت ذات أهمية عظمى فى شل حركة العدو ، وإن كان يرى أيضاً أن أساس نجاح « اللنبى » هو العناية الفائقة التى كان يبذلها فيما يختص بالتموين وطرق المواصلات .

وبعد الانتصار النهائى فى فلسطين عاد ويفل فى أجازة قصيرة إلى لندن حيث ولدت له خلالها ابنته الأولى . ولما عاد إلى القاهرة ظل يعمل بها رئيساً للعمليات فى هيئة أركان حرب الجنرال « اللنبى » طيلة الثورة المصرية وإلى ما بعدها حتى عام ١٩٢٠ . وقد استفاد ويفل من هذين العامين اللذين قضاهما جنباً إلى جنب مع الجنرال «اللنبى» حيث أتيحت له الفرصة لكى يرقب عن كثب أعمال هذا القائد الموهوب ، فأخذ عنه الكثير من طرق الخداع التى كان يلجأ إليها

والتى أتيحت لويفل فرصة تطبيقها عملياً فى حرب الصحراء الغربية بعد ذلك بعشرين عاماً . كما أنه اكتسب منه خبرة فى قيادة الجيوش التى تضم أجناساً متعددة ، واقتبس منه الكثير من طرقه الحازمة فى المحافظة على النظام ، وخلق روح معنوية عالية بين القوات . فضلا عن ذلك فقد خبر عن كثب عقلية هذا القائد الكبير ، تلك العقلية التى تحررت من قيود نظم الحرب العتيقة ، أعنى الحروب الموضعية ، وحرب الخنادق ، ولجأت إلى حروب المكر والدوران وخفة الحركة ، فنجحت فى النهاية وتغلبت على عدو باسل شديد المراس . تلك ولا شك كانت دروساً وتجارب قيمة استفادها ويفل وساعدته فى مستقبل أيامه على إحراز النصر فى المعارك التى أدارها .

وعندما عاد ويفل إلى وطنه عين قائداً لأحد الآلايات ، ثم قائداً لإحدى الفرق الإنجليزية فى ألدرشوت . ولعل أبرز أعماله منذ نهاية الحرب العظمى الأولى حتى نهاية عام ١٩٣٥ أنه اضطلع بأكبر نصيب فى وضع قوانين خدمة الميدان ، وهى الطبعة الرسمية التى ظلت مستعملة حتى بداية الحرب الأخيرة .

الفترة بين الحربين

إلى هذا الوقت كان ويفل قد شاهد كل ما يمكن أن يحدث للجندى فى مختلف ميادين القتال ، وخبر أعمال المخابرات وهو فى لندن وفى كل من روسيا وفرنسا ، كما زاول أهم أعمال الضابط أركان الحرب مع الجنرالين تشتوود واللنبى ، وأولهما قائد فيلق كفء ، والثانى قائد

عام ممتاز . وقد أظهرت له إقامته فى فرساى حقيقة ما يجرى وراء الستار أثناء الحرب ، فى حين كانت إقامته فى مصر فى لحظات اضطراب وغليان قد فتحت أنظاره على السياسة الإمبراطورية العامة .

تمّت لويفل كل هذه التجارب ولم يكن قد جاوز الثامنة والثلاثين ، وساعده على الاستفادة منها وحسن استيعاب دروسها ما وهبه الله من عقل متزن وطبيعة هادئة تميل إلى الصمت والتحفظ ، وقوة ملاحظة فائقة ، وسعة اطلاع . وإن هذه الصفات ولا سيما الاتزان والهدوء ، قد تجلت جميعها فى كتاباته العديدة . فبعد انتهاء الحرب العظمى الأولى كان يوالى « دائرة المعارف البريطانية » بأبحاث مختلفة ، كان أحدها عن « الجيش » ، وآخر عن « الحروب فى روسيا » ، وعن « العمليات الحربية فى فلسطين » . وكان أول كتاب أصدره هو كتاب « حملة فلسطين » فى عام ١٩٢٨ ، وهو يعتبر من أهم المراجع فى التاريخ العسكرى لهذه الحملة ، لا سيما وقد كان ويفل جد مشغوف بالتاريخ العسكرى وتبحر فى دراسته كثيراً ، وكان أهم ما يثير اهتمامه فيه هو الناحية البشرية فى الحروب .

وفى عام ١٩٢٠ أبدى ويفل عدم ارتياحه للاقتراحات التى كانت تبحث لتخفيض سلاح الدول ، وكان يقول أنه ليس من العدل أن يخفض سلاح بريطانيا فى حين أن المصانع الألمانية تعمل ليل نهار فى إنتاج السلاح . وحتى إذا كان هذا التخفيض المقترح نسبياً ، فإن ذلك يستدعى أبحاثاً واسعة النطاق فى نظم التجنيد ، ومدد الخدمة

العسكرية ، وكميات وأنواع الأسلحة ؛ كما كان يقول ، رداً على القائلين بأن الدول ذات الموارد غير المحدودة لا تحتاج إلى جيش كبير فى أوقات السلم ، بأنه فى الحروب المستقبلة سيكون من الممكن أن تفنى أمة بأسرها بضربة خاطفة قبل أن تتمكن من استغلال تلك الموارد اللانهائية وتكوّن لنفسها جيشاً يدافع عنها . وتعتبر بعض الكتابات التى نشرها ويفل فى هذا الصدد أول تحذير صدر من رجل عسكرى ضد احتمال قيام أفكار عسكرية جديدة فى ألمانيا .

وعندما كان ويفل فى ألدرشوت فى المدة من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٤ كان يقود اللواء السادس المشاة ، وقد رقى إلى رتبة ميجر جنرال فى عام ١٩٣٣ وعين قائداً للفرقة الثانية حيث ظل قائداً لها طيلة عامين . وفى خلال هذه الفترة من القيادة أدخل ويفل على الوحدات كثيراً من التجديد ، وخصوصاً فى نظم التدريب . ومن أشهر الأمثلة للمشروعات التى وضعها فى هذا الصدد مشروعاً كان يتضمن أن يقوم الجنود بإنقاذ « أميرة جميلة » (يمثلها أحد الجنود) ، ويقضى التمرين بأن يتم إنقاذ الأميره ثم تخطف ثانية وهكذا بضع مرات ، وبذلك يتضاعف شوق الجنود للتدريب .

وكان رأى ويفل فى « الجندى » أنه يجب أن يعنى بتدريبه على الطريقة الكشفية ، وأن يدرب على أن يستطيع التفكير لنفسه ويشجع على تنمية موهبة المبادأة فيه . أما « الضابط » فيجب أن يحصل على قسط وافر من المعلومات العامة ، وأن يكون ذا نظرة واسعة فى

الحياة علاوة على المستوى المطلوب من المعرفة وصفات القيادة . وكان يرى أنه من الضرورى تعميم نظام تبادل الضباط فى جميع أسلحة الجيش وفروعه ، كما يجب أن يكون الضابط « نشط الجسم والعقل معاً » والضابط المثالى يجب ألا يخشى شيئاً أو أحداً » . وفيما يختص بالتدريب كان يقول بأن « تمرين اللواء » يجب ألا ينتهى « بمؤتمر اللواء » بل إن الدروس المستفادة يجب أن تبلغ وتناقش فى الكتائب .

أما « القائد » فيجب أن يكون قوى الجسم والعقل ، ويحسن أن يكون صغير السن ، ولهذه المناسبة فهو يرى أن أفضل سن للقائد يجب أن تكون بين الأربعين والخامسة والأربعين ، أو أقل من ذلك بعشر سنوات فى وقت الحرب ...

كان ويڤل من أنصار المعدات الميكانيكية ، وأبرز دليل على ذلك أنه ساعد على إدخال حمالة البرن التى صارت من أكثر العربات المدرعة فائدة . وقد قال عنه الألمان كثيراً فى هذا الصدد ، ومن ذلك ما قاله الجنرال كيتيل فى مجلة « صناعة الحرب الألمانية » فى أوائل عام ١٩٣٩ « لا يوجد فى الجيش البريطانى فى الوقت الحاضر سوى جنرال واحد يعتد به . أما الآخرون فإنهم لا يفهمون شيئاً عن الحرب الميكانيكية ؛ وهذا الضابط قد درس موضوعها جيداً منذ عام ١٩٢٨ وقد يصبح قريباً الشخصية العسكرية البارزة فى أى حرب تنشب خلال الخمس سنوات القادمة » .

وكان ويڤل يجزم بأن حرب الخنادق لن يكون لها مجال فى الحرب

الثانية ، وبأن تطور معدات القتال سيعيد للمعارك حركتها وسرعتها .
وكان يرى أن التكتيك ومعدات القتال سيتغيران ولا شك على مر الأيام ، ولكنه يرى أن ثمة صفات دائمة ستظل ضرورية لكل قائد ما بقى الزمان . فالقائد فى نظره هو الذى يستطيع إطعام جنوده وإمدادهم بكافة ما يلزمهم من المعدات المتباينة الأنواع ، وهو الرجل الواسع الخيال الذى يقدر على وضع الخطط العملية وتنفيذها ، قوى الملاحظة ، صبور لا يكل ، حاذق ، رؤوف قاس ، أمين محتال ، مبذر شحيح ، كريم بخيل ، متأن عجول . ويشترط فيه أيضاً أن يكون ملماً بقواعد التكتيك ، صحيح الجسم والعقل ، مقداماً جسوراً ، ولا تقل روح المغامرة فى نظره عن باقى الصفات الضرورية الأخرى ، فبها وحدها يمكن الحصول على أبهر النتائج ؛ كما يعتقد ويقل أن دراسة طبيعة الأرض والقدرة على تحريك القوات وإمدادها فى تلك الأرض ، دليل على الوعى العسكرى المتيقظ . وهو يرى الشجاعة فرضاً واجباً على جميع الأفراد ، شجاعة فى القلوب لمجابهة رصاص الأعداء ، وشجاعة فى العقول لمجابهة التطورات المستحدثة . ونصيحته للقادة أن يكونوا أكثر إلماماً بالناحية الفنية للشئون العسكرية من سابقيهم ، وأن يكونوا على معرفة تامة بفوائد الطائرات وطرق استخدامها والدبابات وقدرتها ، وكذا السيارات المدرعة واللاسلكى واستعمال الدخان والحرب الكيماوية ومعداتها وأعمال التموين وهندسة الميدان والدعاية ، وأهم من ذلك كله المعرفة التامة بطبيعة الرجال .

ويعتقد الجنرال ويفل بأنه يمكن الوصول إلى أحسن النتائج والحصول على أجل الأغراض لو منح القائد مرؤوسيه شيئا من الحرية فى العمل، كل منهم فى حدود استطاعته ؛ وهو يدين بهذا الدرس لقائده وأستاذه الجنرال اللنبي . كما يؤكد أهمية المحافظة على راحة الجنود وسلامتهم ويعتقد أن الجنود تسر - بل وتعجب - بالقائد الشديد القاسى عندما يرون أن هذه القسوة تستخدم للمحافظة على مصالحهم والعمل على ما فيه خيرهم .

وفى عام ١٩٣٧ عين ويفل قائداً للقوات البريطانيـة فى فلسطين وشرق الأردن فى وقت كانت القلاقل تشتد والاضطرابات تتزايد بين العرب واليهود ، ولكن لم ينقض ذلك العام حتى وضع ويفل حداً لتلك الاضطرابات وسرعان ما ساد الهدوء . وعند ما عادت المتاعب مرة ثانية بعد ذلك استخدم ويفل عدداً من القـولات المدرعة ، كما استخدم السلاح الجوى فى معاونة القوات الأرضية . وقد أتاحت له فرصة وجوده فى فلسطين اكتساب خبرة عملية واسعة عن الشرق الأوسط ، وهو الميدان الذى قدر أن يدافع عنه بعد ذلك .

وعند ما بدأت انجلترا أخيراً فى إعادة تنظيم جيوشها وإعدادها للحروب الحديثة ، استدعى ويفل من فلسطين وعينه هوربليشيا قائداً للمنطقة الجنوبية بانجلترا ، وبذلك وضعه على رأس قائمة المرشحين لاتخاذ قيادة كبرى فى حالة نشوب الحرب . وفى عام ١٩٣٩ أنعم عليه بلقب « سير » بعد أن ظلت أسرة ويفل خالية من هذا اللقب نحو ٦٠٠ عام .

والظاهر أن الفترة التى قضاها فى فلسطين قد أعادت إلى ذاكرته أيام اللنبي ، إذ أنه ماكاد يعود إلى انجلترا ، حتى شرع فى كتابة تاريخ حياة هذا القائد ، ونشر الجزء الأول منه فى عام ١٩٤٠ تحت عنوان « اللنبي ، دراسة فى العظمة » . وظهر الجزء الثانى عام ١٩٤٣ تحت عنوان « اللنبي فى مصر » .

وقبيل قيامه إلى مصر فى عام ١٩٣٩ ألقى ثلاث محاضرات فى جامعة كمبردج عن القيادة ، وقد امتازت هذه المحاضرات بطرافتها وبتعمقها فى البحث فى العوامل الإنسانية وأثرها فى الحروب ، وبعض فقرات هذه المحاضرات تلقى ضوءاً كبيراً على ما قام به ويفل بعد ذلك من عمليات فى شمال أفريقيا .

وكان ويفل يعتقد أن العوامل الاستراتيجية والتكتيكية التى أحاطت بالحملة البريطانية فى فرنسا فى الحرب العظمى الأولى لم تتح أى مجال للإبداع فى وضع الخطط كما لم تتح أى مجال للجرأة فى التنفيذ أو الإقدام عند متابعة النجاح ، بل اتصفت جميع المعارك البريطانية فى تلك الفترة بخلوها من هذه الصفات ، ولذلك لم يكن ويفل يفتأ يردد « إن أوحال الفلاندرز يجب ألا تلتصق بأذهاننا » .

وفى عام ١٩٣٩ عين ويفل قائداً عاماً للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط ، وكانت قيادته تشمل منطقة تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى بحيرة فكتوريا جنوباً ، ومن الحدود الغربية للسودان إلى خليج عدن ، وهى تشمل مصر والسودان وفلسطين

وشرق الأردن والصومال البريطانى وقبرص ، كما كانت جميع القيادات الأخرى الأصغر من هذه تابعة له .

الشرق الأوسط

بالرغم من أن مصر كانت « نقطة حيوية » للامبراطورية البريطانية فإن القوات التى وضعت تحت تصرف ويفل للدفاع عنها كانت ضئيلة ؛ فلكى يحافظ على الصحراء الغربية فيما بين النيل وليبيا لم يكن يملك التصرف فى أول الأمر فى أكثر من ٨,٠٠٠ رجل من البريطانيين . هذا وعلاوة على القوات البريطانية المدرعة كان هناك مركز رئاسة ولواء من الفرقة الرابعة الهندية ، ثم وصل لواء آخر هندى بعد إعلان الحرب بقليل . ولم تصبح القوات بالدرجة الكافية نسبياً إلا فى فبراير عام ١٩٤٠ عندما وصل لواء استرالى وآخر نيوزيلندى . وفى ربيع ١٩٤٠ كان مجموع قوات الشرق الأوسط لا يتعدى ٣٦,٠٠٠ رجل وبعض المدفعية . هذا وبناء على المعاهدة المعقودة بين مصر وبريطانيا لم يكن بالإمكان استحضار قوات الطيران إلا إذا نشبت الحرب فعلا ، وعلى ذلك ففى منتصف عام ١٩٤٠ لم يكن بتلك المنطقة الحيوية سوى أقل من ١٠ أسراب . وكان من حسن الحظ فعلا أن إيطاليا لم تدخل الحرب فوراً حيث كان لديها فى ليبيا نحو ٢٩٠,٠٠٠ رجل معهم ما لا يقل عن ١٥٠٠ مدفع ونحو ٨٠٠ دبابة و ١٥,٠٠٠ مدفع ماكينة و ١٠,٠٠٠ سيارة . أما طائراتهم فكانت أكثر عدداً وأحدث طرازاً من الطائرات التى كانت تحت تصرف ويفل . وكانت هذه القوات

فى الأصل معدة لصد هجوم فرنسا من ناحية تونس ، فلما انتهى هذا الخطر وجهت تلك القوات نحو مصر .

وعندما انهارت فرنسا ودخلت إيطاليا الحرب فى يونية عام ١٩٤٠ ، ورفضت القوات الفرنسية فى شمال افريقيا وسوريا وجيبوتى التعاون مع الحلفاء ، استقر عبء الدفاع عن الشرق الأوسط بأكمله على عاتق ويفل ، وهو عبء ثقيل إذا قيس بمقدار ما كان لديه من رجال وعتاد .

وعندما سافر ويفل إلى انجلترا للتشاور مع المستر تشرشل ، قرر هذا الأخير المبادرة بإرسال الإمدادات إلى الشرق الأوسط سواء عن طريق الكاب أو عن طريق البحر الأبيض المتوسط الذى أصبح منطقة خطرة بالنسبة للحلفاء . وهذا القرار وإن كان خطيراً إلا أنه كان قراراً استراتيجياً حكيما ، ولو أن كل هذه المحاولات لم تؤد إلى موازنة القوات المتضادة فى ميدان شمال افريقيا ، حتى لقد ضمن الكثيرون هزيمة ويفل قبل أن تنشب المعارك فعلا .

كان من الظاهر فى صيف عام ١٩٤٠ أن ثمة عاملين قد يؤخران الهجوم على مصر . أولهما أن إيطاليا قد لا تكون مستعدة لابتداء الهجوم فى الحال ، وثانيهما أنه بالرغم من تغلغل عناصر الجاسوسية فى مصر ، إلا أنه كان بإمكان البريطانيين إخفاء العدد الحقيقى للقوات التى تحت تصرفهم ومقدار ما هم عليه من ضآلة وقلة استعداد . فكان على ويفل فى تلك الحال أن يحاول كسب الوقت حتى تصله الامدادات التى تقرر إرسالها إليه ؛ وعلى ذلك فقد أمر القوات القليلة التى على

الحدود بالانتشار وكثرة التحرك لإيهام العدو بضخامة أعدادها ، ولم يضيّع وقتاً منذ قدومه إلى مصر حتى ساعة دخول إيطاليا الحرب بل عمل على تدريب القوات على عمليات الصحراء والسير الطويل حتى يشتد عودهم ، كما جعل يشرف على إيواء وإطعام جنوده المشكلين من أجناس وعناصر مختلفة بلغ عددها اثنى عشر ، كما جعل يرفع من روحهم المعنوية ويدعم النظام الذى تتطلبه العمليات الهجومية الشاقة .

وعندما حلت اللحظة المناسبة بدأ ويقل فى الحال ، فأمر قواته فى شهر يونية باختراق خط الأسلاك الشائكة الذى أقامه الإيطاليون لتحديد الحدود الليبية ، والإغارة على النقط الإيطالية ، يخربون خطوط التلغراف ، ويزعجون القوافل المختلفة ويدرسون تحركات العدو وأحوالهم ومهماتهم . واستمرت هذه الإغارات بنشاط واحتفظ البريطانيون خلالها بميزة المبادأة فكانوا يهاجمون قوافل الجنود واللوريات المحملة بالذخيرة ويأسرون كثيراً من الجنود ، كما كانوا يستولون على نقط الحدود المحصنة لفترة قصيرة ، وعندما يعود الإيطاليون لاحتلالها تقذفهم الطائرات بقنابلها فى حين تقوم الداوريات بقطع خطوط أنابيب المياه الواصلة بينها وبين بردية على بعد ١٢ ميلا منها .

والظاهر أن هذا النشاط المتواصل قد أقنع الإيطاليين بأن لدى البريطانيين قوة ضخمة ، وأن لديهم عدداً كبيراً من الدبابات ، ذلك لأنهم لم يكتشفوا أن ذلك العدد الكبير الذى كانوا يشاهدونه عن بعد ما هو إلا سيارات معطلة قد غطيت بأجسام دبابات خشبية ،

وأن الآثار العديدة التى رسمت فوق الرمال إنما كانت بفعل عدد صغير من الدبابات الحقيقية .

واتبع ويفل نفس الطريقة فى إيهام العدو بأن ما لديه من الطائرات يفوق ما لديهم عدداً ، إذ ملأ المطارات وأرض النزول بطائرات هيكلية من الخشب ، وكان غرضه من كل تلك الاجراءات هو كما قلنا كسب الوقت حتى تصله الامدادات ، وفى الوقت نفسه يكسب وقتاً لتدريب جميع القوات على حرب الصحراء تدريباً جيداً . وقد استمرت هذه الاجراءات طيلة الصيف ، وكان ويفل يعلم بأن لهذه الأعمال الخداعية حداً وأنه لا يستطيع أن يستمر فيها إلى ما لا نهاية .

وفى هذه الأثناء افتتح « الدوق داوستا » أولى معارك الشرق الأوسط فى أغسطس عام ١٩٤٠ بهجومه على الصومال البريطانى ، ولما كانت خطة الانجليز فى الأصل مبنية على أساس مساعدة الفرنسيين الموجودين فى الصومال الفرنسى لهم ، فقد انهارت هذه الخطة أيضاً بانهيار فرنسا . ولم يعد أمام البريطانيين مفر من الانسحاب من الصومال البريطانى ، وفعلا سحبوا قواتهم إلى عدن . وقد أبدى الجنرال ويفل فى هذه المناسبة كثيراً من الثبات والصبر ، حتى قيل أنه ذهب فى اليوم الذى تم فيه الانسحاب للسباحة فى حمام ميناهاوس كعادته فى كل يوم .

وفى ١٣ سبتمبر قام جرازيانى بأول محاولة للهجوم على مصر ووصلت قواته فى ١٦ منه إلى سيدى برانى ، على بعد ٦٠ ميلا من قواعدها ،

فى حين كانت قاعدة البريطانيين فى مرسى مطروح المحصنة. ولكن الإيطاليين توقفوا فى سيدى برانى، ولا يعلم للآن سبب هذا التوقف، وربما كان الخداع والتغيير الذى لجأ إليهما ويفل مما لم يترك أدنى شك لدى الجنرال جرازيانى فى أن ويفل يملك جيشاً قوياً، وأنه ينوى جرّه إلى كمين منصوب له فى الصحراء، فجعل جرازيانى يستعد لاستئناف التقدم بتمهيد الطرق ومدّ أنابيب المياه. ثم قام بتوزيع قواته فى منطقة سيدى برانى وحولها، ووضع الفرقة الأولى والفرقة الثانية الليبيتين، وكذا الفرقة الثالثة من القمصان السود فى تلك المنطقة، بينما وضع الفرقة المدرعة بقيادة الجنرال ماليتا فى الجنوب.

وما كاد يحل شهر نوفمبر حتى كانت مهمات ويفل وعتاده وكذلك تدريب جنوده قد فاقت مستوى الإيطاليين فى نواح عديدة. ولأول مرة فى تاريخ تلك الحرب نجد بريطانيا قد دفعت بقواتها البرية والبحرية والجوية دفعة واحدة فى مسرح واحد من مسارح الحرب، فقد كان على الأسطول البريطانى ضرب مواقع الإيطاليين من البحر ومعاونة الجيوش البرية بمدافعه، كما كان على سلاح الطيران تمهيد الطريق أمام المشاة والدبابات بتحطيم القوة الجوية للإيطاليين أو بمهاجمة القوة الأرضية وقذفها بالقنابل والمدافع الرشاشة.

وفى اليوم السابق لليوم الذى حدده ويفل لتوجيه ضربته النهائية إلى جرازيانى كان معلوما أنه كان فى رفقة جلالة الملك «فاروق» فى رحلة من رحلات الصيد، وفى المساء كان فى القاهرة، ولم يحاول

أن يخفى تحركاته هذه عن الأعداء إمعاناً فى خديعتهم والتغرير بهم .
وعندما وصل إلى الميدان تحدث إلى جنوده فقال : « إن لنا التفوق فى كل شيء إلا العدد ، فنحن أحسن من أعدائنا تدريباً ، وأكثر دقة فى إصابة الهدف ، كما أننا نمتاز عليهم فى الأسلحة والمعدات ، وفوق كل هذا فنحن أشجع منهم قلوباً ، وأقوى يقيناً بعدالة القضية التى نحارب من أجلها » .

وفى الأسابيع الأولى من ديسمبر عام ١٩٤٠ كان للإيطاليين فى سيدى برانى ثلاث فرق إيطالية وفرقة أخرى مختلطة قرب الساحل ، وفرقة مدرعة إلى الداخل نحو الصحراء ، وفرقتان أخريان فى المؤخرة . وكان القائد البريطانى الذى تولى قيادة عمليات الهجوم هو الجنرال السير هنرى ميتلاند ويلسون ، وكانت الفرقتان اللتان استخدمهما فى ذلك يكوّنان فيلقا بقيادة الجنرال أوكنور وهو أحسن خبراء الدبابات فى الجيش البريطانى .

وفى ضوء القمر الخافت من ليلة ٩ ديسمبر تقدمت القوات البريطانية نحو الإيطاليين ، وما كاد ينبلج الفجر حتى ارتفعت الطائرات البريطانية قاذفات القنابل تحرسها المقاتلات فحطمت مئات الطائرات الإيطالية وهى جاثمة فى قواعدها فى سيدى برانى والسلوم وكابتزو وبردية ، ثم عادت لتحمل شحنة أخرى من القنابل لإلقائها على القوات الأرضية فى سيدى برانى . كما أن الأسطول البريطانى ظهر بحذاء الشاطىء وأخذ يمطر مدفعية الطليان بوابل من مدافعه الثقيلة ، بينما كانت الفرقة

المدرعة تتقدم صوب الشمال الغربى ، حيث أهمل الإيطاليون تحصين هذا الجنب ، وأندفعت خلاله ودمرت وأسرت دباباتهم ومدافعهم قبل أن تتمكن من إطلاق طلقة واحدة . وفى خلال ذلك قتل الجنرال ماليتا وهو يحاول جمع شتات قواته . ثم سارت تلك الفرقة جنوب البحر نحو بقبق ، ولم يأت المساء حتى تمت محاصرة حامية سيدى برانى التى استسلمت بعد يومين ، فوقع منهم فى الأسر نحو أربعين ألفاً ، كما غنم البريطانيون كثيراً من العتاد والسلاح .

ولما رأى الجنرال أوكنور أن قواته قد أتمت مهمتها على خير وجه اندفع بها صوب الغرب . وكانت فرقة كاتانزاو الإيطالية تتقدم فى ذلك الوقت إلى أرض المعركة ، ولسوء حظها قابلتها الفرقة المدرعة البريطانية واضطرتها للتسليم .

وقد فوجىء ويڤل نفسه بهذا الانتصار الباهر ، فقد كان كل ما يرجوه أن يجس نبض الإيطاليين ، فإن لاح له شبح الهزيمة انسحب فوراً من المعركة حتى لا يضعف روح جنوده المعنوية . ولكن ما أن تبين له انهيار الروح المعنوية فى الإيطاليين ، وما أن درس مواقعهم على الخريطة ، إلا واقتنع بأن الموقف يستحق المغامرة ، ولما لم يكن قد خسر الكثير من قواته ، فقد دفع بجيشه الصغير فى أعقاب الجيش الفاشيستى الهارب لعله يظفر بتحطيمه عن آخره فى ليبيا . وعلى ذلك أصدر أوامره بمتابعة التقدم .

وجعلت انتصارات ويڤل تتوالى حتى لم يكن الوقت يسعفه لتجهيز

الخطط بالإتقان الذى اتبعه فى معركة سيدى برانى ، فاعتمد كلية على تفوقه فى الجو وجعل يعيد خطط التطويق فى كل من كابتزو وبردية وطبرق وبنغازى ، بينما كان جرازيانى يتخبط فى نظريات الحرب العظمى الأولى ويدافع عن كل شبر من الأرض ، فكلفه هذا الجهل بحرب الصحراء خسارة الكثيرين من جنوده فى كل معركة من تلك المعارك ، وتجلى للعيان أن نظرية المعاقل المنعزلة فى الصحراء قد فشلت فشلا ذريعاً .

ومن أبدع المغامرات التى قام بها ويفل فى هذه الحرب إرساله الفرقة المدرعة عبر الصحراء لتقطع خط انسحاب الجنرال تايرا جنوب بنغازى بما يزيد عن خمسين ميلا ، وقد تمكنت الفرقة فعلا من اللحاق به ومعه ١١٢ دبابة و ٢١٦ مدفعا و ١٢٠٠ عربة و ٢٠,٠٠٠ رجل ، وأجبرته على القتال فى أرض مكشوفة إلى أن اضطر للتسليم . هذا وتعد سرعة هذا التقدم رقماً قياسياً فى الجيش البريطانى ، فقد سقطت البردية فى ٥ يناير ، وفى اليوم التالى تم حصار طبرق وأخذت القوات البريطانية تضربها بالقنابل حتى ظهر يوم ٢٢ يناير عندما دخل الاستراليون المدينة بعد أن خسروا ٢٠٠ رجل فقط ، فى حين بلغت خسائر الإيطاليين ١٥ ألف أسير ، منهم ٣ جنرالات وأمير البحر (حاكم المدينة) و ٢٠٠ مدفع وكميات هائلة من الأغذية والمهمات .

وكانت نية ويفل الاكتفاء بالتقدم حتى طبرق ، ولكن الانتصار الذى أحرزه كان باهراً لدرجة أنه قرر استغلاله إلى أبعد حد فواصل جيشه الصغير زحفه حتى احتل درنة فى ٣٠ يناير . وعندما أفادت

التقارير بأن الإيطاليين يستعدون لإخلاء برقة والانسحاب بما بقى من قواتهم إلى طرابلس ، أرسل ويفل قواته المدرعة عبر الصحراء لقطع طريق الانسحاب هذا . وقد دار بعض القتال العنيف وأسر البريطانيون أعداداً هائلة من الأسرى إلى أن تم لهم الاستيلاء على بنغازى فى ٧ فبراير ١٩٤١ والعجيلة فى ١٠ منه ، وعلى ذلك ففى خلال شهرين فقط احتل ويفل منطقة يبلغ اتساعها اتساع انجلترا وفرنسا ، وأسر ١٣٣ ألف أسير منهم ١٩ جنرالا ، وكميات هائلة من العتاد ، منها ١٣٠٠ مدفع ، وقد قدرت خسائر جرازيانى بنحو ثلثى موارده وعتاده . ومهما كانت الأرقام ، فإن ويفل قد محى جيشاً من الوجود مقابل أقل من ٣٠٠٠ من الخسائر ، ويرجع الفضل فى هذا النجاح إلى ثقته فى أهمية المفاجأة وخفة الحركة وحسن تدريب الجنود والضباط ، وسرعة استغلاله لأخطاء عدوه وفترات ارتباكه . وعدّ ويفل بهذا الانتصار بطلا من أبطال انجلترا وقائداً من أعظم قوادها ، وأشادت الصحافة بمقدرته حتى الألمانية منها فذكرته بكل تقدير وإكبار .

ويعزو البريطانيون هذا الانتصار الباهر إلى عاملين رئيسين أولهما تفوقهم فى القيادة ، وثانيهما تفوق الفرد فى الجيش البريطانى على نظيره فى الجيش الإيطالى ، كما ينسبون هزيمة الإيطاليين إلى جهل قائدهم بالحرب الميكانيكية ، ومما لا شك فيه أن الجنرال جرازيانى ، وكذا القيادة الإيطالية بأجمعها قد استفادت الكثير من الدروس خلال تلك العمليات ، ولكن لسوء حظهم لم تتح لهم الفرصة للاستفادة منها ،

فقد خرجت القيادة نهائياً من أيديهم وتولاها عنهم الألمان ، وحمل أعباءها فى تلك المنطقة الجنرال روميل القائد الألمانى الملهم ، وخير من أنجبته تلك الحرب من القواد الألمان .

عند ما وصل ويفل إلى بنغازى اعتقد الكثيرون أن البريطانيين سيواصلون تقدمهم إلى طرابلس ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن مثل هذا التقدم كان أمراً مستحيلا بالنسبة للضعف والإعياء الذى وصلت إليه القوات البريطانية وخصوصاً القوات المدرعة . علاوة على ذلك فقد أصيب البريطانيون فى تلك الفترة بكارثة مروعة ، ففى العاشر من يناير كانت قافلة بريطانية بحرية تعبر مضيق بنتلاريا وتحرسها بعض الطرادات والمدمرات وحاملة الطائرات أيلوستريوس ، فهاجمتها الطائرات الألمانية وأغرقت المدرعة جالانت ومدمرة أخرى وأصابت حاملة الطائرات بإصابات بالغة ، مما اضطر الأسطول البريطانى منذ تلك اللحظة إلى التوقف عن العمل فى تلك المنطقة ، وسرعان ما أخذت القوات الألمانية الميكانيكية بقيادة روميل تتسلل وتتجمع غربى بنغازى ، كما ظهر السلاح الجوى الألمانى فى سماء ليبيا حتى أصبح لروميل التفوق فى الجو والأرض . وروميل قائد واسع التجارب ، شديد البأس . خدم فى الحرب العظمى الأولى ، كما اشترك فى حملة بولندا وفى الهجوم على الفلاندرز وعلى فرنسا ، فلا غرابة إذن أن كان تسلله إلى صقلية آية فى الإبداع والتنظيم .

هذا وقد كانت الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت تدرس الموقف

فى اليونان بالتشاور مع ويفل وقواد البحر والجو ، وقررت أن ترسل إليها تجريدة حربية . وفعلا أرسل من قوات شمالى أفريقيا نحو ٥٠,٠٠٠ رجل بقيادة الجنرال السير هنرى ميتلاند ويلسون ، وبدأت قوات هذه التجريدة تصل إلى اليونان فى خلال شهر مارس ، وأدى انشغال القوات الجوية والبحرية التى انهمكت فى حراسة هذه القوات إلى أضعاف الحراسة فى أواسط البحر الأبيض المتوسط ، فسرعان ما أخذت الإمدادات الألمانية والإيطالية تصل إلى شمال أفريقيا ، وشوهدت فى خلال شهر مارس بعض وحدات الفيلق الأفريقى فى الصحراء . وفى أواخر مارس اضطرت القوات البريطانية الضئيلة إلى التراجع من العجيلة ، وكان كل من ويفل وروميل يعلم أن ذلك التراجع كان بداية للتراجع العام للقوات البريطانية فى شمال إفريقيا فى الوقت الذى لم يكن فيه لدى ويفل سوى فرقة واحدة من المشاة وجزء من فرقة مدرعة . وكان روميل يعلم أن ويفل لن يخاطر بالاشتباك بمثل هذه القوة الضعيفة ، وفعلا أخلى البريطانيون بنغازى فى أوائل إبريل واستمر تراجعهم باطراد . ولكى يتجنب ويفل حركات التطويق التى كان يهدده بها روميل اضطر إلى الإسراع فى السير وإن كان قد ترك حامية فى طبرق ، ظلت بعد ذلك شوكة فى جنب القوات الألمانية المتقدمة . وقد فقد البريطانيون فى خلال هذا التراجع ٣ جنرالات كانوا أحسن ما لدى ويفل ، ومنهم الجنرال أوكنور خبير الدبابات .

وأخيراً توقفت القوات المتضادة عند الحدود المصرية ، وكان السبب

الذى حدى بروميل إلى هذا التوقف هو طول المسافة التى قطعها ، وكذلك وجود القوة البريطانية فى طبرق مما كان يهدد خطوط مواصلاته .

وفى هذا الوقت كانت العمليات فى اليونان تسير نحو نهايتها الفاشلة واضطر البريطانيون إلى سحب ما تبقى من قواتهم إلى كريت ومصر . ولم يتوانِ الألمان فى انتهاز هذه الفرصة لموالاة إرسال الإمدادات إلى شمال أفريقيا ، وقد بلغ ما أنزلوه إلى الساحل فى الفترة بين إبريل ومايو فرقتين مدرعتين وفرقة ألمانية خفيفة وفرقة إيطالية مدرعة وست فرق من المشاة الإيطاليين .

وفى هذه الأثناء هاجم الألمان كريت بجنود المظلات ، واعتبر هذا الهجوم تجديداً فى عالم الحرب ، بل إنه يعتبر من أغرب عمليات التاريخ ، تجلت فيها عبقرية الألمان العسكرية ، كما تجلت فيها قيمة جنود المظلات . ولم يتمكن البريطانيون من المحافظة على الجزيرة التى كان لضياعها بعد الانسحاب من اليونان أسوأ الأثر فى الروح المعنوية للشعب البريطانى ، ومع ذلك فسرعان ما تحسن الموقف الاستراتيجى العام بالانتصارات التى أحرزها ويفل فى الأريتريا والصومال الإيطالى والحبشة . وقد كان لحملة البريطانيين على هذه الأخيرة دواع سياسية وأخرى عسكرية ، فقد صممت حكومة جنوب أفريقيا وعلى رأسها الجنرال سمطس على ضرورة غزو ممتلكات إيطاليا فى القارة الأفريقية ، كما رأت بريطانيا ضرورة تأمين طريق عدن للسفن الأمريكية ليسهل بذلك وصول الإمدادات والمؤن الأمريكية للشرق الأوسط . وكانت

هذه الحملة قليلة العدد إذ لم تزد قوتها عن ٥٠ ألف رجل ، وقد علق المستر تشرشل على ذلك بقوله : «لم يسبق لنا النصر على جيوش جرارة بمثل هذا العدد البسيط من الجنود» . وقد دمر الجيش الإيطالى فى إريتريا بعد أن أسر منه نحو ٤٠,٠٠٠ رجل و٣٠٠ مدفع ، وكان ويفل يشاهد بنفسه الموقعة الفاصلة فى تلك الحملة وهى موقعة كيرين التى كان لها أثر فعال فى الحرب عامة .

وبهذه الانتصارات أصبح البحر الأحمر مؤمناً للملاحة . وكانت مسئولية ويفل فى كل تلك العمليات تنحصر فى الإدارة الاستراتيجية لمختلف مسارح العمليات وكان يساعده قواد أكفاء مهرة بالرغم من ضآلة القوات والمعدات التى كانت تحت تصرفهم ، حتى أنه لم يكن يحتفظ فى أى مسرح من مسارح العمليات بأى عدد من الجنود أو العتاد لا تدعو الحاجة الماسة إليه ، بل كان يرسله فى الحال إلى المسارح الأخرى حيث تكون الحاجة إليه أمس .

العراق وسوريا

فى الوقت الذى كان ويفل يسدد فيه ضرباته للأعداء فى برقة وشرق أفريقيا واليونان وكريت ، كان هناك خطر شديد ينمو ويتزايد فى العراق ، وهى منطقة تعتبر حيوية للبريطانيين بالنسبة لزيوتها ولموقعها الاستراتيجى بالنسبة لمصر والخليج الفارسى والهند . وكان الوصى على عرش العراق موالياً للبريطانيين ، غير أن بعض المتطرفين من الوطنيين قد ظنوا أنهم يستطيعون أن يحصلوا على صفقة طيبة بانضمامهم إلى ألمانيا التى كانت

فى اعتقادهم هى الجانب المنتصر فى تلك الحرب . وعلى ذلك قاموا فى ٢ إبريل عام ١٩٤١ بحركة فجائيـة عزلوا فيها الوصى على العرش وأقاموا رشيد عالى الكيلانى رئيساً للدولة . غير أنه لم يقدر لهذه الحركة أن تعمر ، إذ سرعان ما اتخذ ويڤل إجراءات حازمة وسريعة أدت إلى فرار رشيـد عالى ، وإعادة الوصى إلى مركزه ؛ وأخيراً استتبت الأمور وساد الأمن فى المنطقة بأكملها .

وعنـد ما وضع المحور خطته لإثارة الفتنة فى العراق كان يعتمد على المطارات التى فى الأراضى السورية الخاضـعة لحكومة ڤيشى ، كما أفادت التقارير أن كثيراً من عملاء الألمان وكميات من المهمات الحربية يجرى إنزالها فى المطارات السورية . وعلى ذلك فبعد أن انتهت فتنة العراق أرسل ويڤل قواته إلى سوريا بقيادة الجنرال ويلسن .

بدأ الزحف إلى داخل الأراضى السورية فى ٨ يونيـة عام ١٩٤١ ضد مقاومة القوات الفرنسية النظامية التى كانت خاضعة لحكومة ڤيشى . ولم تـكن تلك هى المرة الأولى التى يعمل فيها ويڤل على الأراضى السورية ، ولعله لم ينس المدة التى قضاها مع الجنرال اللنبى فى الحرب العظمى السابقة ، فقد كللت العمليات بالنجاح التام ، ودخلت القوات المتحالفة دمشق فى ٢١ يونية ، وبيروت فى ١٥ يوليو .

وفى هذه الأثناء صدر الأمر بتعيين ويڤل قائداً عاماً فى الهند ، وتعيين الجـنرال أوكنلك قائداً عاماً فى الشرق الأوسط . وقد جاء هذا التعيين مفاجأة عظمى للدنيين الذين يتتبعون تطور الحرب ، وظن

بعضهم أن ويڤل لم يعد ذا حظوة ومنزلة حربية عالية ، إلا أن الواقع أنه كان يجرى فى الهند فى ذلك الوقت وضع برنامج حربى هائل واتضح أنه لا يمكن لغير رجل عسكرى ممتاز أن ينفذ هذا البرنامج بنجاح حتى نهايته . ومع ذلك فلم يمض سوى القليل من الوقت حتى وضح الغرض الحقيقى الذى من أجله أرسلت الحكومة البريطانية جندياً من أكفأ جنودها ، وقائداً من أمهر قوادها ليتولى مهمة إدارية ، وكان ذلك عند ما انكشفت نوايا ألمانيا فى منطقة القوقاز ، وثانياً عند ما حل شهر ديسمبر ودخلت اليابان الحرب .

الهنـــد

كان من أغراض بريطانيا فى الميادين الشرقية أن تؤمن طريقاً قريباً لإرسال التموين إلى روسيا ، وقد وجدت أن أفضل الطرق لذلك هو المار ببلاد إيران . وعند ما رفضت الحكومة الإيرانية طلب الحلفاء إبعاد وكلاء المحور فيها ، بادرت بريطانيا باتخاذ إجراءات عسكرية حازمة لتطهير تلك المنطقة من العناصر المعادية . وكانت الحملة التى تقرر القيام بها لذلك الغرض قد وضعت بالاتفاق مع روسيا ، وعهد بقيادتها العامة إلى الجنرال ويڤل ، فكانت أولى المهمات التى عهد إليه بها فى الشرق الأقصى .

وقد دخل الروس إلى إيران من الشمال ، فى حين دخلها البريطانيون من الجنوب ، ودخلتها القوات الهندية من الجنوب والغرب ، بينما قام سلاح الطيران البريطانى بإلقاء منشورات من الجو يعلن فيها الشعب

بأن الحلفاء لا يقصدون من عملياتهم تحقيق أى أغراض استعمارية .
ولم يكد يمضى أسبوع واحد على ابتداء العمليات حتى تقابلت القوات
الروسية بالقوات البريطانية ، وبذلك أصبح الطريق الجديد لتموين
روسيا مؤمّنا .

كانت العمليات التالية التى أدارها ويقل موجهة ضد اليابان ، فى
وقت كانت القوة الجوية التى تحت تصرفه غير كافية إطلاقا . ومما زاد
الطين بلة أنه فى شهر يوليو عام ١٩٤١ صرحت حكومة ڤيشى
لليابان بحرية استخدام قواعدها البحرية والجوية التى فى الهند الصينية
الفرنسية ، وبذلك فتحت أمام اليابان الطريق لمهاجمة الملايو وبورما
وجميع الممتلكات البريطانية والهولندية من هونج كونج إلى سومطرة .
وقد تمكنت اليابان بذلك من الحصول على مواقع أمامية ، وفى
الوقت نفسه تبعد أكثر من ٢,٠٠٠ ميل عن اليابان و ٣٠٠ ميل
فقط عن الملايو وذلك دون قتال . ولكى تستغل اليابان هذا الكسب
كان ينقصها أن تحصل على التفوق البحرى ، وحيث أن بريطانيا كانت
مشتبكة مع ألمانيا وإيطاليا فكانت الولايات المتحدة هى المنافس البحرى
الوحيد لليابان فى الشرق الأقصى . وعلى ذلك فنى ٧ ديسمبر ١٩٤١
قامت الطائرات اليابانية بغارة مفاجأة على القاعدة البحرية الأمريكية
فى بيرل هاربور كانت نتيجتها تغيير الميزان البحرى فى المحيط الهادى
وشرق آسيا تغييراً تاماً . ولم تتباطأ اليابان فى استغلال هذا النجاح ،
فبدأت فى الحال بإنزال قواتها فى شمال الملايو وتايلاند ، وذلك

بعد أن أغرقت السفينتين الحربيتين البريطانيتين البرنس أوف ويلز وريبالس ، وسرعان ما أخذ تقدمهم يطرد نحو جنوب شبه جزيرة الملايو مما اضطر القوات البريطانيـة إلى الانسحاب تدريجيـاً حتى سنغافورة .

ولـكن هذا الحصن التاريخى العظيم ، أو جبل طارق الشرق ، لم يمكن الاحتفاظ به بعد أن وصل اليابانيون فى تقدمهم نحوه إلى قطع خطوط المياه التى تصله من الشمال ، فانسحب منه البريطانيون فى ١٥ فبراير .

وكذلك كان تقدم اليابانيين فى بورما مطرداً ، فنى خلال يناير وفبراير عبروا نهرى سالوين وسيتانج ، وفى مارس احتـلوا رانجون ، وفى آخر مارس كانوا يوجهون ضرباتهم صوب إيراوادى ويتقدمون صوب مندلاى . وكما حدث فى الملايو أصبحت الهجمات الجوية اليابانية أكثر عنفاً كلما زاد عدد المطارات التى يستولون عليها .

وبينما كان هـذا القتـال يدور فى الملايو وبورما ، كان اليابانيون يضربون بشدة فى منـاطق أخرى عـديدة من الممتلـكات البريطانيـة والهولنـدية والأمريكية حتى وصلوا إلى بعد ٤٥٠ ميلا من استراليـا فبدأوا يغيرون عليها بطائراتهم .

كان مركز الرئاسة العام لويفل فى شهرى يناير وفبراير فى جاوة ، وفى خلال الفترة القصيرة التى كان فيها قائداً عاماً للقوات المتحالفة قام بزيارة جبهـات القتال ليشاهد بنفسه مجريات الحوادث ، ولـكنه لم يجد أى بارقة أمل فى طرد اليـابانيين بالنسبة للتفاوت الهائل بين قوات الفريقين . كانت مهمته إذن هى محاولة تثبيتهم والعمل جاهداً لـكسب

الوقت ، وهو عمل لم يكن بالجديد عليه ، وفى الوقت نفسه كان يبذل قصارى جهده فى رفع الروح المعنوية للقوات بزياراته المتكررة للخطوط الأمامية . ولهذه المناسبة قال عنه أحد كبار القواد الأمريكان « إن ويفل أعظم قائد شاهدته فى حياتى » .

هكذا كان الحال فى الفترة التى تولى فيها ويفل القيادة ، وهى وإن لم تكن تتميز بالانتصارات الداوية التى اعتدناها منه فى الميادين الأخرى ، إلا أنه قد أفلح فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ومكّن بريطانيا من الاحتفاظ بمركزها فى الشرق إلى أن حان الوقت الذى استطاعت فيه أن تكيل بدورها الضربات القوية لليابانيين ؛ وكان ذلك فى عام ١٩٤٣ . وخلال تلك الفترة كان ويفل قد أبدى اهتماماً كبيراً بتنظيم الجيش الهندى وتدريبه .

خاتمة

خبر الجنرال ويفل الحرب الحديثة واستفاد من دروسها ، بل لعله أول قائد بريطانى استطاع أن يطبق نظرياتها الحديثة على حرب الصحراء ، كما كان أول قائد جمع بين قيادة القوات البرية والبحرية والجوية ، وأول قائد قاد مجموعة من الجيوش متباينة الأجناس والعناصر .

ولا شك فى أن انتصاراته فى ليبيا كانت أقل انتصارات انجلترا تكاليفاً فى تلك الحرب ، بل ولعلها أقل الحملات الحربية إطلاقاً فى التكاليف ، فلا غرابة إذن أن تعلق به الشعب البريطانى وأحبه .

وبالرغم من أن ويفل عاد فخسر جميع المنطقة الصحراوية التى سبق

له فتحها . إلا أن ذلك لم يؤثر على مركزه ولم يغب قط عن ذهن أى بريطانى أن ويفل هو القائد الذى فتح لهم الأريتريا والصومال والحبشة وسوريا ، وأن هذه هى كل انتصارات انجلترا ، وأنها لم تنل أى نصر سواها على يد أى قائد آخر من القواد فى ذلك الحين .

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٤٣ منح الجنرال ويفل لقب اللوردية وسمى الفيلد مارشال الفيكونت ويفل أوف سيرانيكا ورنشستر ، ثم عين حاكما ونائباً للملك فى الهند ، وحل محله فى قيادة العمليات فى جنوب شرق آسيا اللورد لويس مونتباتن ، وبذلك انتهت مهمة الفيلد مارشال ويفل العسكرية ، وانفسح أمامه مجال العمل فى ميدان آخر أشق وأقصى من ميدان القتال ، ألا وهو ميدان السياسة .

وإن القرار القاضى بتولى ويفل منصباً إدارياً فى أثناء حرب عظمى كهذه ، وفى الوقت الذى كانت كل من أمريكا وانجلترا تستعد للهجوم المضاد على اليابان ، لابد وأن يكون قراراً مؤلماً ، وإننا وإن كنا لا نعرف السبب الحقيقى الذى بنى عليه هذا القرار ، إلا أن شيئاً واحداً كان مؤكداً وهو أن ويفل كان يثق فى أنه يستطيع أن يخدم بريطانيا والهند ، وهو حاكم عام لهذه الأخيرة ، أكثر مما كان يستطيع أن يخدمهما وهو قائد عام . ومهما يكن من أمر فإن الحكومة البريطانية بهذا التعيين السامى فى الشرق كانت تجد فى ويفل رجلا ليس له تاريخ سياسى سابق ، ورجلا لا يعرف الدسائس ، رجلا شجاعا تعوّد على التفكير السليم والوصول إلى أهدافه بعزيمة وقوة وكرامة ، ميزته فى العالم أجمع كرجل عسكرى شريف .

وقد رنى ويقل ببصره إلى الوراء قليلا . ثم استعرض الصعاب والأخطار التى مرت ببلاده فى غضون تلك الحقبة المريرة من الزمن وأخذ يتحدث إلى الشعب البريطانى ويهيب به أن يعود إلى سابق قوته باتباع مبادئه القديمة وتنمية موارد قوته ، وفى ذلك يقول فى مستهل كتابه عن حياة الجنرال اللنبي :

« لقد تعاقدت فوق رؤوسنا المشاكل ، وأحاطت بنا الصعاب من كل جانب حتى قبل بداية هذه الحرب ؛ فسلبتنا الراحة ، وعصفت بمصادر قوتنا . لقد حلت حياة المدن محل حياتنا الريفية الخشنة وأصبحت الصلابة والشجاعة أقل قدراً مما كانت عليه فى سابق العهود ، وأصبحت المهارة أعلى مقاما من صفات الأخلاق النبيلة ، وبات الحذر والحيطة من القيادة بديلا من الجسارة والحماس فيها ، وحلت المتعة والمنفعة الشخصية محل قدسية الواجب ؛ فلابد لنا إذن من أن نستعيد سابق شجاعتنا وتضحياتنا فى العمل لنبنى عالماً جديداً بدلا من هذا العالم المتصدع البنيان » .

القائد المثالى هو الذى يستطيع اتخاذ القرارات، ليس بوحى من أحد، ولكن بدافع من إيحائه الشخصى .

« دى جول »



« الجنرال دي جول »

دی جول

فى صباح يوم ١٨ يونية ١٩٤٠ هبطت إحدى قاذفات القنابل التابعة لسلاح الطيران الملكى البريطانى فى مطار كرويدون ، وكان من بين ركابها ضابط فرنسى مفرط الطول برتبة ميجر جنرال ، ذلك هو « شارل دى جول » ، وقد وصل إلى انجلترا فى أحلك الساعات التى مرت بفرنسا ، فقد كان المارشال بيتان قد اعترف حين تولى الحكم بانتصار الألمان ، وذلك بأن طلب منهم وقف القتال بشروط كان من مضمونها تعهد الفرنسيين بعدم إنشاء خطوط دفاع جديدة فى جنوب فرنسا ، وعدم مواصلة القتال فى شمال أفريقيا ، ورفض العرض الذى قدمه المستر تشرشل بتوحيد الإمبراطوريتين .

وكان كل ما حمله معه الضابط الفرنسى الطويل مما أمكن استخلاصه من الفوضى التى كانت تسود بوردو : صورة عائلية ، وسروال ، وبعض القمصان ، وكان الجنرال دىجول بعد أن وجد أن فرنسا لن تتمكن من مواصلة القتال فى الأراضى الفرنسية ، قد قرر أن يستأنف المعركة من قاعدة جديدة .

فى مساء ذلك اليوم الثامن عشر من يونية ١٩٤٠ استقر دىجول

فى حجرته بأحد فنادق الدرجة الثانية بلندن وأخذ يضع لنفسه ولفرنسا برنامجاً جديداً ، وكان هـذا البرنامج يشمل أولا مواصلة الحرب إلى جانب بريطانيا ، وثانياً حماية أملاك الإمبراطورية الفرنسية واستخدامها قاعدة حربية ضد المحور ، وثالثاً وآخراً العمل على تحرير فرنسا نهائياً. وقد أذاع دى‌جول هذه القرارات على الشعب الفرنسى بالراديو .

وكان الناظر إلى هذا البرنامج الحافل يشعر لأول وهلة بأن هنـاك شيئاً من الخيال البعيد المرمى يكتنف هذه التعهدات . كيف لا ودى‌جول لم يخرج عن أنه لاجىء فرنسى مفلس ، وهو جنرال حديث لم يكـد يمضى على ترقيته شهر واحد . وإن كنا لا ننسى أن دى‌جول هذا قد شغل منصب وكيل وزارة الحربية الفرنسية فى وزارة المسيو رينو ، ولـكن المارشال بيتان قد أقال هذه الوزارة لـكى يعقد مع الألمان هدنة دائمة ، لذلك فإن اعتراض جنرال حديث (بالرغم من أن آراء هذا الجنرال الحديث فى المسائل الحربية قد ثبتت صحتها) على قرار وقف القتال ، وهو القرار الذى اتخذه كبار القادة العسكريين أمثال ڤيجان وبيتان ، كان مما يعتبر مثلا سيئاً للأخلاق العسكرية . فماذا كان يظن فى نفسه ذلك الحدث ؟ إن قليلين جداً هم الذين كانوا قد سمعوا باسمه قبل ذلك اليوم .

وقبـل أن يقف الشعب الفرنسى على حقيقـة شروط الهـدنة التى طلبها بيتان ، وصل إلى أسماعهم للمرة الثانية صوت الجنرال دى‌جول الممتلىء حماسة وهو يحثهم على رفض التسليم ، وكان نداؤه القوى قد أزرى بذلك النداء الفاتر الذى أذاع فيه المـارشال بيتان رسالة الهدنة ،

فقد قال دی‌جول : « هل ذهب كل أمل ؟ هل الهزيمة نهائية ؟ كلا . وألف مرة كلا . وصدقونى لأنى أتكلم إليكم وأنا على ثقة تامة بما أقول . إن العوامل نفسها التى كانت سبباً فى هزيمتنا تستطيع يوماً ما أن تكسبنا النصر .

« إن فرنسا ليست بمفردها ، إنها ليست بمفردها . إنها ليست بمفردها . إن من ورائها إمبراطورية واسعة الأرجاء تستطيع أن تتحد معها ، وهذه الإمبراطورية تسيطر على البحار ولا تزال تكافح . وإن فرنسا لتستطيع عندئذ ، مثلها مثل بريطانيا ، أن تعتمد على القوى الصناعية الهائلة التى للولايات المتحدة . إن هذه الحرب ليست مقصورة على رقعة بلادنا السيئة الحظ ، فهى حرب عالمية . إن جميع الأخطاء التى تردينا فيها ، والتأخير الذى أصابنا ، والآلام التى تحملناها ، لا تغير شيئاً من الواقع ، وهو أن كل الوسائل التى تلزمنا لكى نتمكن فى أحد الأيام من سحق أعدائنا ، أقول إن كل هذه الوسائل متيسرة فى هذا العالم . وبالرغم من أن القوات الميكانيكية للعدو قد سحقتنا فإننا نستطيع فى المستقبل أن تكون لنا قوة ميكانيكية تفوق قوة العدو ونسحقه بها أيضاً .

« سنقاتل إذن ، وسنقاتل إلى النهاية ، وفى أفريقيا يجب ألا نقبل القيام بتنفيذ شروط العدو ، ولا يصح أن نسمح بأن تتكرر هناك الفوضى والمآسى التى حدثت فى بوردو » .

وهكذا حذّر دى جول من قَبْلُ بلاده من أخطار الحرب

الميكانيكية فى أوربا ، وها هو ذا يحذرها ثانية من أخطار الحرب الميكانيكية فى العالم بأسره .

ولكن تحدى دىجول للحكومة الفرنسية لم يجده نفعاً ، فقد كانت تلك الحكومة تصدر قراراتها المتعلقة بالناحية العسكرية مؤيدة بآراء الضباط « العظام » الذين اشتركوا فى الأحداث الحربية الكبيرة فيما مضى ، وإن لم يكونوا قد حافظوا على التقدم مع التطورات الحديثة فى قيادة وإدارة الحروب الحديثة . وكانت الحوادث الأخيرة قد بدأت فى بوردو وانتهت فى عربة القطار التى وقعت فيها الهدنة عند كومبينى . وإزاء تحدى دىجول للحكومة ، صدر الأمر بعزله من وظيفته فى الجيش والقبض عليه ، وبذلك انتهت إحدى مراحل حياته ، وهى المرحلة التى بدأت فى عام ١٩١١ عندما دخل كلية سانت سير ليتخرج منها ضابطاً فى الجيش .

* * *

ولد شارل أندريه مارى دىجول بمدينة ليل فى ٢٢ نوفمبر ١٨٩٠ ، وكان والده أستاذاً مبرّزاً فى الفلسفة . وقد كان طول قامته وقوامه النحيل المتمايل ، ووجهه النحيف مما يوحى بأن صاحبها من الفلاحين . وكان زملاؤه فى كلية سانت سير يطلقون عليه كنية « عود الاسباراجاس »* بالرغم من أنه تميز بينهم بنشاط مفرط وانكباب على الدرس والتحصيل ، وعندما تخرج ضابطاً من الكلية اختار الخدمة فى الفرقة ٣٣ المشاة ، التى

* هو نبات كشك ألماظ ، وله ساق طويلة رفيعة .

كان يقودها ضابط برتبة الكولونيل عرف بمهارته فى سلاح المشاة وهو الكولونيل هنرى بيتان ، وكان هذا بدء علاقة وثيقة بين هذين الضابطين استمرت حتى الحرب العظمى الثانية ، وشاهدت ارتفاع فرنسا إلى أقصى درجات قوتها العسكرية كما شاهدتها وهى تهوى إلى أعماق الهزيمة .

وقد خدم الملازم دىجول مع وحدته تلك على الحدود البلجيكية عام ١٩١٤ ، حيث جرح أثناء العمليات . وفى عام ١٩١٥ ، منح رتبة اليوزباشى وثلاثة أوسمة ، وعلامة جرح ثان أثناء العمليات . وفى عام ١٩١٦ اشترك فى العمليات على جبهة فردان حيث جرح المرة الثالثة ووقع فى أسر الألمان . وقد أمضى الفترة الباقية من الحرب معتقلا بين مختلف معسكرات الأسرى . وبعد أن فشلت خمس محاولات بذلها دىجول للهرب ، أخذ يقضى كل وقته فى دراسة أخلاق آسريه وقد أخرج نتيجة هذه الدراسة فى عام ١٩٢٤ فى الكتاب الذى أسماه « التفكك لدى الأعداء » واستعرض فيه نقط الضعف فى الجيش الألمانى وعدم انسجامه .

وبعد انتهاء الحرب عمل دىجول فترة قصيرة مدرساً للتاريخ العسكرى فى كلية سانت سير ، ثم لحق بفيجان واشترك معه فى الدفاع عن وارسو عام ١٩٢١ ، ثم دخل « كلية أركان الحرب » فى عام ١٩٢٤ . وقد كان استقلاله الفكرى واعتداده برأيه كثيراً ما يسبب مضايقة بعض المعلمين ، ولكن قائد المدرسة وهو المارشال بيتان ، كان راضياً عنه . وقد كانت نقطة الخلاف فى الرأى قد قامت حول الخطة التى

كان قد اتفق عليها وقتذاك والتى كان مؤداها جذب العدو للقيام بهجوم خطر على مواقع سبق تجهيزها للدفاع . وكان دى‌جول يندّد بهذه الخطة ويقول بعدم إمكان تنفيذها فى جميع الأحوال والظروف . وكان يقول بأن خفة الحركة والقوة الضاربة هما الدعامتان الحقيقيتان للنجاح فى المعركة — ولعل بيتان الذى كان لا يزال يتمتع بصفاء ذهنه، يذكر مقدار المصاعب التى جابهته عندما حاول تحسين تكتيكات المشاة فى الأيام السابقة... ومهما يكن من أمر، فعندما أتم دى‌جول مدة الفرقة بكلية أركان الحرب ألحقه بيتان بهيئة أركان الحرب الخاصة به.

وفى الفترة بين ١٩٢٧ و ١٩٣٢ عمل دى‌جول فى هيئة أركان حرب جيش الاحتلال فى ترير، وقائداً لكتيبة الانزلاق، كما قام بمهام رسمية فى مصر وإيران والعراق . وفى عام ١٩٣٢ عين سكرتيراً لمجلس الدفاع الأهلى حيث واجهته لأول مرة مشاكل عسكرية تتعلق بفرنسا . وعند ما فحص موقف فرنسا العسكرى على ضوء التطورات المحتملة فى المستقبل ، ظهرت له عوامل عديدة تدعو إلى انزعاج شديد .

أعجب دى‌جول كثيراً بالمحرك ذى الاحتراق الداخلى الذى صمّمه وبناه « سيكت » الألمانى بقدر ما سمحت له قيود معاهدة ڤرساى ، واعتقد وقتئذ أن ألمانيا إذا هى استطاعت أن تحصل على آلات الحرب الحديثة وعلى الدبابات والطائرات ، أمكنها أن تتفوق كثيراً على الميزة العددية التى لجيش الجمهورية الفرنسية . وفى ذلك الوقت كانت الوسائل

التى استحدثت فى النقل ومعدات القتال تزيد من اتساع الثغرة التى بين الجيش الفرنسى والمقتضيات الحربيـة لسياسة فرنسا الخـارجية . ومهما كان لقواد فرنسا من الثقة العميقة فى مبـادىء وأسلحة حرب عام ١٩١٨ ، فإن هـذه الثقة لم تكن تجدى نفعاً فى إيقاف التـدهور السريع فى مركز فرنسا الحربى .

وهنا كان دى‌جول قد اكتمل نموه العقلى واكتسب تجارب عديدة مكّنته من أن يدوّن آراءه العسكرية فى ثلاثة كتب قيمة أثارت كثيراً من الاهتمام ، وأولها الكتاب الذى أصدره عام ١٩٣٢ وأسماه « على ذبابة السيف » وقد بحث فيـه فلسفة القيادة ، والكتاب الثانى الذى أصدره عام ١٩٣٤ وأسماه « فى سبيل إنشاء جيش مهنى » وبحث فيه شروط جيش المستقبل ، والكتاب الأخير الذى أصدره فى عام ١٩٣٨ وأسماه « فرنسا والجيش الفرنسى » . وكانت أهم المبادىء التى ينادى بها دى‌جول هى المعارضة فى اعتبار القيادة فى الميدان دستوراً ثابتا وأن إدارة الحرب لا يمكن أن تتدانى إلى أن تـكون قاعدة جامدة . وكان يقول : إن أى أمة تستطيع أن تجهز موقعاً دفاعياً بالغ القوة ، وتحاول إجبار العدو على مهاجمة هـذا الموقع فى ظروف تتحقق معها هزيمته ، ولـكنهـا لا تستطيع أن تضمن قيام العدو بهذا الهجوم . وإن اتباع فرنسا لمثل هـذه الخطة لما يعرض سلامتها للخطر ويجعل سلامة الوطن رهنـاً بغفلة العـدو ، كما أنها تحد من حرية العمل أمام الجيش الفرنسى . وكان دى‌جول يقول : « إننا نستطيع أن ننفق الملايين

فى بناء أسوار من الصلب والمسلح ، ولكن مثل هذه الأسوار جامدة لا تتحرك ، وكل ما هو جامد يمكن تدميره أو تخيطه . إن الحرب تقتضى المفاجأة والتغيير ، وهذان العاملان من أهم مظاهرها . إن أهم ما نستطيع الاعتماد عليه فى تأمين سلامة فرنسا هو قوة المبادأة الفردية ، وقسط كبير من الاعتماد على النفس وقوة الابتكار بين الضباط » . وفى هذا الصدد نستطيع أن نستعيد نفس العبارات التى كتبها دى جول إذ قال : « إن فلسفة تدريب القادة يجب أن تهدف إلى حثهم على استخدام قوة التخيل والحكم على الأشياء واتخاذ القرارات ، ليس بوحى من أحد ولكن بدافع من إيمانهم الشخصى ، ولا لغرض إلا بقصد أن تجعل منهم أقوياء وأحراراً » . وكان دى جول يشعر بأن الأشخاص — الذين تسرى فى دمائهم روح الزعامة — يجب ألا يقصروا اهتمامهم على الدراسات العسكرية البحتة فإن بعد النظر والمرونة فى التفكير ، والجرأة اللازمة للإدارة العليا للحرب الحديثة ، كل هذه الصفات لا يمكن تنميتها إلا على أساس واسع من الدراسات العلمية .

وفى كتابه عن جيش المستقبل حلل دىجول مدى تأثير التقدم الصناعى على مركز فرنسا العسكرى وأوضح الأسس التى يرى أنها ضرورية ليقوم عليها جيش ميكانيكى من الدرجة الأولى . وبأسلوب قوىّ تشوبه المرارة وصف دىجول الأخطار العسكرية التى تكتنف موقف فرنسا فقال :

« كما أن الناظر فى إحدى اللوحات المصورة يستطيع أن يستشف

منها مصير الأفراد الظاهرين فيها ، كذلك يستطيع الناظر إلى خريطة فرنسا أن يتنبأ بمصيرها . ففى وسط البلاد قلعة عظيمة هى عبارة عن كتلة هائلة من الجبال الأزلية تكتنفها على الجانبين أرض مستوية هى أراضى بروفنس وليموزين وبورجاندى ، وتحيط بها منحدرات شاسعة يكاد تخطيها يكون مستحيلا على عدو يهجم عليها من الخارج ، وتخترقها أودية السون والرون والجارون ، وتسترها من الشرق والجنوب الغربى جبال الألب وجبال البيرينيه ، أو تتصل بالبحر عند بحر المانش أو البحر الأبيض المتوسط أو بالمحيط الأطلسى . ولكن ناحية واحدة فى الشمال الشرقى تفصل بين أحواض السين واللوار والبلاد الألمانية . وان نهر الرين الذى شاءت الطبيعة أن تجعل منه حدوداً لبلاد الغال ووقاية لها ، لا يكاد يتصل بالأراضى الفرنسية حتى يبتعد عنها ثانية معرضاً إياها للهجوم المعادى من الشمال الشرقى » .

وكان رأى دى‌جول أن الحواجز الطبيعية التى تقف فى وجه غزو ألمانيا لفرنسا ، مثل هضبة الفوج ، ومنحدرات الموزيل والموز ، تهيىء موانع ذات قيمة ، ولكنها ليست بالعمق الكافى مما يؤدى إلى أن أقل خطأ أو إهمال فى الدفاع عنها أو مفاجأة فى الهجوم عليها تكون كفيلة بالتغلب عليها . ومتى تمكن العدو من اختراق مانع واحد من الموانع التى تحمى فرنسا من الشرق تداعت جميع الموانع الأخرى الباقية . وقد شبه أودية السامبر والشلت والاسكارب والليس بخطوط حديدية أعدت لنقل العدو . هذا ومسافة الـ ١٢٥ ميلا التى تفصل بين باريس

والحدود يمكن قطعها بالسيارة فى ست ساعات وبالطائرة فى ساعة واحدة ، ولم يكن دىجول يأمل شيئاً من استمرار المقاومة إذا ما سقطت باريس، وهو بذلك يذكر أنه ما من مرة استولى فيها العدو على باريس خلال القرن الماضى إلا كفّت المقاومة فى جميع أنحاء فرنسا . ومن جهة أخرى نجد أن هذا التطور فى صناعة الآلات الذى تغلّب على ما كانت تهيّئه المسافات الطويلة من أمن، قد زاد فى الوقت نفسه من ضعف فرنسا نسبيا فى الناحيتين الاقتصادية والصناعية . فلم يقتصر أمر ألمانيا على تفوقها فى الصناعات الحربية وضخامة الموارد التى تستند إليها ، بل إن ما كانت تملكه فرنسا وتقتذاك من صناعات كان مجمعاً فى مناطق معرضة للخطر . ولم تكتف الآلات بتقصير المسافات ولكنها غيّرت أيضاً من النظرة العسكرية إلى الوقت والمسافة . فإذا ما اخترقت ألمانيا حاجز الأردن فلن يقتصر الأمر على فقد فرنسا لمواردها الصناعية الحيوية ولكنها تحرم أيضاً من الوقت والمسافة اللذين يهيئان لها الاستعداد للقيام بعمل مضاد .

وقد لمس دىجول من ثنايا الخطب التى كان يلقيها المتحمسون للسلم ومن الاضطراب الذى كان يسود أنصار «الأمن المشترك»، لمس ورأى الحقيقة العارية وهى أن عظمة فرنسا أو تدهورها يتقرران دائماً وبصفة مباشرة فى ميدان القتال .

وحيث أن دى جول كان يعلم أن المحارب الذى يكبو فى معركة واحدة فى عصر الآلات قد لا يستطيع أن ينهض من كبوته ، فقد

أيقن أن جيشاً فرنسياً يعجز عن أن يجابه فى الحال هجوماً ميكانيكياً لهو جيش لا فائدة منه مهما كان عدده . وقد تكون هذه الحقيقة كريهة على السياسيين والمثاليين الفرنسيين ، ولكنها كانت الأساس الذى يجب أن تقوم عليه سلامة فرنسا . وقد انتقد دى‌جول « العمق المحدود » الذى كان عليه خط ماجينو ؛ كما انتقد الخط نفسه فى أنه قد ترك الجناح الشمالى الشرقى لفرنسا بأكمله مكشوفاً ، هذا علاوة على أنه كان يعارض أصلا فكرة الحرب الثابتة التى أنشىء على أساسها هذا الخط ، وكان يرى أن أى محاولة لتقييد الحركة فى ميدان القتال بمجرد ثقل المعادن أو الأسمنت المسلح لهى محاولة تؤدى إلى إبطال الفائدة من الآلات ؛ وهو يقول عن الآلات أنها تسيطر على مستقبل فرنسا ، وهى عبارة قد وردت كثيراً فيما كتبه دى‌جول ؛ كما كان يقول فى هذا الصدد إن الآلات قد خففت كثيراً من العبء الملقى على عاتق الإنسان ، فقد مكنته من قطع مسافات طويلة والتحرك فى جماعات ضخمة ، كما زادت من مقدرته على التدمير مائة ضعف ، ولكنها إلى جانب ذلك فرضت عليه قيوداً جديدة . فلم يعد يكفى أن يستطيع الجندى استعمال زناد البندقية وحمل الجعبة كما كان الحال ، لأن الآلات المعقدة التركيب تحتاج إلى عمال مهرة لإدارتها . وقد فكر دى‌جول كثيراً فى هذه الناحية وبلغ من إصراره على فكرته وتمسكه بها أن كثيرين قد عارضوه لدرجة أن بعضهم قد اتهمه بأنه قد أصبح ذا ميول مناهضة للديموقراطية . وبالرغم من ذلك فقد كان دى‌جول لا يفتأ يصرح بضرورة إنشاء

قوة صغيرة مختارة من أفراد محترفين يظلون بالجيش فترة طويلة ليمكن بهم مواجهة الحرب الألمانية التى أجيد تدريب أفرادها . وقد صرح اليساريون عندما نوقشت فكرة إنشاء هذا الجيش المختار ، بأنها ما هى إلا قناع يخفى وراءه العسكريون مؤامرة ترمى إلى تحطيم الجمهورية وإقامة ديكتاتورية عسكرية مكانها .

وكان دى جول يعتقد أن جيشاً مكوناً من ست فرق ميكانيكية كفيل بجعل فرنسا تنظر إلى المستقبل باطمئنان ، وفى كتابه « جيش المستقبل » تكلم عن هذه الفرق الميكانيكية وتنظيمها ووصف عملها فقال :

« تتكون كل فرقة من لواء مدرع ثقيل يستطيع أن يخترق الأراضى بسرعة الجواد الجامح ، وهو مسلح بخمسمائة مدفع من عيار متوسط ، وأربعمائة قطعة أخرى صغيرة ، وستمائة مدفع ماكينة . ويستطيع هذا اللواء أن يعبر حفراً سعتها ثلاث ياردات ، ويتسلق مرتفعات لغاية ثلاثين قدماً ، ويزيح من طريقه أشجاراً عتيقة ، ويهدم جدراناً سمكها اثنى عشر طوبة ... وهذا اللواء الذى يتكوّن من آلايين ، أحدهما آلاى دبابات ثقيلة ، والآخر آلاى دبابات متوسطة ، ومعهما كتيبة استطلاع مجهزة بآلات خفيفة عظيمة السرعة ، وكذلك بمعدات حديثة للاتصال والملاحظة وأعمال الميدان ... مثل هذا اللواء سيكون هو النواة الأساسية للوحدات الكبيرة .

« وتشمل الفرقة كذلك لواء مشاة يتكون من آلايين من المشاة وكتيبة من حملة البنادق . وهو مسلح بأربعين قطعة مساعدة ، ومثلها

من المدافع المضـادة للدبابات ، وستمائة مدفع ماكينـة ما بين ثقيـل وخفيف ، ومجهز بآلات خاصة لحفر الخنادق والمخابىء بسرعة . ويلاحظ فيما يختص بالملابس وشباك التمويه والبطاطين الخ .. أن تكون بحيث لا تعطى للناظر إليهـا ، وبالتالى للمهاجم ، أى فكرة عن حقيقتهـا . وستكون مهمة هذا اللواء قاصرة على احتلال وتطهير وتنظيم المناطق التى اكتسحتها الدبابات . أما قوة النيران ، وهى خفيفة الحركة قصيرة المرمى ، والتى ستستخدم بالتنسيق مع الدبابات ، فيجب أن يعمل اللازم لتغطيتها من أبعد مسافة ممكنة بقوة نيران أخرى أكثر إحكاماً ... وهذا هو واجب المدفعية ، التى سيكون تحت تصرفها فى الفرقة جميع أنواع المدافع اللازمة للتحضير للهجوم وللمعاونة المباشرة وللوقاية البعيدة والقريبة ، وللأعمال المضادة . وتتكون المدفعية من آلايين ، أحدهما مجهز بمدافع ثقيـلة قصيرة المرمى ، والآخر مجهز بمدافع أخف وأبعـد مرمى . هـذا عـلاوة على مجموعة مضـادة للطائرات قادرة على إطلاق مائة طن من القذائف فى ربع ساعة ، وإلى عمق ستـة أميـال خلف جبهة القتال .

« وتشتمـل الفرقة على ثلاثة لواءات تكميلية ، معززة بكتيبة مهندسين لأعمال العبور ، وكتيبة من قوات المواصلات . ويكون تحت تصرفها مجموعة استطلاع وهى تتكون من دبابات عظيمة السرعة وجنود منقولين بالقطارات ليقاتلوا مترجلين ، وعربات خفيفة للاتصال البعيد . وقد روعى فى هذا التنظيم أن تتمكن الفرقة من الاتصال بالعدو ،

أو الاحتفاظ بجهة ما لوقت معين ، أو ستر جنب أو ستر انسحاب.

« أما الوحدات الجوية فلن يكون القصد منها القيام بأعمال عرضية بناء على طلب أى جهة من الجهات ، ولكن يجب أن تكون لها وظيفة محددة ، هى إمداد القائد بالمعلومات باستمرار ، ومعاونة القوات الأرضية فى المعركة وإطالة المدى المؤثر للمدفعية العادية . وبعبارة أخرى ستكون تلك الوحدات هى عيون القوة الأساسية .

« هذا ويتبع كل فرقة من هذه الفرق كتيبة تمويه ، متخصصة فى أعمال التمويه ومجهزة بكل الوسائل اللازمة لخداع العدو وإيهامه بضخامة وحداتنا .

« وتلحق بالقوة المكونة من ست فرق ، فرقة خفيفة لأغراض الاستكشاف ومنع المفاجأة . ويكون تنظيمها كالتنظيم العام للفرق الأخرى ، ولكنها مجهزة بآلات أعظم سرعة ، وبالتالى أخف تدريعاً ، وبمدفعية خفيفة ومشاة ذات خفة حركة كبيرة وذلك لأنها لن تكون مسلحة بنفس العدد من مدافع المشاة .

« وأخيراً سيكون هناك الاحتياطى العام ، ويتكون من لواء من الدبابات الثقيلة جداً التى تستطيع مواجهة التحصينات الثابتة ، ومن لواء مدفعية ثقيلة ، وآلاى مهندسين ، وآلاى إشارة ، وآلاى إخفاء وتمويه ، وآلاى من طائرات الاستطلاع ، وآلاى من حملة البنادق ووحدات الإمدادات والتموين العادية .

« هذه المجموعة تكوّن جيشاً كاملا من قوات « الصاعقة » ، وقوامه ١٠٠,٠٠٠ رجل .

« وهذا الجيش الميكانيكي له ثلاثة أضعاف قوة النيران التي كانت لمجموع القوات الفرنسية في أغسطس عام ١٩١٤ ، وعشرة أضعاف سرعتها ، ودرجة عالية من الوقاية . وإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الجيش سيعمل في العادة على العشر فقط من مواجهته ، وأن جنوده ذوى الكفاءة المهنية سيحصلون على نتائج أعظم من استخدام المعدات ، لأمكننا أن نكون فكرة عن القوة التي يمكن الحصول عليها من جيش المستقبل » .

وكان دي‌جول يرى ربط القوة الجوية بالقوة الأرضية ، واستخدام الطائرات في الاستطلاع والإشارة ولستر الدبابات بستارات من الدخان وبالضوضاء . والأهم من ذلك أن الطائرات تستطيع أن تقدم نيران مدفعية بعيدة المرمى لأبعد حد يمكنها الوصول إلى أقصى مؤخرة العدو . وفي هذا الصدد تلعب الطائرات دوراً رئيسياً في الحرب حيث أن الدبابات ستكون عوناً أرضياً كبيراً لم يكن متوافراً من قبل . وإن الجمع بين الطائرة والدبابة يمكّن قوة ميكانيكية من أن تضرب على طريقة شليفين ، أي إلى عمق كبير على أجناب وإلى مؤخرة العدو .

ولا يظن القارىء بناء على ما جاء بالكتب التي كتبها دي‌جول أنه قد تنبأ فيها بطبيعة الحرب القادمة مع ألمانيا تنبؤاً كاملا ، أو أنه كان الوحيد الذي حاول هذا التنبؤ عن الحرب الميكانيكية . فإن الجنرال ج . ف . فوللر ، البريطاني ، ومعاصر دي جول ، قد ناقش هذه الناحية بتفصيل أكثر وبدقة قد تكون أعظم ، ذلك لأن دي جول

كان يظن أن الدبابات تستطيع تحطيم الحصون أو تخطيها ، ولكنه لم يفكر فى الأهمية البالغة لوظيفة المهندسين فى الميدان ، وهم الذين يمكنهم تجهيز ثغرات لمرور الدبابات ، مما يحمل إلى الذهن أن دى جول لم يكن يقدر للمهندسين أكثر من وظيفتهم القديمة ألا وهى بناء الجسور وإصلاح الطرق . ومهما يكن من أمر فلا دى جول ولا فوللر أمكنه التنبؤ بوضوح عن مدى ما سيصل إليه تطور نظام « المجموعة الضاربة » وهو النظام الذى كان من العوامل الرئيسية فى العمليات الحربية الألمانية عام ١٩٣٩ — ١٩٤٠ . ولم يتطرق إلى ذهن أحد من مؤيدى فكرة « الجيش المختار » مقدار الأهمية التى كانت للدور الحيوى الذى لعبته الجيوش الضخمة العدد — كما حدث فى الجبهة الشرقية وفى جبهة معركة الأطلنطى — فى استغلال النجـــاح الذى أحرزته القوات الجوية والميكانيكية ، وإذا نحن قلنا أن فرنسا قد دحرت فى الحرب الماضية تحت ضغط جيش مختار مكون من ٥٠,٠٠٠ من جنود الدبابات والمهندسين والطيارين ، فإننا بقولنا هذا نكون قد تجاهلنا تلك الكتل المتراصة من المشاة المكونة من ١٠٠ فرقة يرجع إليها الفضل فى إتمام النجاح الذى بدأته القوات الميكانيكية .

وعندما يصل دى جول فى كتاباته إلى حد الحديث عن ظروف المعركة بعد أن تشتبك فيها القوات الميكانيكية ، نجد أن هناك جواً من عدم التحديد ، ونجد أنه لم يعط أى قدر من الأهمية أو التقدير إلى جنود المظلات أو المشاة المنقولة جواً . والظاهر أنه لم يكن يفكر

إلا فى احتمال قيام الحرب بين جيشين أحدهما ميكانيكى والآخر ليس كذلك . وهو يتحدث فى كتاباته عن « الهجوم على موقع العدو » وعن « معسكر العدو » ولكنه لم يشر إلى أى اصطدام بين قوات ميكانيكية أو بين الدبابات وبعضها البعض ، وهو ماحدث فعلا فى شمال أفريقيا . وإن كلمة « ضد الدبابات » لم ترد فى كتاب دى‌جول عن « جيش المستقبل » سوى مرتين ، كما أنه لم يتنبأ بالدور الذى لعبه اللغم المضاد للدبابات وقاذفة القنابل المنقضة أو طائرات الكسح الأرضية التى استخدمت فى الحرب الأخيرة .

هذا بالرغم من أن أفكار دى جول قد وجدت بعض التأييد فى الأوساط السياسية الفرنسية ، ولا سيما من پول رينو ، الذى وضع كتاباً فى « المشكلة العسكرية الفرنسية » فى عام ١٩٣٤ ، إلا أن المعارضين لفكرة إنشاء جيش مختار كانوا أغلبية ساحقة ، وكان هؤلاء يقولون « إن فرنسا لا تستطيع أن تسلم زمام مصيرها إلى جيش من المحترفين قوامه ١٠٠,٠٠٠ رجل » . أما المارشال بيتان الذى كان يؤيد دى جول فى الأيام الأولى من عهد اتصالهما ، فقد كفّ الآن عن هذا التأييد ، وذلك عندما وصف « جيش المستقبل » بأنه حفنة من المغامرين . هذا وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد قرر فى عام ١٩٣٤ إنشاء ثلاث فرق مكانيكية خفيفة ، إلا أن المعدات التى جهزت بها والمبادىء التى وضعت لاستخدامها فى حالة الحرب قد قضت على كل أمل فى تحقيق الأفكار الأساسية لدى جول . ومهما يكن من أمر

فإن فرنسا كانت مستمرة فى وضع سياستها العسكرية على أساس من المحالفات . وقد أخذ هذا النظام يتداعى منذ إنشاء خط ماجينو . هذا وقد أنفقت فرنسا على الجيش نحو ٣٧٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٣٩ ومع ذلك لم يكن هذا الجيش من القوة بحيث يشد أزر رجال السياسة الفرنسيين أمام التهديدات الدولية فى عام ١٩٣٦ و ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، كما أنه كان من الضعف بحيث لم يستطع إنقاذها من الدمار فى عام ١٩٤٠ .

وكما هى الحال دائماً مع المجددين فى النواحى العسكرية ، فإن أفكار دى‌جول قد لاقت اهتماماً خارج فرنسا أكثر مما لاقته فى داخلها ، ففى النمسا وفى بريطانيا وخصوصاً فى ألمانيا كانت كتب دى‌جول تدرس بعناية ، وعندما زار « مسيو فيليب باريه » برلين فى عام ١٩٣٤ كان مقدار الحرج الذى شعر به كبيراً عندما وجد أن الموظفين النازيين العسكريين والدبلوماسيين كانوا يعرفون كل شىء عن الأفكار التى نادى بها دى‌جول فى حين أنه وهو فرنسى لم يكن قد سمع عنها مطلقاً ، والأدهى من ذلك أن الجنرال هاينز جودريان ، وهو أعظم الإخصائيين النازيين فى الحرب الميكانيكية ، قد اعترف بصراحة بفضل دى‌جول عليه .

وعندما اقتربت الحرب العالمية فى عام ١٩٣٩ بادر الجيش الفرنسى فقرر إنشاء أربع فرق مدرعة ثقيلة لتعزيز الفرق الثلاثة الميكانيكية الخفيفة التى أنشئت فى عام ١٩٣٤ ، وعندما بدأ الألمان ضربتهم فى مايو ١٩٤٠ كانت فرقتان من هذه الفرق الأربع قد تم تشكيلها ،

ولكنها كانت لا تزال فى دور التنظيم عندما اضطر الأمر إلى القذف بها فى أتون المعركة قبل أن تستكمل معداتها ومهماتها . وفى الفترة من مايو إلى يونية ١٩٤٠ لم تعد المسألة مسألة خمس فرق مدرعة فرنسية ضد ١٠ فرق بانزر ألمانية ، ولكن كانت الترتيبات النازية للاستخدام المتكتل للدبابات بالتعاون مع المشاة والمهندسين والطائرات بما فيها قاذفات القنابل ، قد فاقت التكتيكات الفرنسية إلى درجة جعلت التفكير فى مسألة الأعداد مما لا قيمة له . هذا ولم تكن التعاليم الفرنسية فيما يختص بالدبابات قد أدخل فى حسابها الاستخدام المتكتل للدبابات ، ولكن ربط بينها وبين المشاة والمدفعية .

وقد رأى الكولونيل دى‌جول فى الاكتساح الناجح الذى قامت به القوات الميكانيكية الألمانية فى بولندا أكبر دليل على صحة تنبؤاته ، واعتبره تحذيراً أخيراً لفرنسا . وقد كان دى‌جول يشعر بقلق عظيم وهو يراقب تطور الحرب خلال فترة الحرب الموضعية . وفى ٢٦ يناير ١٩٤٠ ، أى قبل الضربة التى وجهتها ألمانيا فى الغرب بأربعة أشهر ، كتب مذكرة ضافية عن الموقف العسكرى وقدمها إلى كل من جاملان وفيجان ودلادييه ورينو .

وقد احتوت هذه المذكرة على بعض الملاحظات الدقيقة فى ميدان الفكر الحربى ، وقد كان لدى‌جول مجال واسع فى هذا الميدان ، فكان مما قاله : إن الوقت لم يعد يتسع للمناقشات البيزنطية فى السياسة العسكرية بالطريقة التى كانت متبعة دائماً ، ذلك لأن الخطر يقترب ، ولم تكن

السلعة التى يريد دىجول تجنب المساومة فى ثمنها سوى حياة فرنسا ، وقد ندد بشدة بتلك السياسة التى ترمى إلى « إغراق كل مالية فرنسا فى الأسمنت المسلح » ، وهو يقصد بذلك أنه مهما زيد من تحصينات خط ماجينو ومهما كان عدد المشاة والمدفعية التى تحتله ، فإنه من الممكن تخطيه . والإجراء الوحيد الذى يجب اتخاذه لمواجهة جيش ميكانيكى هو جيش ميكانيكى آخر يعادله ، ولا يمكن أن يكون لفرنسا مثل هذا الجيش إلا إذا شمل الإصلاح جميع النواحى العسكرية الفرنسية .

وعلى ذلك نصح دىجول بأن تتوسع فرنسا فى برنامجها الصناعى ، وتستغل إلى أقصى حد الإنتاج الأمريكى ، فتستورد من أمريكا الدبابات وقاذفات القنابل بكميات ضخمة . ومع كل فإن الحصول على كميات هائلة من الدبابات والطائرات لا يكفى فى حد ذاته لتحقيق الغرض المطلوب من أجله ، ألا وهو تكملة وتعزيز التشكيلات الحربية الموجودة فعلا ، بل يجب أن تكون القوات الميكانيكية منفصلة تماماً عن التشكيلات الأخرى ، وتخصص للعمل الخاص بها فقط . وتطرق دى جول من ذلك إلى مناقشة النواحى الأكثر اتساعاً فى الحرب فكتب يقول :

« وبالجمع بين هذه العناصر الحديثة براً وجواً وبحراً ، لا بد أن تبرز استراتيجية جديدة تستند إلى اتساع كاف فى المسافة ، وسرعة كافية فى الوقت ، لتصل إلى المستوى الذى تسمح به الاختراعات الحديثة . وهذا الامتداد لمجال العمل وللقوى لا بد وأن يؤدى إلى اتساع كبير لمسرح الحرب وإلى تغييرات عميقة فى الإدارة السياسية لها . هذا

والحرب الميكانيكية بتمشيها جنباً إلى جنب مع الحرب الاقتصادية ، لا بد وأن تؤدى إلى اشتراك كثير من الدول التى كانت تلتزم موقف المتفرج — أو موقف العزلة — وهو انقلاب لا بد منه نتيجة لنظام التطور ؛ غير أن المهم فى الأمر هو أن نضم إلى جانبنا فوائد هذه القوى الحديثة ، لا أن نتركها ليستفيد منها العدو ، ويجب على الشعب الفرنسى ألا يخضع بأى حال من الأحوال للفكرة الخاطئة بأن عدم خفة الحركة الذى تتصف به القوة الحربية الحالية هو بالضرورة من خواص الحرب ، إذ الحقيقة عكس ذلك . فإن الآلة التى تدار بالبنزين قد أضفت على أسلحة التدمير الحديثة قوة ومجالا ومدى ، يجب أن تقترن بخفة الحركة ، والمفاجأة ، والهجوم الخاطف ، والمطاردة على نطاق واسع وبسرعة تفوق بدرجة لا نهائية أعنف ما سبق أن مر من الحوادث » .

كان هذا هو أول بيان لقائد عسكرى من قواد الحلفاء واجه فكرة احتمال امتداد الحرب إلى مسارح جديدة ، وأشار إلى الصفات التطورية العظيمة للحرب . أما فى خارج فرنسا فقد بذلت الجهود لتقدير الخطر العسكرى فى بولندا بمقياس عام ١٩١٨ . وقد كانت رغبة القيادة الفرنسية العليا فى قصر الاستعداد للحرب على الحدود الفرنسية الألمانية مجرد محاولة أخيرة منها لفرض المبادىء العتيقة على الناحية الجديدة للحرب ، كما كانت آخر ما استسلموا إليه من أوهام فيما يختص بطبيعة الحرب المستقبلة . وإن فى إرسال الجنرال جاملان للجيش الفرنسى الأول الذى أخذ يسرع فى طريقه شمالا إلى الفخ الذى نصبه له الألمان

فى ١٠ مايو ١٩٤٠ ، وهو يصيح متفاخراً « الآن سأعيد تمثيل مناورة أسترلتز » لأكبر دليل على مقدار ما كان يسود القادة الفرنسيين من اضطراب .

وفى ١٥ مايو ، وهو اليوم التالى لاختراق قوات البانزر الألمانية للخط الفرنسى فى سيدان ، رقى دى جول إلى رتبة جنرال وأسندت إليه قيادة الفرقة الرابعة المدرعة « الثقيلة » . وفى ذلك الوقت كانت الفرق الثلاث المدرعة الخفيفة التى أرسلت على عجل إلى بلجيكا ، على وشك العزل . وعندما قدم الجنرال دى‌جول نفسه إلى مركز رئاسة الجنرال دومنك فى مونترى علم أن إحدى الفرق الفرنسية المدرعة الثقيلة التى كانت تعمل دون الكفاية من الاستطلاع وترتيبات التموين بالوقود ، قد فاجأتها الدبابات الألمانية عند دينان ومزقتها تمزيقاً ، وفى الوقت نفسه شتت شمل فرقة أخرى عند فرقييه . وكانت الفرقة الرابعة التى تولى دى‌جول قيادتها تتألف من كتيبتين تشتمل كل منهما على ٣٠ دبابة حمولة ٣٠ طن ماركة ب ٢ ، وكتيبتين تشتمل كل منهما على ٤٠ دبابة حمولة ١٢ طن ، ووحدتين من المدفعية تشتمل كل منهما على ١٦ مدفعاً عيار ٧٥ مم ، هذا علاوة على كتيبة من جنود الانزلاق محمولين فى عربات . وكان ينقص الفرقة مرتبها من المدافع المضادة للطائرات وطائرات المعاونة . وقد أمر الجنرال دى جول بتعطيل الألمان بالقرب من لاون ، وذلك بالرغم من أن قيادته لم تعمل متحدة مطلقاً ، كما أن بعض أفراد أطقم الدبابات لم يسبق لهم أن أطلقوا مدافعهم أبداً .

وقد بدأت الفرقة الرابعة عملياتها يوم ١٨ مايو جنوبى لاون .

وأفلحت قواتها فى القيام بتقدم ملموس فى إحدى القطاعات ، إلا أن هجمات الطائرات الألمانية « ستوكا » ، وعدم وجود وحدات معاونة فرنسية ، قد اضطرها أخيراً للانسحاب . وبعد ذلك أرسلت الفرقة لمهاجمة رأس الكوبرى الألمانى جنوبى آب فيل فى ٣٠ و ٣١ مايو . وهنا أحرزت وحدة الجنرال دى جول أعظم نصر حصلت عليه الدبابات الفرنسية طيلة الحرب . وقد تقدمت نحو ١٠ أميال وأسرت كثيراً من الألمان والعتاد . ولكن مثل هذه الانتصارات الصغيرة لم تكن لتوقف اندفاع موجة الهزيمة التى كانت تزحف على فرنسا . وفى ٥ يونية لم يعد للجيش الفرنسى البريطانى العظيم الذى كان قد أرسل شمالا إلى بلجيكا فى ١٠ مايو أى وجود كقوة حربية . وهنا تحولت موجة القتال نحو الجنوب . وكأنما حاول رئيس الوزارة الفرنسية المسيو رينو بذل المحاولة الأخيرة لتحسين الموقف ، فعين الجنرال دى‌جول وكيلا لوزارة الحربية الفرنسية فى ٧ يونية ١٩٤٠ ، وكان كل ما يستطيع دى‌جول أن يفعله وقتذاك هو أن يدعو الشعب للقتال حتى النهاية . فإذا لم يتمكن الفرنسيون من الصمود فى أرض الوطن ، فإن الحكومة ستنتقل إلى شمال أفريقيا . وهنا قال دى‌جول : « وحتى لو لم يبق لدينا سوى نصف مراكش فسنستمر فى الكفاح .. وإن الوقت لكفيل بأن يحول دفة التفوق الميكانيكى إلى جانبنا .. وستهيأ لنا المساعدة الأمريكية النصر الكامل » . ولكن تلك الحماسة لم تجد ، فقد زاد الاضطراب ، وانتشرت روح الهزيمة ، وفى ١٨ يونية غادر دى‌جول بوردو قاصداً إلى لندن .

ومنـذ أن استقر دیجول فی بریطانیـا أخـذ یشن حرباً كلامیة لا هوادة فیها ، لیس فقط ضد الألمان ولـكن أیضاً ضد الانهزامیین من الفرنسیین فی بوردو ، وكذلك الذین یتعـاونون مع حـكومة ڤیشی . ولم تأخذه أی شفقة فی مهاجمته لبیتـان العجوز ، وكان مما قاله له فی إحدی إذاعاته :

« أیها المارشـال . . لقـد سمعت صوتك بالأمس ، وأنصت إلی ما كنت تقوله للشعب الفرنسی تبریراً لما فعلته .

« لقد أوضحت أولا نواحی النقص التی أدت إلی الهزیمة ، ثم صرحت بأنه لم یعد للموقف سوی حلین ... إما قبول الشروط التی فرضهـا العدو ، وإما الالتجاء إلی الإمبراطوریة ومواصلة الحرب ... ثم ذكرت أن واجبك یقضی علیك بالبقاء فی فرنسا .

« والواقع أن نواحی النقص العسـكریة التی أشرت إلیها كانت فظیعة ، ولـكنك لم تذكر أسبابها ... ولم تذكر مـن هو المسئول الذی كان یشرف علی الإدارة العسكریة فی فرنسا بعد حرب ١٩١٨/١٤ ، ومن كان الرئیس الأعلی للقوات المسلحة حتی عام ١٩٣٢ ... ولم تذكر أنك كنت وزیراً للحربیـة فی عام ١٩٣٥ ، فهل ألححت فی الطلب أو أیدت الطالبین بإجراء التغییرات اللازمة فی تلك الإدارة ؟ .

« إننا لم نـكن فی حاجة إلیك أیها المارشال لـكی تقبل مثل تلك الشروط التی تفرض علینـا العبودیة ... إننا لم نـكن فی حاجة إلی بطل ڤردان ، فإن أی فرد آخر كان یستطیع أن یفعل ما فعلته أنت الآن » .

وفى ٢٨ يونية ١٩٤٠ اعترفت الحكومة البريطانية بحركة التحرير الفرنسية التى يتزعمها الجنرال دى جول الذى اختار رمزاً لها صليب اللورين المزدوج وشعار عام ١٨٧١ المجيد « كلا ، وإلى الأبد » . وقد انضم الفرنسيون بجموع هائلة تحت لوائه ، وبدىء فى تجنيد جيش جديد وتدريبه على أحدث النظم ، فى حين واصل الأسطول الفرنسى الحرب فى البحار . وعندئذ أخذ الجنرال دىجول يستعد لتنظيم مرحلة الحرب فى المستعمرات حتى إذا أريد هزيمة دول المحور كانت قوات هذه الدول مضطرة إلى التوزع والبعثرة فى مناطق شاسعة متباعدة . وكان معنى ذلك حرباً طويلة الأمد ، وفتح مسارح حرب وقواعد جديدة .

وعند ما اشتركت روسيا والولايات المتحدة الأمريكية فى الصراع ، توافرت الشروط اللازمة لانتصار الأمم المتحدة ، وأصبح بالإمكان التنبؤ بتحقيق ما سبق أن صرح به دىجول من أن ألمانيا وقد هزمت فرنسا نتيجة لتفوقها عليها فى القوات الميكانيكية ستذوق نفس الهزيمة لتفوق الأمم المتحدة عليها فى هذا النوع من القوات .

وكانت أفريقيا تتمثل فى خاطر دى جول فى كل لحظة ، وكان دائماً يصرح بعد انهيار يونية ، بأن أفريقيا هى المكان الذى كان يجب أن يتخذ فيه الفرنسيون الاستعدادات للمعركة التالية ، وأنه من اللحظة التى كفوا فيها عن الاستمرار فى هذه الاستعدادات ابتدأت الأحوال تسوء ، وأنه كان يجب عليهم البدء فيها منذ ١٦ مايو .

وكانت أول المساعى التى بذلها دى‌جول لكى يسيطر على الأراضى الفرنسية فى أفريقيا قد جاء عقب هجوم البريطانيين على الأسطول الفرنسى فى أوران . وبالرغم من التأثير المؤلم الذى كان لهذا العمل فى قلوب الفرنسيين ، إلا أن الإجراءات الإدارية التى اتخذها دى‌جول قد مكنته من أن يكسب إلى جانب الفرنسيين الأحرار ثلاث سفن حربية فرنسية هى « تشاد ، وجابون ، وكامرون » ، وكان ذلك فى أواخر أغسطس ١٩٤٠ . وتلى ذلك الهجوم الذى جاء قبل أوانه على داكار فى سبتمبر مما أدى إلى تشكك الكثير من الرجال فى مقدرة دى‌جول العسكرية ومواهبه السياسية .

غير أن الجنرال دى‌جول قد تغلب على هذا الفشل ، ومنذ ذلك الحادث عمل على تنسيق المجهودات الحربية للفرنسيين الأحرار مع مجهودات بريطانيا تنسيقاً قريباً . وقد قامت قوة بقيادة الجنرال كاترو بدور هام فى احتلال سوريا فى يوليو ١٩٤١ ، وقامت وحدات أخرى بالتعاون مع قوات الحلفاء فى غزو إريتريا ، كما أظهر أفرادها جدارة عظيمة فى القتال العنيف الذى دار فى كيرين . وفى مايو ١٩٤٢ قامت قوة فرنسية من جميع الأسلحة تحت قيادة الجنرال كوينج بدفاع باهر فى بيرحكيم ضد أقوى وحدات الفيلق الأفريقى الألمانى . كما قام الجنرال كوينج مع الجنرال دى لارمينا بقيادة الوحدات الفرنسية المقاتلة فى معركة العلمين . وعندما تقدم الجيش البريطانى الثامن إلى طرابلس قامت القوات الفرنسية المقاتلة من بحيرة تشاد تحت قيادة

الجنرال ليكريك بعد عملية بارعة فى الصحراء بشق طريقها إلى طرابلس واتصلت بالجيش الثامن وقد تعاونت هذه القوات مع الجنرال فريبرج فى عملية الالتفاف التى قام بها فى اتجاه الحما ، والتى أدت إلى تطويق خط مارث .

هذا وبقيام الحلفاء بغزو شمال افريقيا بات من المحقق تحقيق الآمال التى أبداها دىجول لتنفيذ برنامج تحرير فرنسا عن طريق غزو أوروبا . غير أن موقفه بالنسبة لهذا البرنامج قد لحقه كثير من التغيير ، إذ بالرغم من أن القوات التى تعاونه بصفة رسمية لم تتعد جزءاً صغيراً جداً من سكان المستعمرات الفرنسية ، فقد طلب منه أن يتعاون بهذه القوات مع الجنرال چيرو الذى كان يسيطر على الجزائر ومراكش والسنجال .

وكنتيجة لهذا التعاون أصبح الجنرال دىجول فى مركز معترف به كرئيس للحكومة الفرنسية . وبعد انتهاء حملة تونس وما قام به الجيش الفرنسى فى شمال افريقيا مما أثبت بعثه للوجود نتيجة لقتاله جنباً إلى جنب مع الحلفاء ، وتمكنه من أسر ٤٨,٠٠٠ أسير فى العمليات الأخيرة بتونس ، ابتدأ فى إعادة تسليحه بالمهمات البريطانية والأمريكية ، وتدريبه للعمل على تحرير فرنسا ، وقد اشترك هذا الجيش بعد ذلك فى احتلال جزيرة كورسكا ، وفى ديسمبر عام ١٩٤٣ اشترك فى القتال مع الجيش الخامس فى إيطاليا .

أما فى داخل فرنسا فإن القوات الفرنسية الداخلية ، والوحدات النظامية بالجيش ، قد تعاونت تعاونا جدياً فى عمليات الغزو وإعادة

تحرير فرنسا. وقام جيش فرنسى باحتلال مكانه بجانب جيوش الحلفاء فى الجبهة الفرنسية خلال المعارك التى دارت على الحدود الألمانية. وكخطوة جديدة فى سبيل التدليل على استعادة فرنسا لمركزها كدولة كبرى، وقع الجنرال دى جول معاهدة تحالف وتعاون متبادل مع روسيا السوفيتية فى عام ١٩٤٤.

هذا وإذا كانت فرنسا قد نجت من الفوضى والآلام التى اجتاحت الدول الأوروبية الأخرى المحررة، فإن الفضل فى ذلك يعود إلى حد ما إلى تقدم الجنرال دى‌جول ونجاحه فى مضمار السياسة العملية. وإن جهوده التى بذلها فى سبيل استعادة فرنسا لحريتها ستظل منقوشة فى سجلات التاريخ، كما ستظل أكثر بروزاً من الأعمال الحربية التى قام بها. غير أن كلتا الناحيتين ترتكزان على طبيعة دى‌جول الأبيّة التى رفضت الاعتراف بهزيمة فرنسا فى عام ١٩٤٠ كهزيمة نهائية. وإن ما تراءى فى ذهن كل من بيتان وفيجان كنهاية الطريق، إنما كان فى نظر دى جول عقبة وقتية تسد هذا الطريق ولا تحتاج إلا لمن يزيلها. وإن وصول دى‌جول إلى مثل هذا الرأى إنما يرجع إلى قوة أخلاقه أكثر مما يرجع إلى الذكاء والمهارة.

ولقد دلته غريزته فى عام ١٩٤٠ على أن ألمانيا سوف تتردى فى حرب هائلة مع أكبر الدول الصناعية فى العالم، وهى روسيا والولايات المتحدة، وهداه بعد نظره إلى أنه عند ما يحدث ذلك ستتوافر لفرنسا الأسس التى تبنى عليها خطة النهوض من كبوتها واستعادة حريتها.

ولم يتطلب ذلك سوى سنوات قليلة تحققت بعدها جميع آماله وآرائه .
ونحن إذا حكمنا على حياة دى جول بما أداه من الناحية العسكرية ما أعوزنا البرهان على أنه قد احتل مكانة ممتازة بين كبار القواد النظريين فى فرنسا . وقد كان دىجول هو القائد العسكرى الوحيد فى فرنسا الذى كوّن فكرة واضحة عن المشاكل العسكرية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وقد أدلى بالتحذير تلو التحذير ضد سياسة الدفاع الثابت ، وأكد المرة تلو المرة المزايا العظيمة الكامنة فى الهجوم الميكانيكى . وعندما انتهت مرحلة الحرب فى القارة الأوروبية بانهيار فرنسا أظهر دىجول تقديراً مبكراً للصفة التى ستتخذها الحرب بامتدادها إلى أنحاء العالم . وقد تنبأ بصفة خاصة بالدور العظيم الذى ستلعبه أفريقيا فى الاستراتيجية المقبلة للدول المعادية للمحور . وخلاصة القول أن دىجول قد حافظ على جذوة المقاومة الفرنسية وحال دون انطفائها .

ويقول اليمينيون فى فرنسا إنه الزعيم الذى سيقضى على الشيوعية ، ويقول الشيوعيون إنه الحصن الأخير من حصون الرجعية .

فالكل يجمعون على أنه سيكون نقطة تحول فى فرنسا ، وفرنسا تجر وراءها دائماً غرب أوروبا الى المذهب الذى تعتنقه ، فهل يكون دى جول كفئاً لهذا الوضع ؟

لا شك فى أن الشعب الفرنسى يحبه ويقدره ... بدليل فوزه فى كل انتخابات خاضها ... وهذا هو أقوى أسلحته . ولا شك فى أنه يجيد اختيار الوقت المناسب ، وآية ذلك توفيقه فى اختيار الوقت لإعلان

حركة المقاومة فى خلال الحرب ، وفى اختيار الوقت لإعلان تكوين حزب اتحاد الشعب الفرنسى فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٤٧ .

هذه بعض مزاياه ، فأبرزها أنه يعرف كيف يعادى ، ولكنه لا يعرف كيف يصادق . فلا نجد حزباً واحداً صديقاً له بين الأحزاب الفرنسية فى فترة لا يمكن أن يتولى الوزارة فيها إلا حزبان متعاونان .

وهو يميل بطبعه إلى الاستبداد ، والشعب الفرنسى بطبيعته وفترته يقاوم كل استبداد .

وأن التقدير النهائى الذى سيخصه به الشعب الفرنسى والتاريخ لن يقتصر على صفاته الشخصية الشاذة ، ولكنه سيعترف بعظمته الحربية ومزاياه الأخلاقية ، وحبه المشتعل لبلاده . وسيذكر أنه فى الوقت الذى صمتت فيه أصوات الجميع أو ارتفعت لتطلب الاستسلام ، كان صوت دى‌جول يدوى بأن فرنسا لن تقهر .

فهل ينجح فى الدور الذى ينتظره ؟ هذا ما ستجيب عنه الأيام .

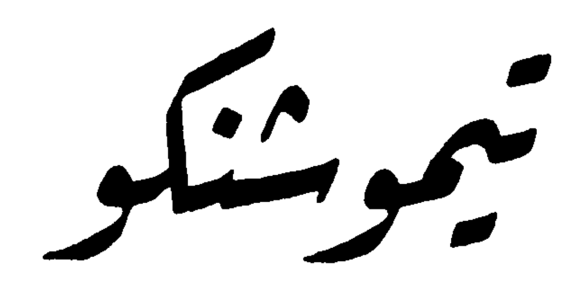
هذه صورة خاطفة لذلك القائد الفرنسى الذى لم يكد يمضى على ظهوره عشر سنوات ، وهو لا يزال إلى اليوم يناهض ويجاهد فى سبيل فرنسا ، وإن كان الميدان الذى يشغله فى الوقت الحاضر ليس ميدان المدفع والدبابة ، بل هو ميدان السياسة .

سنسحق العــــدو ثم نحطمه

« تيموشنكو »



« تيموشنكو »



كان النشاط العسكرى لدول المحور فى صعود مستمر طيلة ثلاث سنوات عصيبة ، ابتدأت من خريف عام ١٩٣٩ إلى خريف عام ١٩٤٢ . وقبل أن يتمكن الحلفاء من كبح جماح هذا النشاط المتزايد ، قهرت أمم كثيرة ، واستعبدت شعوب عديدة ، وانتشر الدمار والخراب وعم أنحاء قارات ثلاث . وفى نهاية عام ١٩٤٢ تمكنت قوات الحلفاء ، نتيجة ما قامت به من جهود تكاد تفوق طاقة البشر ، من أن توجد حالة توازن فى القوى ، وإن كانت تلك الحالة مما لم يكن بالإمكان التعويل عليه طويلا . وقد أمكن بالتدريج تحويل هذا التوازن إلى انتزاع الأمم المتحدة لعنصر المبادأة من دول المحور ، وبدأت فى اتخاذ صفة المهاجم فى جميع مسارح العمليات الحربية . وفى تلك المرحلة التى تحولت فيها الأمم المتحدة من الدفاع إلى الهجوم ـــ الأمر الذى جعل من انتصار قوات المحور فى أوروبا أمراً بعيد الاحتمال ـــ نجد أن الجيش الأحمر قد لعب دوراً أساسياً فى سبيل تحقيق هذا التحول .

قام الجيش الأحمر منذ يونية عام ١٩٤١ بتثبيت القوات الرئيسة

للمحور فى أوروبا ، وبعد معارك دموية امتحن فيها الشعب الروسى أقسى امتحان ، أمكن للجيش الأحمر أن يوقف اندفاع عجلة الحرب النازية وأن يحول التقدم الكاسح للقوات الألمانية إلى تراجع عام ، وبدأت القوات الروسية ، تحت قيادة ضباط من المدرسة الحديثة ، صقلتهم نيران الحرب المستعرة طيلة عامين طويلين ، من أن يجنوا ثمار ذلك الدفاع الباهر الذى قاموا به منذ بداية الحرب .

إن القليلين من الضباط الذين يبدأون حياتهم العسكرية قريباً من القمة ، هم الذين يمكن أن يطمحوا فى إنهاء حرب طويلة الأمد وهم فى مثل هذا المركز . ومن هؤلاء القلائل كان هندنبرج ، وهيج ، من أبطال الحرب العظمى الأولى ، وكيتل ، الذى احتفظ به على وجه الاستثناء فى الجيش الألمانى العامل ، يعتبر من هؤلاء القلائل فى الحرب العالمية الأخيرة . أما فى روسيا فمن بين جنرالات الجيش الأحمر البارزين ، وهم بوديني ، وفوروشيلوف ، وتيموشنكو ، لم يطل أمد أحد منهم إلى أكثر من الشتاء الأول للحرب فيما عدا تيموشنكو . ولم تكن مواهب هذا الأخير فى عام ١٩٤٢ ظاهرة تماماً ، إذ كانت تحجبها شهرة بعض القواد الآخرين مثل زوكوف وفسيلفسكى ، ولكن الدور الباهر الذى لعبه تيموشنكو فى المراحل الأولى من الحرب ، هو الذى ساعده على أن يحتل مكانة بارزة بين جنود روسيا المشهورين فى ذلك الوقت .

ولد سيمون كونستنتينوفتش تيموشنكو ، الملقب بمعلم الجيش الأحمر،

فى ١٨ فبراير عام ١٨٩٥ . وكان أبوه فلاحاً فقيراً فى فورمانكا بمقاطعة بسارابيا . ونشأ سيمون الصغير دون أن ينال قسطاً يذكر من التعليم ، وعمل فلاحاً بسيطاً إلى أن شمله قانون التجنيد القيصرى ، فالتحق بالجيش جندياً بسيطاً عام ١٩١٥ . وقد عمل سيمون بالجيش فى فصائل مدافع الماكينة التابعة للآلاى الأول أورانينباوم ، ثم فى فرقة الفرسان الرابعة . وفى خلال ذلك لم يتميز مطلقاً عن باقى رفاقه من الجنود ، فيما عدا اتهامه يوماً ما فى أكتوبر عام ١٩١٧ بعدم الطاعة ، وهى تهمة كادت أن تؤدى به إلى الإعدام . وقد أدانه المجلس العسكرى الذى شكل للتحقيق معه بتهمة ضربه ضابطاً ، إلا أنه لم يكد يحل شهر نوفمبر حتى اجتاحت الثورة البلاد ، فصدر عنه العفو ، وحارب ضد قوات الجنرال كاليدين فى منطقة الدون ، وتدرج فى القيادة سريعاً حتى وصل إلى قيادة الفرقة السادسة من الفرسان الحمر .

وكانت أهم مغامرات تيموشنكو خلال الحرب الأهلية هى قيامه بفرسانه باختراق خطوط الحصار التى ضربها الجيش الأبيض حول تساريتزين (ستالينجراد) فى نوفمبر ١٩١٨ . وقد لفت إليه هذا النجاح نظر ستالين وبوديني وفوروشيلوف . ثم اشترك تيموشنكو فى الحملة البائسة على بولندا وجرح خلالها جراحاً خطيرة وهو يقاتل ضد جيوش البارون رانجل فى بيريكوب فى شهر سبتمبر عام ١٩٢٠ . وقبل أن تندمل جراحه كانت الحرب الأهلية قد انتهت ، ونجح الجيش الأحمر فى تحرير الأراضى الروسية نهائياً من غزاتها العديدين ، وفى الدفاع عن الثورة ضد أعدائها فى الداخل .

وعندئذ أصبح تيموشنكو على اتصال بالحكومة المركزية فى روسيا . وقد قابل لينين لأول مرة فى عام ١٩٢٠ فى مسرح بولشوى بموسكو حيث أثنى لينين على ما أبدته فرقتـه من البراعة فى الحرب الأهلية ، وقد أجابه تيموشنكو بأن نجاحه فى كثير من الحالات إنما كان يرجع إلى النصائح الثمينة والاقتراحات القيمة التى كان مرءوسوه يقدمونها له . وقد سرّ لينين من هـذا القول وصاح به « حسناً ، حسنـاً . حاول دائماً أن تتمكن من الاعتماد على معونة رجالك ، فالمهم أن يكون الجميع كتلة واحدة » . والظاهر أن تيموشنكو ظل يعمل بهذه النصيحة طيلة حياته ، إذ قد دلت التقارير على أنه لم يكن يسمح لنفسه مطلقاً ، حتى وهو فى أعلى مراتب قوته ، أن يفقد الصلة برجاله على اختلاف رتبهم .

وفى الفترة التى تلت الحرب الأهلية مباشرة ، كان تيموشنكو متأثراً بنفوذ عدد من الرجال البارزين أمثـال فرونتز ، الذى خلف تروتسكى فى وزارة الحربية ، والذى أطلق اسمه على الأكاديمية للجيش الأحمر ؛ وشابوزنيكوف ، أحد الأساتذة المبرزين فى هيئة أركان الحرب ، وتوكاشفزكى ، القـائد الميدانى الذى لمع نجمـه فى ذلك الوقت . وقد أظهـر هـؤلاء الرجال المتعلمون لتيموشنكو « الجاهل » أنه لا يزال أمامه الكثير مما يجب أن يتعلمه عن الحرب . مما أيقظ فيه الرغبـة القديمـة فى أن ينهل من مناهل العلم التى حال فقر والديه دونه والاغتراف منهـا ، فاشترك مع أحد زملائه الذين كوّنوا أنفسهم بأنفسهم فى خلال الحرب الأهلية ، وانضما إلى الأكاديمية الحربية حيث وجد تيموشنكو أن الدراسة أصعب كثيراً من القتال ...

وفى عام ١٩٢٥ عين تيموشنكو مساعداً لقائد فيلق الفرسان الثالث وظل فى هذا المركز حتى عام ١٩٣٠ . وفى خلال ذلك حضر الفرق الدراسية بالأكاديمية السياسية للقواد العظام ، ثم شاهد عدداً من المناورات العسكرية فى أوروبا فى عام ١٩٣٣ . ومن عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٣٦ كان قائداً مساعداً لمنطقة كييف العسكرية تحت أمرة الجنرال ياكير ، وفى عام ١٩٣٧ شغل لفترات قصيرة قيادة كل من منطقتى القوقاز وخركوف العسكريتين . ثم عاد إلى كييف كقائد لها فى عام ١٩٣٨ ، وكان لا يزال يشغل هذا المركز عندما هاجمت ألمانيا بولندا فى سبتمبر عام ١٩٣٩ .

ويرجع تاريخ اشتراك تيموشنكو فى عضوية الحزب الشيوعى إلى عام ١٩١٩ . وكان إخلاصه لمبادىء ستالين مما لا يتطرق إليه الشك ، فى وقت كانت الرؤوس تتطاير من حوله إبان حركة التطهير . وقد كان تيموشنكو أحد أفراد بطانة توكاشفزكى ، ثم أحد أفراد هيئة أركان حرب ياكير ، ثم خلف كوشيرين فى قيادة منطقة القوقاز العسكرية ، وخلف كوشيرين فى قيادة منطقة خركوف . وقد اختفى كل هؤلاء الرجال فى حركة التطهير ، فى حين ظل تيموشنكو حائزاً على رضاء الحكومة . وهو لم يحاول شراء هذا الرضاء بخضوعه خضوعاً أعمى لكل مطالب السياسة العسكرية للحزب ، بل أنه حتى بعد حركة التطهير ، استمر فى تأييد برنامج توكاشفزكى الذى كان يرمى إلى تخليص الجيش الأحمر من نظام القيادة المزدوج الذى كانت تقوم عليه طريقة

القوميسيارين السياسيين، وهو النظام الذى ثبت فيما بعد أنه غير عملى .

عندما نشبت الحرب العالمية الأخيرة ، كان عمر الجيش الأحمر واحداً وعشرين عاماً ، وقد توالت عليه فى تلك الحقبة القصيرة من الزمن سلسلة من التغييرات الكبيرة . فإن الجيش الأحمر الذى كان وليد الحركة الثورية قد مرّ بعدة مراحل تطورية حوّلته من قوة من المتطوعين إلى جيش منظم ثابت ، وحلت الوحدات العسكرية المستقلة المنظمة على أساس إقليمى محل جيش أهلى مكوّن من كتلة واحدة . وكانت هذه الوحدات الجديدة ، ومعها قوات الاحتياطى النظامية ، تستند إلى شعب تدرب على الاستعداد للحرب نتيجة لنظام التعليم السوفيتى ، ومن جهة أخرى نجد أن الصناعات الروسية على اختلاف أنواعها ، قد صممت وانتخبت مراكزها على أساس من الاعتبارات الدفاعية البحتة ، وكان الجيش ، ومن ورائه الشعب ، على استعداد روحى للدفاع عن الوطن ضد أى هجوم واسع النطاق . ولهذه المناسبة نذكر ما قاله ستالين فى عام ١٩٢٨ من أن « الأمة والجيش يكوّنان وحدة واحدة ... أسرة واحدة » .

لقد كانت المبادىء والنظم التى تسير عليها روسيا السوفيتية وليدة عقول متعددة . وكان تيموشنكو واحداً من الضباط الذين ساعدوا على دعم تلك المبادىء والنظم وعلى إعداد الجيش الأحمر لخوض غمار التجارب القاسية التى كانت تنتظره . وفى المرحلة الأولى من تاريخ الاتحاد السوفيتى كان لينين يشدد فى ضرورة تخصيص جميع موارد الدولة للحرب

كضرورة حتمية فى حالة هجوم معاد . وهو هنا يقول : « متى اضطررنا للقتال يجب علينا أن نخصص كل شيء ... كل حياة الأمة ، للمجهود الحربى ، ولا يجب أن نسمح لأنفسنا بأى تحول عن هذا المبدأ » . وكان ميخائيل فرونتز ، وزير الحربية ، يرى أنه إلى أن يصل الإنتاج الصناعى لروسيا إلى مستوى أكثر الدول الأوروبية تقدما ، فإنه على روسيا أن تستخدم فى الدفاع عن نفسها طرق حرب العصابات و « الأرض المحروثة » . ورأى أيضاً أن أراضى الروسيا الشاسعة تهيء لها وسيلة عظيمة القيمة لإنهاك قوى العدو . وكان الخبراء العسكريون فى الأكاديمية الحربية للجيش الأحمر أمثال : سفيشين ، وفرخوفسكى ، يؤيدون فكرة الحرب الإنهاكية ويفضلونها على ما يراه الألمان من حرب الإفناء . وقد ذهب فرخوفسكى إلى أبعد من ذلك عند ما اقترح أنه فى حالة الحرب ضد عدو قادم من القارة الأوروبية ، فإنه يكون من الأفضل كثيراً للجيش الأحمر أن يتخلى عن مينسك وكييف من أن يستولى على بيالستوك وبريست ليتفوسك . وقد شدد ستالين نفسه فى ذكر المصاعب التى تواجه القيام بأعمال هجومية متواصلة ضد عدو قاهر ، وكان يرى أن إعادة تجميع الاحتياطى وإجراء وقفات لدواعى الأمن ، وكذلك مشاكل النقل ، مما يؤدى إلى إبطاء تقدم جيش حديث بالرغم من إعداده الميكانيكى . وقد كان الوقت وكذلك المسافة من العوامل الهامة فى الاعتبارات العسكرية الروسية ، وكان فى إمكان روسيا بالنسبة لاتساعها الشاسع أن تشترى الوقت بالمسافة إذا دعى الأمر .

وعلى ذلك فقد وضعت روسيا الخطوط الرئيسية لسياستها العسكرية مقدما، وإن كان قادة الجيش الأحمر يعلمون تمام العلم أنه لمواجهة عدو كامل الاستعداد مثل ألمانيا النازية، كان على هذا الجيش أن يجابه كثيراً من المتاعب الأولية. غير أنه كان من الممكن التغلب على هذه المتاعب بوضع برنامج دفاعي بعيد العمق، وبحشد كل ما لدى الشعب بأسره من قدرة على المقاومة، والقيام في الوقت نفسه بحرب إنهاكية ترمى إلى تحطيم الاحتياطي الاستراتيجي للعدو، يتبعها بعد ذلك قيام الجيش الأحمر بالهجوم. وقد وصف ماكس وارنر مبادىء الحرب السوفييتية بأنها :

١ ـ الاقتصاد في القوى وتجميع الاحتياطي بحيث يصبح الروس أقوى من العدو في النصف الثاني من الحرب.

٢ ـ إضعاف العدو بطريقة منظمة بواسطة العمليات الدفاعية والهجومية.

٣ ـ القيام بهجوم نهائي الغرض منه تحطيم قوات العدو المقاتلة.

هذا وقد كان الجيش الأحمر يسير نحو التحول الميكانيكي الذي ابتدأ عقب تدعيم الثورة، شأنه في ذلك شأن جميع المرافق الأخرى في الحياة الروسية. فإذا كانت الجرارة الميكانيكية قد أصبحت رمزاً للزراعة في روسيا، فإن الدبابة أصبحت رمزاً للجيش. وقد أثارت الدعوة إلى التحول الميكانيكي حماسة كثيرين من الضباط الروس لدرجة جعلتهم يشعرون بأن الآلات تستطيع أن تحل معظم المشاكل العسكرية الروسية. ولكن تيموشنكو لم يشاركهم بكليته في هذا الاعتقاد، بل كان يشدد في إعطاء نصيب أكبر من الأهمية إلى العوامل البشرية وإلى الضبط والربط

والتدريب والروح العسكرية لدى الجنود. وكان أنصار التحول الميكانيكى الكامل يتحدثون بحماسة عن الاحتمالات اللانهائية لمزايا الهجوم، ولكن تيموشنكو كان يقول بأن الهجوم ليس إلا أحد وجهى قطعة النقود، وأن الوجه الآخر هو الدفاع. ومن جهة أخرى كان بعض الزعماء السياسيين يعتقدون أن إعطاء الجيش قدراً كافياً من النضج السياسى، يكفى فى حد ذاته لمواجهة الحرب، ولكن تيموشنكو كان يصر على أن هذا النضج السياسى لابد أن يقترن بالمهارة الحربية والتسليح الكافى.

وجد تيموشنكو، ولم يكن قد مضى زمن طويل منذ أن أدين بأنه ضرب ضابطاً فى الجيش القيصرى، أنه لا يستطيع أن يمسك بزمام رجال العصابات من فرسانه دون أن يكون هناك ضبط وربط حقيقيان. وعندما تولى قيادة فرقة الفرسان السادسة فى عام ١٩١٨ قال:

« إن الافتقار إلى الضبط والربط والكفاءة يعد جريمة، وإننى لن أسمح مطلقاً بأى تراخ أو إخلال بالضبط والربط فى فرقتى». وكان بعض زعماء الجيش الأحمر يعتقدون فى أفضلية الضبط والربط اللذين يقومان على أساس «ثورى» أو «بدافع من الشعور الشخصى»، ولكن تيموشنكو كان يتشكك فى إمكان مثل هذا النظام لو وجد أن يكوّن جيشاً من مجرد مجموعة من الرجال. هذا وكان يكمن وراء مشكلة الضبط والربط والقيادة فى الجيش الأحمر، ذلك النظام الحزبى المسمى بالقوميسيرية السياسية، وهو النظام الذى طال حوله الجدل وتشعبت الآراء فى عدم صلاحيته. ولم تكن محاربة تيموشنكو لهذا النظام ترتكز على

أسس سياسية ، بل كان ارتكازها على عوامل عسكرية بحتة . وكانت وجهة نظره فى ذلك أنه ما دام أن هذا النظام لا يجدى نفعاً فى الحرب ، فمن الواجب إهماله . فضلا عن ذلك فقد شاهد بنفسه النتائج السيئة لهذا النظام فى الهزيمة التى لحقت بالجيش الأحمر أمام وارسو فى أغسطس عام ١٩٢٠ .

وقد عمّد الجيش الأحمر الوليد على الحدود المنشورية فى عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، عند ما قامت المشاة الروسية والقوات الميكانيكية والطائرات بمقاومة القوات اليابانية مقاومة ناجحة . وكانت كل من شانجوفينج ونومانهان مسرحاً لأولى هزائم الجيش اليابانى فى العصر الحديث . وبالرغم من أن العالم الخارجى لم يعر التفاتاً كبيراً لهذه الحوادث فى ذلك الوقت ، إذ اعتبرها من حوادث الحدود العادية ، إلا أن اليابانيين وهم الذين اشتركوا فى تلك الحوادث كوّنوا لأنفسهم صورة واضحة عن القوة العسكرية للجيش الأحمر لدرجة أثرت على خططهم الحربية المستقبلة ضد الأمم المتحدة . وفى نفس الشهر الذى غزا فيه هتلر روسيا كتب الليفتنانت جنرال كوموشى أوكورا ، المدير السابق لشركة سكة حديد منشوريا الجنوبية ، مقالا طويلا فى المجلة اليابانية (تاى هى يو) يمتدح فيها الازدهار الذى وصلت إليه الصناعة والقوة العسكرية الروسية .

غير أنه إلى ذلك الوقت ، كانت لا تزال هناك بعض عناصر الضعف فى المؤسسات العسكرية الروسية ، وقد تجلى أثر تلك العناصر واضحاً

فى الحرب الفنلندية . فإن حملة الشتاء التى قام بها الروس ضد فنلندا ، والتى بدأت فى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٣٩ ، قد تمخضت عن عدد من المفاجآت المؤسية للجيش الأحمر ، إذ تمكنت القوات الفنلندية الصغيرة ، ذات خفة الحركة البالغة والمهارة الفائقة ، من أن توقع بفرق الجيش الأحمر التى تقدمت على امتداد طرق الغابات المنتشرة فى أواسط وشمال فنلندا ، وكان مجرد امتلاك الجيش الأحمر للمعدات الميكانيكية مما لم يجده نفعاً فى تخفيف حدة الكارثة التى حلت به ، فقد كشفت تلك الحملة عن عجز شديد فى مهمات الجيش الأحمر الشتوية ، وتقصير شديد فى تدريبه . وإذا كان الكرملين يأمل فى أن يسحق فنلندا بضربة واحدة سياسية عسكرية ، وباستخدام جنود الخط الثانى ، فإن هذا الأمل سرعان ما تبخر . وأخيراً ، وبعد أن صدت الهجمات الروسية الأولى بخسائر فادحة ، عهد ستالين بقيادة الجبهة الكاريلية إلى تيموشنكو ، وأصدر إليه أمراً باقتحام خط مانرهايم ؛ وكان ذلك فى ديسمبر عام ١٩٣٩ .

كانت هذه هى أول قيادة هامة تولاها تيموشنكو ، وأول عهده بالحرب على نطاق واسع حديث . وقد كانت دفاعات خط مانرهايم من أقوى ما تفتق عنه العقل العسكرى فى التحصينات فى حين كانت القوات التى تدافع عنها على درجة عالية من الكفاءة ، كما كانت مزودة بعتاد حربى جيد ، ومتمتعة بروح معنوية عالية . كما كانت الانتصارات الأولى التى أحرزها الفنلنديون على القوات الروسية المتفوقة عليهم

فى العدد ، مما أكسب الجنود وقوادهم عزما ، وزاد من اعتقادهم بأن تحصينـات مانرهايم كفيـلة بتحقيق الدفاع الـكامل ، وأنه لن يمكن للروس اختراقها .

وقد انقضى شهر يناير عام ١٩٤٠ بطوله والروس يجرون الاستعدادات اللازمة لاقتحام خط مانرهايم ، فبدأوا بتحسين المواصلات ، وأحضروا إلى الجبهة فرقاً جديدة ، ونقلت المدفعية إلى مواقعها الأمامية ، فى حين أنشئت مستودعات هائلة للذخيرة . وفى خـلال ذلك أمر تيموشنـكو بإقامة نموذج مجسم لخط مانرهايم خلف الخطوط الروسيـة ، وأخذ فى تدريب القوات على اقتحامه ، إلى أن كان يوم أول فبراير عام ١٩٤٠ حيث أصبح تيموشنـكو مستعداً لتوجيه ضربته الحاسمة .

كانت المرحلة التالية من الحرب الفنلندية هى ذلك الضرب بالمدفعية الذى قام به الروس على خط مانرهايم والذى لم يسبق لشدته مثيل . وفى العمليات التـالية بعد ذلك ظهر الجيش الأحمر على حقيقته ، فلم تعد الفرق الروسية تتردى فى الفخاخ التى كان ينصبها لها الفنلنديون ، وابتدأ يظهر تدريجاً أثر التدريب والموارد الهائلة التى يملـكها الروس فيما قامت به قواتهم ، وسرعان ما أخذ الفنلنديون تحت ضغط الهجوم الروسى الـكاسح يتخذون خطة الدفاع خطوة خطوة ، فى حين أخذت القذائف تتساقط على مواقعهم ليل نهار ، مما حرمهم فرصة الراحة أو استجلاب الإمدادات . وقامت فرق المهندسين والمشاة السوفييت مع المعاونة القريبة من المدفعية ، بإزالة الألغام ونسف موانع الدبابات ، فى حين

قامت الدبابات الروسية بسحب المشاة بزحافاتهم المدرعة إلى قلب المعركة. وأخذت الحصون الفنلندية تتداعى الواحد بعد الآخر تحت وابل من القذائف الروسية. ولما كان رجال المدفعية بالجيش الأحمر قد وقفوا على دقائق حصون خط مانرهايم بعد التدريب العملى الذى وضعه لهم تيموشنكو، فقد أمكنهم أن يطلقوا قذائفهم شديدة الانفجار أمام الأوكار المحصنة. ولما كانت الحصون الفنلندية مجردة من ستائر أمامية من الأسمنت المسلح، فقد تداعى الكثير منها فى الحفر التى أحدثتها القنابل.

كان الجيش الأحمر فى ذلك الوقت يعمل كالآلة، فلم تجد الفنلنديين شجاعتهم الفائقة، وعجزت قواتهم الاحتياطية الضئيلة عن التحرك نتيجة للهجمات المركزة التى قام بها الروس فى شمال بحيرة لادوجا، كما عجزوا عن إرسال الإمدادات للنقط الضعيفة. وفى ٢٥ فبراير استولى الجيش الأحمر على كويفيستا، وهى المركز الشرقى لخط مانرهايم. وعندئذ توجه تيموشنكو بهجومه نحو فيبورى، وقام بتقدم جرىء فوق الجليد الذى كان يغطى خليج كرونشتات وتمكن من تطويق الموقع الفنلندى الذى كان فى تلك المنطقة. وفى ٣ مارس ١٩٤٠ وصل الجيش الأحمر إلى مخارج فيبورى وأصبح موقف الفنلنديين فى ذلك الوقت لا يوحى بأى بادرة من الأمل، فقد عجزوا تماماً عن مواجهة القوات الميكانيكية التى دفعها الروس إلى خطوط دفاعهم فاضطروا فى ١٢ مارس إلى قبول الشروط التى وضعها الروس لوقف القتال.

كانت العمليات التى قام بها الجيش الأحمر فى الفترة من أول فبراير

إلى ١٢ مارس عظيمة الأثر ، ولو أن هذا الأثر لم يستطع أن يمحو من أذهان الشعب المهازل التي تردى فيها الروس في المرحلة الأولى من تلك الحرب . هذا وقد كوفىء تيموشنكو على ما قام به في تلك العمليات بمنحه رتبة المارشال ووسام لينين ولقب « بطل الاتحاد السوفيتي » . وقد ظهر مع ستالين في مقصورة هذا الأخير في مسرح بولشوي بموسكو يوم ٧ مايو ١٩٤٠ ، وفي اليوم التالي عين تيموشنكو « قوميسيار الشعب » للدفاع (وزير) وعضواً في مجلس الحرب الأعلى .

كان تيموشنكو وقتذاك في الخامسة والأربعين ، وكان في أوج عنفوانه الجسماني والعقلي ، فهو فارع الطول ممتلىء الجسم مفتول العضلات ذو صوت جهوري حاد . وكان قد حصل على قدر من السلطان والنفوذ يمكنه من تنفيذ الإصلاحات العديدة التي كان يرى ضرورة إدخالها على الجيش . وكان أول نظام يحتاج للإصلاح في نظره هو نظام القوميسيير السياسي . هذا وبالرغم من أن هذا النظام قد انتعش في خلال الحرب الأخيرة مع ألمانيا ، إلا أن الغرض الأول منه في تلك الحالة كان للمحافظة على الروح المعنوية والسيطرة ، وللإشراف على أعمال حرب العصابات ، أكثر مما كان للإشراف على العمليات في صميم الجيش الأحمر . وأخيراً في ٩ أكتوبر ١٩٤٢ تمكن تيموشنكو من إلغاء ذلك بأكمله ، وأمر بتدريب الضباط الذين كانوا يعملون في إداراته المختلفة ليكونوا ضباطاً محاربين ، ووزعوا فعلا على الفرق العاملة . لا سيما وقد كانت السنوات التي قضوها في الخطوط الأمامية

قد جعلت منهم مورداً هاماً لسد حاجة الوحدات من الضباط .

وعندما وجد تيموشنكو أن التدريب الذى حصل عليه الجيش الأحمر قبل الحرب كان ينصب لدرجة كبيرة على الناحية النظرية ولدرجة قليلة على التدريب الميدانى ، قام بوضع برنامج هائل شمل التدريب ابتداء من تدريب المعركة للوحدات الصغيرة إلى القيام بمناورات تشمل أكثر من جيش واحد . ووضع نصب عينيه أن يحقق الظروف الواقعية للحرب ، سواء فى التدريب أو فى المناورات . وكان القانون العسكرى الذى وضعه فى ١٢ أكتوبر عام ١٩٤٠ قد أعاد الألقاب العسكرية والرتب للضباط ، كما أعاد نظام التحية العسكرية ، وشدد تشديداً كبيراً فى العقوبات العسكرية فأصبح للضباط بذلك حق توقيع عقوبة الإعدام على الجنود المتمردين . غير أن تيموشنكو مع ذلك عمل جاهداً على تدعيم العلاقة بين الضباط والجنود على أساس من الصلات الشخصية والتفاهم المتبادل .

وقد هيأت المناورات التى أجريت على نطاق واسع فى خريف عام ١٩٤٠ الفرصة لتيموشنكو لتوضيح الدروس المستخلصة من الحرب الفنلندية . وكانت الملاحظات والانتقادات النفاذة التى أوضحها فى هذا الصدد قد قصد بها إلى عدة أهداف منها :

١ — تنمية الكفاءة فى المعركة لدى الجنود من جميع الرتب .

٢ — تجنب الأخطاء الجسيمة فى نظام الاستطلاع بالجيش الأحمر

٣ — تنمية الكفاءة بالجيش على أساس « الجماعة المشاة » .

٤ ــ استخلص تيموشنكو من العمليات النازية فى الغرب أن جميع أنواع الوحدات، صغيرة كانت أم كبيرة، تضطر للقتال مستقلة بنفسها، بالنسبة للسرعة التى تتصف بها الحروب الحديثة .

٥ ــ تدريب أصغر الوحدات فى الجيش الأحمر على عدم التسليم لمجرد أنها قد عزلت بواسطة القوات الميكانيكية للعدو، بل يجب عليها الاستمرار فى القتال بقصد القيام بحركة التفاف مضادة على وحدات العدو بقدر الإمكان .

٦ ــ إيجاد درجة عالية من المبادأة الشخصية والابتكار لدى الضباط والجنود . وهو يقول فى هذا الصدد :

« إن التفوق فى العدد وحده لا قيمة له إذا لم تتصف القوات بدرجة عالية من المبادأة وقوة الابتكار » . كما أنه كان يقول بصدد الضبط والربط فى الجيش « يجب عليك فى الحرب أن تكون مطيعاً، ولكن يجب أيضاً أن تفكر لنفسك . إن المعارك تكسب عادة بواسطة الرجال الذين يستطيعون الاعتماد على قوة تفكيرهم ويقاتلون إلى آخر رمق على أساس ما توحيه إليه نفوسهم » .

٧ ــ توطيد العلاقة بين الضباط والجنود على أساس من التفاهم والتعاون المتبادل، وقد كان اهتمامه بالجندى يتجلى فى الأنشودة التى كان يتغنى بها الجنود والتى ورد فى بعض مقاطعها « فهو يعامل الجنود كأبنائه » .

هذا وقبل أن تنشب الحرب مع ألمانيا بثلاثة شهور بعث تيموشنكو من زوايا الإهمال ذلك الكتاب الذى وضعه الجنرال فوللر الأخصائى البريطانى الماهر فى الدبابات ، والذى ضمنه سلسلة قوانين خدمة الميدان ، وبحث فيه خواص الحرب الميكانيكية ، وقد جعل منه تيموشنكو نسخة دائمة فى جميع مكتبات الجيش .

هـذا ولم يـكن اهتمام تيموشنكو بتـدريب الجنـدى ورفع روحه المعنوية ليجعله يغفل عن أهمية توفير المهمات الملائمة له فى الحرب . وكانت آراؤه فى حسن تنظيم الوحـدات الصغـيرة تقضى بضرورة توافر كميات هائلة من الأسلحة الأوتوماتيكية بقصد زيادة قوة النيران للمشـاة ، كما أنه شدد فى ضرورة إيجـاد تعـاون أكثر قـرباً بين المشاة والمدفعية .

وقد حذر تيموشنكو بلاده مرتين خـلال عام ١٩٤١ ضد احتمال قيام العـدو بهجوم مفاجىء عليهـا . وعندما دفع هتلر فى ٢٢ يونيـة عام ١٩٤١ بجيوشه صوب الحـدود الروسيـة ، كان تيموشنكو يقود مجموعة الجيوش الوسطى التى تسد الطريق إلى موسكو . ولـكن بالرغم من ضخامة استعدادات الجيش الأحمر وجودتها ، فإن الهجوم الذى شنه الألمان فى ٢٢ يونية قد حقق بعض المفاجأة ، واضطرت الجيوش الروسية إلى تحمل ويلات الانسحاب التدريجى طيلة أشهر عديدة قبل أن تصبح قواتها المعبأة على درجة كـافية لمواجهة قوات النازى . وحتى فى ذلك الوقت ، وكما تدل عليـه الرسـالة التى أبلغهـا ستـالين إلى الجيش فى

٢٣ فبراير ١٩٤٣ ، اقتضى الأمر نحو عامين لكى يتمكن الجيش الأحمر من الحصول على الاستعداد الكافى والقوة الكافية لخوض المعارك الحاسمة .

وبالرغم من اتصال الجيوش الروسية على طول الجبهة الهائلة التى كان يهاجمها الألمان ، فإن المجهود الألمانى الأول فى محاولة تطويق وتدمير جزء كبير من الجيش الأحمر قد حدث فى جبهة الجيوش التى يقودها تيموشنكو . وكان ذلك فى موقعة بيالستوك ـ مينسك (٢٢ يونية إلى ١٨ يوليو) ، وكانت المهمة التى قام بتنفيذها تيموشنكو هى تعطيل الجيوش الألمانية الزاحفة صوب موسكو لمدة ٢٦ يوماً ، وكان تيموشنكو قد أدار عملية دفاعية اشتركت فيها جميع الأسلحة فى نطاق محدود ، ونجحت فى تعطيل الزحف الألمانى ، وكانت النتيجة أنه بدلا من أن يشق الألمان طريقهم نحو موسكو ، لم تؤد معركة بيالستوك ـ مينسك إلا إلى فتح الطريق إلى سمولنسك ، حيث واجهت الجموع النازية القوة الحقيقية للجيش الأحمر لأول مرة .

وفى سمولنسك ظل تيموشنكو لمدة شهرين ونصف يقوم بعمليات دفاعية بجميع الأسلحة فى عمق كبير وعلى نطاق واسع لم يشهد له التاريخ الحربى مثيلا . ولم يؤد اختراق الألمان للخط الذى كان يسمى بخط ستالين فى المرحلة الأولى من العملية ، إلا إلى زيادة عنف القتال وحدّته ، وقد أدت هذه العمليات إلى إيضاح الفرق بين الحرب الروسية الألمانية والحروب الألمانية فى ١٩٣٩ / ١٩٤٠ . فقد كانت الطرق التى

اتبعها تيموشنكو ورئيس هيئة أركان حربه الليفتنانت جنرال فاسيلى سكولوفسكى تتكون من تركيز منظم للرجال والأسلحة على نطاق يفوق تركيزات العدو . ولكى يتمكن تيموشنكو من سحق هذا العدو استخدم موارد الجيش الأحمر بما فى ذلك الدبابات والطائرات والمدفعية الميكانيكية والألغام الأرضية والمشاة الميكانيكية على نطاق واسع ، وكان هذا الإجراء نوعاً من الدفاع الإيجابى تميز باستخدام المدفعية المجمعة ، والقيام بهجمات مضادة عظيمة . وقد سمح لرءوس حراب موجات الدبابات الألمانية باختراق الخطوط الروسية الأمامية ، وعندئذ قام الروس بالهجمات المضادة على وحدات المشاة الألمانية المعاونة ، ثم هوجمت وحدات البانزر الألمانية بالمدافع المضادة للدبابات بعد أن فصل بينهما وبين معاونة المشاة لها ، وكذلك هجم رجال المشاة الروس هجمات فردية بالبنادق المضادة للدبابات وبالقنابل اليدوية وكوكتيل مولوتوف . وكانت هذه المعارك كما وصفها سكولوفسكى « تشابه معركة ڤردان ، وإن كانت عوامل الافناء فيها تفوق معارك ڤردان نحو مائة ضعف » .

وكانت الطريقة التى اتبعها الروس بالقتال فى عمق بالغ قد هيأت للقوات الألمانية تجربة جديدة فى الحروب . وفى ١٥ أغسطس ١٩٤١ كان تيموشنكو قد أجبر الألمان على التخلى عن مجهوداتهم الهجومية الرئيسية فى سمولنسك ؛ وفى الوقت الذى انسحبت فيه قواتهم فى المرحلة التالية لمعركة سمولنسك بقصد تقوية الهجوم النازى فى أوكرانيا ، كان

الجيش الأحمر قد حصل على ميزة المبادأة فى جبهة سمولنسك من ١٥ أغسطس إلى أول أكتوبر .

وفى أوائل سبتمبر قام تيموشنكو بهجوم مفاجىء فى يلنا وتمكن من أخذ ثمانى فرق ألمانية على غرة وسحقهم سحقاً . وبعد أن وصلت الإمدادات للألمان، قام هؤلاء بجهود هائلة للاستيلاء على موسكو والقضاء على الجيش الأحمر فى سلسلة من الهجمات القوية على الجبهة الوسطى . وقد كانت العمليات الضخمة التى قاموا بها تقع على عدة مراحل ابتدأت من أول اكتوبر إلى ٥ ديسمبر . فمن أول أكتوبر إلى ٢٠ منه، كان تيموشنكو يسيطر على العمليات فى الجبهة التى تحت قيادته . وكانت الهجمات الألمانية فى تلك المرحلة أقوى ما شهدته الحروب فى التاريخ سواء من جهة جموع الدبابات والمدافع والطائرات أو الجنود . وقد اضطرت جيوش تيموشنكو إلى إخلاء بعض الأرض أمام هذا الهجوم الساحق، وسقطت المدن الواحدة بعد الأخرى تحت ضغط قوات المارشال بوك، واعترفت القيادة الروسية بخطورة الموقف . وقد ادّعت البلاغات الألمانية عندئذ، وهى الصادرة فى ١٨ أكتوبر، أن الألمان أفنوا جيوش تيموشنكو الثمانية وأسروا ٦٤٠,٠٠٠ رجل منها . ولكن هذا الادعاء كان سابقاً لأوانه، إذ أن هذه الجيوش الثمانية هى التى استخدمها زوكوف كرأس حربة فى هجومه المضاد الناجح الذى قام به فى ٧ ديسمبر .

ولكن تيموشنكو لم يشترك فى صد الهجوم الألمانى الأخير على موسكو، وهو الهجوم الذى حدث فى أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر،

حيث أن ستالين ، بما عرف عنه من بعد النظر والمقدرة على الحكم على الرجال ، قد عين تيموشنكو بدلا من بوديني فى الجبهة الجنوبية فى ٢٤ أكتوبر ، وحل محله فى قيادة الجبهة الوسطى الجنرال زوكوف الذى سرعان ما ظهرت مهارته فى إتمام الهجوم المضاد العظيم .

وإذا انتقلنا الآن إلى الجبهة الجنوبية لمتابعة أعمال تيموشنكو ، نجد أن الجيش الأحمر هناك قد أثبت وجوده بالهجوم المضاد الذى قام به على خطوط الألمان الممتدة شمالى روستوف . وفى نوفمبر ٢٩ عام ١٩٤١ اهتز العالم الخارجى لخبر استعادة الجيش الأحمر لمدينة روستوف ، وكانت هذه أول مدينة هامة يستعيدها الحلفاء من ألمانيا منذ ١٩٣٩ . وقد أدى هذا الحادث إلى إبراز اسم تيموشنكو فى الصفوف الأولى بين أسماء مشاهير القادة فى ذلك الوقت .

والواقع أن الموقف كما تسلمه تيموشنكو من بوديني فى الجبهة الجنوبية كان جد خطير ، ومع ذلك فبعد مضى ثلاثة أسابيع من توليته القيادة ، كان قد وضع الخطط للقيام بالهجوم المضاد . وفى ٧ نوفمبر قام جيش الجنرال شوودر الألمانى بهجوم خداعى فى منطقة الدونتز ، ولما كانت هذه الحركة قد أدت إلى سحب قوات الألمان الاحتياطية نحو الشمال ، فقد قام الجيش الأحمر التاسع بقيادة الجنرال رميسوف بعبور نهر الدون فى أواخر نوفمبر ، وهاجم روستوف من الجنوب ، وفى نفس الوقت قام الجيش ٥٦ الروسى بقيادة الجنرال كاريتونوف بقطع خطوط المارشال كلايست من الشمال . وبتأثير هاتين الضربتين

اضطر الجيش الألمانى فى الجنوب إلى الارتداد صوب ماريوبول فى ٢٩ نوفمبر ، تاركاً روستوف فى قبضة تيموشنكو . وفى ٣٠ ديسمبر قام الروس بهجوم مفاجىء عبر مضيق كيرش ، واستولوا من الألمان على رأس كوبرى هناك . وبذلك انتهى عام ١٩٤١ بانتصارين عظيمين لتيموشنكو ، بعد أن ظلت القوات فى الجبهة الجنوبية تتلقى الضربة تلو الضربة زهاء ستة شهور .

وقد أدى الدفاع المجيد عن لينتجراد وموسكو ، وصد الألمان فى الجنوب ، وكذلك الهجمات الروسية الشتوية ، إلى إحباط خطط الألمان للقضاء على القوة الحربية لروسيا قبل حلول الشتاء ، واكتسب الروس بذلك الوقت اللازم لاستغلال مواردهم للكفاح العنيف الذى ينتظرهم . هذا وبالرغم من أن الهجمات الروسية المضادة فى عامى ١٩٤١ و ١٩٤٢ لم تؤد إلى تحرير أى مواقع استراتيجية هامة ، أو تقف حجر عثرة فى سبيل احتفاظ الألمان بالمدن الهامة ، إلا أن الشتاء الفاصل بين هذين العامين كان خطراً عظيماً يهدد بزيادة المتاعب التى كانت الجيوش الألمانية تقاسيها فى الجبهة الشرقية . وبالرغم من أن الألمان قد تحملوا هذه المتاعب ، إلا أنهم لم يتمكنوا بعد ذلك من توجيه الضربات المتفوقة التى كانوا يكيلونها للروس فى بداية الحملة ، أى فى يونية عام ١٩٤١ . ولعل فى مظاهر الارتياح التى تجلت فى أقوال الزعماء الألمان لحلول فصل الربيع ، أكبر دليل على ما كانوا يقاسونه خلال تلك الفترة .

كان عام ١٩٤٢ ذا أهمية عظمى لجميع الدول المشتركة فى الحرب ،

وكان يعتبر العام الفاصل فى مسرح الحرب فى أوروبا . وقد كانت جميع الدلائل تدل على استئناف المحور لعملياته الهجومية على روسيا ، فى حين كان الجيش الأحمر قد أوقف الاندفاع الأولى لعجلة الحرب الألمانية ، وكان عليه بعد ذلك أن يستمر فى سياسته التى ترمى إلى إضعاف الألمان بطريقة منظمة تمهيداً للهجوم النهائى العظيم الذى كان جزءاً من الخطة العامة للدول المتحدة .

وفى أوائل عام ١٩٤٢ كانت القوات المتضادة فى الجبهة الشرقية قد وصلت إلى حد التوازن ، وذلك عندما تبين أن الألمان لم تعد لديهم القوة الكافية للقيام بالهجوم على أكثر من جبهة واحدة . وبعد أن كان الهدف الأساسى للألمان هو سحق العدو ، اقتصرت أهدافهم عندئذ على مجرد الحصول على الأرض . وقد تنبأ تيموشنكو بأن الجبهة الجنوبية ستكون المسرح الرئيسى للعمليات فى عام ١٩٤٢ ، وعلى ذلك شرع فى تأخير الهجوم الألمانى ومحاولة تحويل القوات الألمانية من شبه جزيرة القرم ، بأن قام فى شهر مايو بهجوم كبير على مواجهة ١٠٠ ميل تمتد من فولشانسك إلى كرازنوجراد ، وكان غرضه من ذلك استعادة خركوف . وقد استمر هذا الهجوم بشدة طيلة الفترة من ١٢ مايو إلى ٣٠ منه . ولكن الروس لم يتمكنوا من استعادة المدينة أو منع الألمان من الاستمرار فى استعداداتهم فى القرم . وفى ٢٣ مايو استولى الألمان على كرش . وفى الفترة من ٧ يونية إلى أول يوليو قام الجنرال مانشتاين بهجوم عنيف على سباستبول ،

فسقطت المدينة بعد دفاع مجيد أثبت أن بها رجالا يدافعون حتى الرمق الأخير . وفى الوقت نفسه كان النجاح الذى حصل عليه تيموشنكو جنوبى خركوف قد أفسد هجوماً آخر قام به الألمان فى تلك المنطقة ابتداء من يوم ١٠ يونية ، وأدى إلى وصولهم إلى الضفة الشرقية لنهر أوسكول فى يوم ٢٨ يونية . غير أن الهجوم الذى قام به تيموشنكو فى شهر مايو أدى إلى إطالة فترة الدفاع عن سباستبول ، وبالتالى إلى تأخير الجدول الزمنى الذى وضعه الألمان ، كما أنه ساعد فى ذلك الدفاع المجيد الذى قام به الروس فى ستالينجراد .

وعندما بدأ الهجوم الرئيسى للألمان ، كان هذا عبارة عن هجوماً مزدوجاً قصدوا به الوصول إلى القوقاز وقطع المواصلات الروسية على الفولجا عند ستالينجراد . وقد كسب الألمان كثيراً ، ولكن محاولاتهم المتكررة للاستيلاء على فورونيز فشلت نهائياً فى ٢٠ يوليو ، حيث توقفوا واضطرت جموعهم للانحراف نحو الجنوب . وبالرغم من أن فشلهم فى الاستيلاء على تلك المدينة لم يلفت إليه الرأى العام فى ذلك الوقت بسبب النجاح المستمر الذى كانوا يلاقونه فى الجنوب ، إلا أنه كان فى الواقع مرحلة حاسمة من مراحل الحرب خلال عام ١٩٤٢ . وقد كان هذا الفشل سبباً فى تعريض الجيوش الألمانية فى الجنوب إلى الهجمات الروسية المضادة التى تلت انتصارهم فى ستالينجراد . وعلى ذلك فإن دفاع تيموشنكو المجيد عن فورونيز ، والمعركة الدفاعية الكبيرة التى قام بها عند انثناء نهر الدون ، قد مهدتا لانهزام الألمان فى روسيا فى شتاء ٤٢ / ١٩٤٣ .

وإلى جنوب تلك المنطقة كانت جيوش المارشال مانشتاين لاتزال مندفعة إلى الأمام ، فسقطت روستوف ونوفوشركاسك في ٢٨ يوليو ، وعندئذ تفرع الهجوم الألماني إلى اتجاهين ، اتجه أحدهما نحو القوقاز والآخر نحو ستالينجراد ، ولاقى كل منهما نجاحاً كبيراً ، فسقطت كرازنودور في ٢٠ أغسطس ، وموزدوك في ٢٦ منه ، ونوفورسسك في ١٢ سبتمبر .

وقد أدى هذا التداعي الظاهري للمقاومة الروسية في تلك المنطقة إلى أن اعتقد البعض أن فشل الروس في الدفاع عن روستوف ونوفرشركاسك حتى آخر رجل ، كان سبباً في نقل تيموشنكو إلى الجبهة الوسطى في أغسطس . وقد علّق مستر تشرشل على هذا الاعتقاد بقوله في مجلس العموم في ٢١ سبتمبر ١٩٤٣ ، أنه عندما زار موسكو في الفترة من ٦ إلى ١٢ أغسطس ، أكد له ستالين أن ستالينجراد ستكون خط الدفاع الرئيسي ، وأن الروس سيحافظون عليها ، وأن الخطط كان يجري وضعها للقضاء على الجيش الألماني السادس . فضلا عن ذلك فقد قرر بعض المراقبين أن انتصار ستالينجراد إنما يعود الفضل فيه إلى الطريقة الباهرة التي اتبعها تيموشنكو في التقهقر أثناء الأسابيع الأولى للغزو الألماني ، محتفظاً بذلك برجاله وعتاده للمعارك القادمة .

وقد بدأت معركة ستالينجراد في أواخر أغسطس وظلت مستعرة خلال سبتمبر وأكتوبر . وكان الجيش الألماني السادس ، بقيادة الجنرال باولوس ، تساعده القوات الرومانية والبلغارية ، قد عهد إليه بالاستيلاء على مفتاح الطريق إلى نهر الفولجا . وقد احتد القتال لدرجة كبيرة على

جبهة واسعة ، وكانت منطقة ستالينجراد لا تتمتع بالميزات التى كانت متوافرة للمدافعين فى منطقة موسكو فى عام ١٩٤١ ، فإن المواصلات الحديدية قد قطعها الألمان ، وكانت التموينات الروسية تضطر إلى عبور نهر الڤولجا تحت وابل من نيران الألمان . وفيما عدا المواقع الدفاعية التى بنيت حول المدينة ، فإن الدفاع عنها قام على أكتاف رجال الجيش الأحمر والسكان ، وما أبداه الجميع من شجاعة فائقة وعزم أكيد ، مما أدى إلى تعطيل وصول الألمان إلى حدود المدينة الخارجة حتى ١٢ سبتمبر ، حيث وصلت وحدات ألمانية إلى نهر الڤولجا شمال وجنوب المدينة .

وهنا دار القتال على أشده فى الشوارع ، وكانت المدفعية الروسية قد جعلت لكل نجاح أحرزه الألمان ثمناً باهظاً ، فى حين كانت الأكوام المتراصة من مخلفات هدم المنازل والتى سدّت بها الشوارع قد منعت المدرعات الألمانية من العمل ، وبدأت عبارات الغيظ تستشف من ثنايا البلاغات الألمانية ، حتى كان يوم ٣٠ سبتمبر عندما أكد هتلر للشعب الألمانى أن ستالينجراد ستسقط . ولكن هذا العهد لم يتحقق ، فإن الهجمات الروسية المضادة بدأت تكتسب قوة ، حتى أن القيادة الألمانية العليا أعلنت فى ٨ أكتوبر ١٩٤٢ ، أن الألمان قد حققوا جميع أغراضهم فى ستالينجراد . ولكن المدينة لم تسقط ، وسرعان ما قام الروس بهجوم مضاد قوى أدى إلى الإيقاع بالجيش الألمانى السادس ثم تحطيمه .

وكما حدث فى موسكو عام ١٩٤٢ ، لم يشترك تيموشنكو فى الدفاع الأخير فى ستالينجراد . فإن القتال فى الشوارع والمساكن كان يقوده

الليفتنانت جنرال ڤاسيلى شويكوف ، فى حين كان الهجوم المضاد الذى قام به الروس شمال وجنوب المدينة يقوده الجنرالات : زوكوف ، وڤاسيلفسكى ، وفورونوف ، وروكوسفسكى . وقد تدخل ستالين مرة ثانية فى المرحلة الحرجة من القتال ، فقام بتغيير القواد ونقل تيموشنكو إلى جبهة أوريل — لينتجراد .

وفى تلك الأثناء كان الهجوم الروسى جنوبى ڤورونيز ، وهو الهجوم الذى بدأ فى ٦ يناير ، قد دفع بالجيوش النازية إلى الخلف حتى الخط الذى كانوا عليه فى ربيع عام ١٩٤٢ ، وكان التقدم الروسى المستمر فى الجنوب قد واصله تيموشنكو بقيامه بالهجوم بمجموعة جيوشه بالقرب من بحيرة « ألمن » فى أول مارس عام ١٩٤٣ . وكان ذلك مما يدل على أن نقل تيموشنكو من الجبهة الجنوبية كان جزءاً من البرنامج الذى وضعه ستالين لاستخدام قواد الجيش فى الأماكن التى كان يرى أنهم كفيلون فيها بإنقاذ روسيا .

وعندما أعلن الروس بدء هجوم الربيع ، كانت العمليات فى الجبهتين الوسطى والشمالية قد اتسعت رقعتها ، وذلك عندما سقطت روزيف فى ٣ مارس وهدد تيموشنكو بتقدمه مدينة ستارايا روسا .

ظهر التحول التام فى الموقف فى الجبهة الروسية فى صيف ١٩٤٣ عندما قام الجيش الأحمر بالهجوم فى أوريل فى منتصف شهر يوليو ، وذلك بعد هجوم سابق لأوانه قام به الألمان على جبهة بلجورود — كورسك . ولم يظهر الدور الذى لعبه تيموشنكو فى العمليات التى تمت

فى صيف وخريف ١٩٤٣ حتى يوم ٩ أكتوبر ، عندما منح وسام سوفوروف نظير قيامه بطرد الألمان من رأس كوبريهم فى القوقاز فى شبه جزيرة تامان. وقد تبين من ذلك أن تيموشنكو لم يعد يقوم بدور رئيسى فى الإدارة العليا للحرب ، وإن كان اختيار ستالين لقواد آخرين لقيادة هذه المرحلة لا يسيء بأى حال من الأحوال إلى سمعة الرجال الذين قادوا المرحلة الدفاعية الأولى بنجاح تام ، كما أنه يدل دلالة واضحة على أن الجيش الأحمر كان قد بدأ مرحلة جديدة من مراحل كفاحه ، قصد بها أن يتمكن من مقابلة العدو فى أى جو من الأجواء ، وفى أى فصل من فصول العام . وإن السهولة النسبية التى أوقف بها هذا الجيش الهجوم الوحيد الذى استطاع الألمان شنه فى يوليو ١٩٤٣ فى كورسك ، ثم تحول بعدئذ إلى هجوم مستمر أوصله إلى الدينيبر فى أواخر سبتمبر ، لتدل أيضاً على هذا التطور الذى لحق بالجيش الأحمر . وكان القواد الجدد لهذا الجيش مجموعة من القائمقامات وأمراء الآلايات لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والأربعين ، ولم يكونوا معروفين فى روسيا قبل ذلك بثلاث سنوات . ومن هؤلاء بولدين ، ودوناتر ، وكونيف ، وجوفوروف ، وكوزنتسوف ، ومالينفسكى ، وبجراميان ، وتولبوخين ، وتشيكوف ، وروكوسفسكى ، وجوليكوف ، وتولينوف . وقد عهد المارشال ستالين بالقيادات العليا إلى بعض المارشالات الشبان أمثال فسيلفسكى (رئيس هيئة أركان الحرب) ورزوكوف (نائب القومسير للدفاع) ونوفيكوف (للطيران) وفورنوف

(المدفعية) ، وهؤلاء جميعاً من أنصار حرب المعدات ، وقد أظهروا كفاءتهم فى القيام بالعمليات الهجومية المستمرة على جبهة طولها ٧٠٠ ميل فى صيف وخريف عام ١٩٤٣ .

ومن الدلائل على أن الجيش الأحمر قد وصل إلى مرحلة جديدة فى تطوره ، ما ذكره ستالين فى خطابه الذى ألقاه فى ٢٣ فبراير ١٩٤٣ لمناسبة الذكرى السنوية لإنشاء الجيش الأحمر ، إذ قال « إن هذا الجيش قد احتاج إلى عامين طويلين لتدريبه وإصلاحه والسيطرة عليه . وقد أصبح الآن مساوياً إن لم يكن متفوقاً على الجيش الألمانى فى جميع مراحل الحرب » .

وقد كانت المظاهر الخارجية للتغيير الذى لحق بالجيش الأحمر ، تتلخص فى التعليمات التى وضعت لتحديد الزى الرسمى للجنود ، والعلامات المميزة للوحدات ، وكذلك فى إنشاء « الوحدات المختارة » . ولا يفوتنا أن نذكر من ضمن الخطوات الأخرى التى قطعها الجيش الأحمر فى سبيل هذا التطور ، إنشاء مدرسة « سوڤوروف العسكرية » .

هذا وقد كانت أهم ظاهرة فى الإدارة السوفيتية للحرب هى رفضهم التحول عن تلك السياسة والخطط الاستراتيجية طويلة الأمد التى وضعت أصلا لمواجهة حرب طويلة الأمد مع ألمانيا .

أما وقد انتهت المراحل الدفاعية فى الحرب مع ألمانيا بنجاح ، فقد أصبح من البديهى أن يختفى رجل مثل تيموشنكو ليفسح المجال لغيره من الضباط الأحداث ليظهروا مواهبهم فى المرحلة الجديدة من الحرب .

ومع ذلك فكل الدلائل تدل على أن الكرملين ، وكذلك الشعب الروسى ، لم ينسيا الدور الذى قام به تيموشنكو فى إنقاذ البلاد من براثن الألمان فى الأيام الأولى من الحرب ، وقد صرح ستالين فى إحدى المناسبات لبعض رجال الصحافة الأمريكيين مشيراً إلى تيموشنكو بقوله : « إنه چورج واشنجتون روسيا » ، وإن كان الوصف الشائع فى روسيا فى نهاية الحرب ، والذى عرف به تيموشنكو ، هو لقب « المنتقم » ، كما قيل عنه أنه « الشيطان الذى كان يدمر خطط هتلر » .

القائد الذى اشتهر بين رجاله باسم نابليون



« الفيلد مارشال روميل »

روميل

كانت المفاجأة والخديعة من الاعتبارات التى تغلب على كل خطة وضعها هذا القائد . ولعل ذلك هو سبب تسميته بالذئب ، وقد كان روميل ذئب الصحراء الغربية فعلا ، ولن نجد قائداً يكتنف الغموض حياته وأعماله كما اكتنف حياة روميل وأعماله .

كان يستخدم مدافع الماكينة والقنابل اليدوية بنفس المهارة التى عرفت عنه فى استخدام المدفع ٨٨ مم فى معركة غزالة — بير حكيم ، ولكنه كان شجاعاً لم يعرف لجرأته وشجاعته مثيل من قبل ، حتى ليأخذ عليه الكثيرون كثرة ما عرض نفسه للأخطار بتنقله فى خط النار .

وكان « مونتى » هو الوحيد الذى استطاع بذكائه أن يهزمه ، عندما اكتشف أن خططه الحربية تسير على وتيرة واحدة ، ومع ذلك فقد كان حقاً ما نعتته به إدارة الحرب الألمانية من أنه كان أقدر قواد ألمانيا العسكريين .

وإننا إذ نقص الآن سيرة هذا الرجل ، فإنما نقص سيرة رجل لمع كالنجم وسط الظلام ، ولم يلبث حتى اختفى قبل أن يبزغ الصبح . بدأت الحرب وبدأ روميل فى الظهور ، وكلما دارت عجلتها دوّى اسمه ، حتى أنه لما بلغت الحرب الأخيرة ذروتها ، كان روميل قد أصبح أشهر

من أنجبتهم من القواد ، ولكنها ما كادت توشك على النهاية حتى اختفى اسمه من عالم الوجود ، وإن كان سيظل خالداً فى صفحات التاريخ ، ما خلدت معارك الصحراء الغربية .

إن من يتتبع أخبار ألمانيا خلال الأعوام العشرين الأخيرة ليلمح ظاهرة عجيبة تنفرد بها ألمانيا عن أمم العالم . ذلك أنه لم يبرز فيها اسم قائد واحد من قواد الجيش . وألمانيا أمة عسكرية لم تخل أبداً من قائد مدوى الاسم تعم شهرته أرجاء الرائخ . ومنذ مات هندنبرج بقى مكانه شاغراً لا يجد من يملأه . ولعلنا نستطيع أن نتلمس لهذه الظاهرة سبباً فى النظام السياسى الذى هيمن على مصائر هذه الأمة الحربية المجيدة ، ذلك هو نظام النازى الذى لم يكن يسمح قط لإنسان أن يظهر أو يتألق اسمه فى سماء ألمانيا ، خشية أن يحجب اسمه شخصية الزعيم الأكبر .

إن هذه الحقيقة لتفسر لنا السبب فى بقاء روميل مغموراً حتى فبراير عام ١٩٤١ عندما ألقى مراسيه على سواحل ليبيا . لقد حل بها ليساعد القائد الإيطالى جرازيانى ، ولكن لم ينقض زمن طويل حتى بزغ نوره على أرجاء الصحراء ، وطبقت شهرته أرجاء العالم ، وأصبح بحق أشهر قواد ألمانيا ، واعتبره الانجليز فى عام ١٩٤٢ أقدر من أنجبتهم الحرب من القواد .

ولد روميل فى هيدنهيم ويرتنبرج فى ١٥ نوفبر عام ١٨٩١ وعمّد باسم « ايرون جوهانز روميل » . ويبدو أنه ولد من أبوين متوسطى

الحال ، وقد تضاربت الأقوال حول حرفة والده ، فمن قائل أنه كان بناء أو حداداً أو معلماً للحساب أو جزاراً أو أستاذاً بجامعة ميونخ .

وقد تهكم أحد اللوردات الإنجليز فى عام ١٩٤٢ فقال « لو أن روميل كان بالجيش البريطانى لما تعدى رتبة الجاويش » ، فظن الناس خطأ وقتئذ أن روميل قد ارتقى من الصفوف . وقد يكون سر هذا التهكم والسخرية أن أعمال هذا القائد لم ترق فى نظر اللورد ، أو أنه اعتقد بأن مثل هذه الشخصية والقدرة والعزيمة ليست سوى موانع تحول دون الترقى فى صفوف الجيش البريطانى لرتبة أكثر من رتبة الجاويش !! ...

والواقع أن روميل دخل الجيش الألمانى برتبة ضابط فى عام ١٩١٠ فى الآلاى ١٢٤ ، وهذه الحقيقة فى حد ذاتها تبرهن أيضاً على أنه كان من عائلة من مستوى فوق المتوسط .

وكان روميل عند بداية الحرب العظمى الأول برتبة الملازم الثانى ، وحارب فى صفوف الجيش الألمانى فى الميدان الغربى ، وجرح فى شمال فرنسا عندما كان أركان حرب كتيبته فى معركة أرجون عام ١٩١٥ . ونقل بعد ذلك إلى كتيبة ورتنبرج الجبلية واشترك فى معارك كربتيان فى الجبهة الإيطالية . وقد قاسى الأهوال فى الحرب أمام الفرنسيين ولكنه كان أسعد حظاً أمام من هم أقل منهم قدرة على القتال ، أمثال الإيطاليين والرومانيين .

وقد ذكر اسمه فى معركة ايرونز فى عام ١٩١٧ عندما تمكن جنوده ،

فى سلسلة من المعارك المتوالية من أن يهزموا خمسة آلايات إيطالية فى ٤٨ ساعة وأسروا منهم ١٥٠ ضابطاً وتسعة آلاف رجل . وكانت هذه الغزوات سبباً فى منحه وسام الاستحقاق ، ولم تمض على ذلك بضعة أيام حتى أوشك أن يقع فى الأسر ولكنه نجا بأعجوبة . وفى عام ١٩١٨ رقى إلى رتبة الكابتن وعمل كمساعد أركان حرب بفرنسا حتى نهاية الحرب .

أما أعمال روميل كقائد وحدة صغيرة ما بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ فتدل على أنه قائد ذو قدرة على المبادأة والالتفاف ، وذو مقدرة عجيبة على استخدام الأرض ، وقد درب رجاله على استعمالها حيثما اضطروا إلى الوقوف ، كما أنه لم يكن يكل من الاستكشاف . ويعزى الفضل فى نجاحه فى جميع أدوار حياته إلى أنه كان دائماً يعلم عن العدو أكثر مما يعلمه العدو عنه . وكان يتناقل المعلومات مع رؤسائه ومرءوسيه وحتى مع ضباط الصف أحيانا .

وكانت المفاجأة والخديعة عاملين لا يفارقان نظره عند وضعه أى خطة أو القيام بأى حركة . وكان يجتهد فى إخفاء نواياه الحقيقية عن العدو ، بينما يتحسس نقط الضعف فى خطوطه ويبنى خطته على أساس استغلال هذا الضعف ، ويضع خطة النيران بمنتهى الإحكام .

وكان روميل وهو فى الخطوط الأمامية لا يكترث للأوامر التى تصل إليه من الخلف ، بل ويخالفها أحياناً ، مادام لديه من المعلومات ما هو أدق مما لدى القيادة التى فى الصفوف الخلفية .

ويلوح أنه وهب حاسة سادسة ترشده إلى اللحظة التى تتصدع فيها نفسية العدو فينتهزها بمهاجمته بكافة القوات التى تحت تصرفه . وهو لا يضيع لحظة تمكن العدو من الإفلات ، بل ولطالما دفع برجاله داخل غلالات النيران ليكسب الوقت . ومن طريف ما يروى عنه أنه فى يناير عام ١٩١٧ خدع فصيلة رومانية وألجأها إلى التسليم وذلك بأن أوهم قائدها أن الحرب قد انتهت . وقد أعاد هذه الخدعة مع الطليان فيما بعد بنفس النجاح ؛ بل لقد حدث عام ١٩٤١ أن أعلن على جنوده نبأ سقوط موسكو (ولم تكن قد سقطت فعلا) لكى يقوّى عزائم رجاله أمام هجوم الجنرال ريتشى .

وحياة روميل منذ نهاية الحرب الأولى يكتنفها الكثير من الغموض ، وإن كان اسمه قد ظهر فى سجلات الجيش برتبة كابتن منذ عام ١٩٢٠ . وتشاع عنه فى هذا الصدد عدة روايات ، منها أنه ترك خدمة الجيش بعد الحرب مباشرة والتحق بجامعة توبنجن للتخصص فى مشاكل أفريقيا ؛ كما يشاع عنه أيضاً أنه كان أول المنضمين إلى حزب النازى ، واشتغل قائداً لإحدى فرق الهجوم فى ورتنبرج ، ثم حارساً خاصاً للفوهرر ، ويقال أنه اعتاد وقتئذ أن يرقد أمام مدخل مخدع الفوهرر فداس عليه « هيدريش » يوماً فى الظلام فكسر له ضلعين من ضلوعه . ولكن كل هذه الروايات تفتقر إلى سند قوى ؛ فليس هناك دليل قاطع على أنه كان من رجال النازى ، بل بالعكس كان هناك الكثير من الألمان الذين يعتقدون فيه أنه الرجل الذى سيستطيع يوماً أن يقود الجيش الألمانى كله أو بعضه ضد هتلر . . .

وهذه الحقيقة تلقى ضوءاً على مدى علاقة روميل بالحزب النازى ، ولقد وصفه بعضهم بأنه كان يبدو نازياً متطرفاً ولـكن فقط عند ما يكون جيشه فى مأزق أو فى حالة انسحاب .

والواقع أن روميـل ظل ما بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٢٥ يعمل كأركان حرب الكتيبة الأولى من الآلاى ١٣ المشاة برتبة كابتن .

وعندما تولى هتلر الحكم فى عام ١٩٣٣ كان روميل برتبة الصاغ يدرس تكتيك المشاة فى أكاديمية درسدن الحربية . وفى عام ١٩٣٥ وضع كتاباً صغيراً عن تعليم البلاتون والسرية ، كما وضع فى عام ١٩٣٧ وهو برتبة البكباشى كتاباً آخر استودعه تجاربه التى مرت به وهو فى كتيبة ويتنبرج الجبليـة ، وكلا الكتابين وضعا على الأسس التى كانت مستعملة فى الحرب العظمى الأولى ، ولم يلقيا وقتئذ تأييداً كبيراً ، وقدما فى ألمانيا وأمريكا بكل اختصار بل وبعدم اكتراث فى الأوساط العسكرية . ولـكن لما علا شأن روميل فى عام ١٩٤١ بعثت هذه الكتب وأعيدت دراستها وتكرر طبعها اثنى عشرة مرة كانت آخرتها فى عام ١٩٤٢ تحت اسم « هجوم المشاة » ، ولو قدر لقواد الحلفاء الاطلاع على هذه الكتب من قبل لـكان لهم شأن آخر مع روميل .

والواقع أنه لم يستطع أحد من القواد أن يخترق حجب الخيال التى كانت تحيط بروميـل سوى الجنرال مونتجمرى الذى استطاع بذكائه أن يتبين أكبر نقط الضعف فيه ، وهو أنه كان يسير فى وضع خططه

التكتيكية على وتيرة واحدة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ظل روميل حتى عام ١٩٤٠ ، عندما عين قائداً للفرقة السابعة البانزر ، مشهوراً بأنه خبير فى المشاة ، ولم تكن له أية خبرة بالقوات الميكانيكية إلا ما كان نتيجة اتصاله بفيلق النقل الميكانيكى .

وكان أول اتصال مباشر له بالحركات الحربية الواسعة النطاق عندما أسندت إليه قيادة مركز رئاسة هتلر الخاصة أثناء الزحف على ڤيينا وبراغ ووارسو .

وأثناء تلك الحملة برزت اسماء خمسة من القواد الألمان العظام ، وذكرت بالفخر أسماء بلاسكوبتز ، وليست ، وكلوك ، ودكوهلر ، ولكن اسم روميل لم يكن وقتئذ ضمن من ذكروا .

تعين روميل بعد ذلك قائداً للفرقة السابعة البانزر ، وبدأ نجمه منذ تلك الساعة فى الصعود ، إذ كانت هذه الفرقة أول من اخترق الأردن وعبر الموز ووصل إلى البحر عند آب ڤيل ؛ فاعتبر روميل لذلك من أنجح قواد الفرق المدرعة ، ورقى إلى رتبة لواء ، وأنعم عليه بوسام الصليب الحديدى .

ولم يكن انتصار الألمان الرائع ودخول زعيمهم هتلر ظافراً مظفراً عاصمة الفرنسيين يقلل من قيمة مغامرات روميل عند الألمان ؛ فقد سرت قصص مغامراته بين الشعب حتى عمت جميع الرائخ .

وقد كتب أحد الضباط الألمان يصف عبور الموز فى إحدى النشرات الدورية فى التعليق على الموقف ، وفيها يقول « فى وسط

الجحيم المتقد وفى حالة من اليأس المميت ظهر وجه الجنرال روميل فجأة ؛ يركض تارة ويزحف أخرى وسط الأعشاب ، حتى وصل إلى قنطرة بناها المهندسون تحت جنح الظلام ، ولم تستطع القوات بعد ذلك عبورها ، وعجزوا عن متابعة التقدم . فلم يرعه هذا الموقف ، ويبدو أنه من الذين لا يعترفون بوجود المستحيل ، فقال : « إلىّ بالدبابات » ، وتحت ستار من الدخان انتشرت الدبابات فى مواقع خلف النهر ، وبدأ روميل فى استخدامها كمدفعية . فتمكن بهذا التجمع من النيران من تدمير مدافع ماكينة العدو تدميراً كاملا وهى التى كانت قد أوقفت الهجوم » .

ويشاع أنه خطب عند توليته قيادة الفرقة السابعة البانزر فقال « أيها السادة ، لا تظنوا أننى معتوه . . اعتمدوا علىّ . فلا شىء على اليسار ولا شىء على اليمين ، ولا شىء فى الخلف ، وروميل فى الأمام » .

وسواء كان هذا من قوله أو من قول أحد من سبقوه من القواد الألمان ، فقد كانت مثل هذه الروايات التى ترددها الجرائد والمجلات الألمانية سبباً فى إذاعة شهرة روميل بين الألمان . والواقع أن الجرائد راحت تردد قصصه ومغامراته حتى لقد قيل إنه غرر بهجوم كبير للدبابات قام به الفرنسيون يوماً تحت ستر الضباب بأن جعل يطلق عليهم طلقات مضيئة من طبنجات الإشارة فأوهمهم بذلك أنهم أمام تجمعات من المدافع المضادة للدبابات .

وفى عام ١٩٤١ وضع روميل على رأس الفيالق الأفريقية وهى نخبة من القوات دربت تدريباً خاصاً على غزو الصحراء الليبية الأفريقية .

ويقال إن روميل درس جغرافية شمال أفريقية دراسة دقيقة وساح فيها ، وإنه ألقى محاضرة فى الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة فى عام ١٩٣٦ عن أراضى الصحراء الغربية . ولكن كل هذه الروايات تفتقر إلى الدليل .

بدأ روميل نشاطه فى أفريقية منذ ١٢ فبراير سنة ١٩٤١ واستمر حتى أواخر سبتمبر سنة ١٩٤٢ . أما اسمه فقد بدأ فى الذيوع فى العالم الخارجى منذ ٣١ مارس ، عندما فاجأت طلائع فرق البانزر والفرق الخفيفة الميكانيكية القوات الأمامية لجيش الجنرال ويفل عند العجيلة ، وكان الألمان حتى ذلك الوقت يتظاهرون بأن القيادة كانت معقودة لجرازيانى ولكن لم تلبث أن انتهت هذه المجاملة للكرامة الإيطالية وتولى روميل القيادة الفعلية لقوات المحور فى شمال أفريقيا .

كانت قوات الجنرال ويفل فى ذلك الوقت آخذة فى النقصان ، فقد أرسل جزء منها إلى اليونان كما أرسل بعضها إلى أفريقيا الإيطالية فعانت القوات القليلة الباقية هجوم روميل واضطرت للانسحاب .

كان هذا الهجوم سريعاً خاطفاً ، فقد اندفعت فصائل من راكبى الموتوسيكلات والسيارات المدرعة إلى قلب المواقع البريطانية ، كما جعلت تعبث بخطوط مواصلاتهم وتوقع الارتباك فى صفوفهم ، وقد تمكنت إحدى هذه الفصائل من أسر الجنرال نيم ، والجنرال أوكنر ، فكانت هذه من أشد الضربات التى أصابت الجنرال ويفل ، لأن الجنرال أوكنر كان أحد أبطال المعارك المعدودين فى الجيش البريطانى .

انسحب البريطانيون إلى خط السلوم ــ الحلفاية ، تاركين حامية

فى طبرق ، فحاصرها روميل فى الحال ولكن حاميتها ظلت تدافع عنها بكل صلابة حتى تمكن الجيش البريطانى من إنقاذها فى الخريف التالى .

وتجلت شخصية روميل الفذة خلال تلك المعارك ، حتى جعلت جرائد العالم تتحدث عن قصصه وضروب بسالته . والواقع أنه ظل طوال هذه الأيام متوقداً ، لا ينفك يصدر التعليمات من برج سيارته ، وينتقل من مكان إلى آخر بأقصى سرعة وفى نشاط لا حد له . وكثيراً ما كان يترك السيارة ليمتطى إحدى طائرات الاستكشاف ليرقب جبهة القتال عن كثب .

وبالرغم من أنه كان سريع الغضب كثير التشاحن مع مرءوسيه ، إلا أن أعماله المجيدة كانت تحببه إلى نفوس جميع رجال الفيالق الأفريقية .

كما كان يقال إنه ممن لا يستقرون على رأى . وكثيراً ما أخرج قواده عن جادة الصواب بسبب تذبذبه وعدم ثباته .

لم يكن روميل يخفى احتقاره للقوات الإيطالية التى كانت تحت إمرته ، فلم تكن السياسة وما تنطوى عليه من مداهنة من طباعه .

ويصفه البريطانيون بأن كثيراً ما كان يتملكه نوع من الغطرسة التى لا تحد . ويدللون على ذلك بخطبه التى كان يرتجلها فى أسرى الحلفاء ، وكذلك بتعليقاته التهكمية على القيادات البريطانية ووعوده بالنصر بينما تكون النتيجة لاتزال فى كفة القدر . ففى إحدى المرات صرّح قائلا « لقد ضربنا الإنجليز اليوم فى بطونهم وغداً سنضربهم فى صدورهم ، أما بعد غد فسنضربهم فى أعجازهم » . ولكن سرعان ما كانت

تخيب الحوادث ظنه ، فيقف قواده مكتوفى الأيدى أمام حوادث لم تكن مرتقبة . ولقد خلع عليه بعض أتباعه لقب الأستاذ ، لكثرة ما كان يلقيه عليهم من المحاضرات .

وقد قص أحد المراسلين الحربيين الأمريكيين بعض ما شاهده عندما أسرته إحدى الفيالق الأفريقية فى عام ١٩٤١ ، فقال إنه بينما كان يسير وسط قول من أسرى الحلفاء فى طريقهم إلى الخطوط الخلفية الألمانية أخذ فريق من الجنود الألمان يستوقفونهم ليلتقطوا لهم صوراً فوتوغرافية . ولكن سرعان ما ظهر الجنرال روميل فى إحدى العربات وقد ترك لحيته وارتدى رداء طويلا غير معتنى به ، وكان يبدو فى حال لا تختلف كثيراً عن حالة الأسرى ، وأخذ ينهر جنوده على استبقائهم للأسرى لتصويرهم . ولكن سرعان ما فعل هو نفسه نفس الشيء وأخذ يصورهم ، ثم اتكأ على زجاج العربة الأمامى وأسند ذقنه بقبضة يده وأخذ ينظر بعين تائهة فى فضاء الصحراء بينما أخذ جنوده الألمان فى تصويره ... ولا غرو فى ذلك ، فقد رفعه متبوعوه وهيئة أركان حربه إلى مرتبة نابليون .

كان روميل فخوراً بقوة تحمله لأعباء القتال فى الصحراء ولكن سرعان ما خانته هذه القوة بعد عامين . ولعلنا لا نزال نذكر خبر تلك الغارة التى قام بها جماعة من كوماندوز الحلفاء فى نوفمبر سنة ١٩٤١ على مقر قيادة روميل فى الڤيلا التى كان يقطنها خارج طبرق والتى لولا وجوده خارجها في ذلك الوقت لتعرض لموت أو أسر محقق .

ثم كاد أن يقع بعد ذلك ببضعة أسابيع فى أيدى إحدى الداوريات الإنجليزية التى أغارت على الخطوط الأمامية للألمان . ولما سأله بعض المراسلين الحربيين عن سبب تعريضه بنفسه للموت أو الأسر بكثرة وجوده فى الخطوط الأمامية ، أجابهم — وهو بلا شك محق فى هذا القول — إنه فى مثل هذا النوع من حروب الصحراء قد يتوقف مصير القتال على رأى أو قرار قد لا يستغرق منه أكثر من ثانية واحدة .

كان الهجوم البريطانى فى شهر نوفمبر عام ١٩٤١ هو المحك الذى أظهر مقدرة روميل على القيادة . وكانت خطة الجنرال كاننجهام هى :

١ — القيام بهجوم تثبيتى على الخط الدفاعى حلفايا — سيد برانى بالفرقة الرابعة الهندية .

٢ — تتحرك الفرقة الأولى النيوزيلندية شمالا وتلتف حول نيڤرزن ثم تتحرك فى اتجاه كابتزو — بردية .

٣ — تلتف اللواءات المدرعة الرابع والسابع والثانى والعشرون حول الجناح الأيمن لقوات المحور فى اتجاه الجوبى وسيدى رزق وطبرق.

وبهذا يمكن تطويق المشاة والقوات المدرعة لقوات روميل وإبادتها .

وفى هذا المقام يحسن الموازنة بين القوات المتحاربة من كلا الفريقين — ولأول وهلة يتضح أن الفيالق الألمانية كانت تمتاز على الجيش الثامن البريطانى . فالقواد الذين يعملون تحت إمرة روميل هم فريق من أكبر الاخصائيين فى فنون القتال فى الجيش الألمانى عامة ، فقائده الثانى الجنرال كروبل ، هو رجل الدبابات الأول فى ألمانيا ، والجنرال

بسمارك أكبر خبير فى المشاة الراكبة ، أما الجنرال نهيرينج ، فهو أكبر أخصائى فى المدفعية المضادة للدبابات .

أما من الناحية الأخرى فهناك الجنرال كاننجهام ، ولو أنه قام بحملة ناجحة على الإيطاليين فى الحبشة ، إلا أنه غير خاف أنها كانت ضد عدو تنقصه الموارد والعزيمة . ولم يكن لهذا القائد دراية واسعة باستخدام قوات كبيرة من الدبابات . هذا والجنرال كوت قائد فيالقه ، كان ضابطاً من المشاة ، وكان الميجر جنرال فرانك مشرفى ، قائد الفرقة الرابعة الهندية ، من الفرسان . وبالمثل فإن قائد الفرقة السابعة المدرعة ، الليفتنانت جنرال نورى ، فكان هو الآخر من الفرسان .

أما البريجادير كامبل ، قائد مجموعة القوات المساعدة السابعة ، فقد أظهر براعة فى سيدى رزق فى شن الغارات والاشتباك مع الدبابات ، ولكنه لسوء الحظ قتل فى حادث سيارة قبل أن يستفاد من مقدرته .

وقد وصف أحد الضباط البريطانيين هؤلاء القادة بقوله إنهم ولا شك كان لديهم جميعاً تجارب جيدة فى الحروب المدرعة وحروب الصحراء . ولكن يصعب القول بأن عقولهم قد أصبحت لديها الملكة الكافية للسيطرة على حروب الدبابات أو الحروب الميكانيكية .

وقد نجحت المرحلة الأولى من الهجوم البريطانى ، ودلت على أن روميل قد أخذ على غرة . والواقع أنه كان يقوم فى الوقت ذاته بتجهيز هجوم على طبرق ، ولا ندرى ما الذى كان يخبئه القدر لهجوم الجنرال كاننجهام لو أنه حدث بعد أن كان روميل قد اشتبك بمعظم قواته مع حامية طبرق .

وكذلك نجح هجوم الفرقة الرابعة الهندية والسابعة الهندية فى تثبيت قوات كبيرة من قوات المحور . أما اللواء الثانى والعشرين المدرع فقد اشتبك فى قتال عنيف مع فرقة أرييت عند الجوبى وتكبد الفريقان خسائر فادحة . أما جماعة المساعدة السابعة ، واللواء الخامس من جنود جنوب افريقيا ، فقد ظلوا فى أماكنهم بعد أن حفروا بها الخنادق . وفى الوقت نفسه تقدم النيوزيلنديون حسب خطة موضوعة حتى وصلوا إلى مطار الألمان فى سيدى رزق ودمروا عدداً كبيراً من الطائرات كانت جاثمة فى المطار . وبدلا من أن يتجنب روميل القتال عند سيدى رزق فإنه بالعكس رحب به وجمع فرقتيه الواحدة والعشرين والخامسة عشرة المدرعة أمام اللواء الرابع المدرع وأوقع به خسائر فادحة .

كانت هذه المعركة مائعة ، كثر فيها اختلاط القوات وتداخلها حتى فقد القائد البريطانى القدرة على السيطرة وتتبع الحوادث . وكان الموقف فى غاية الاضطراب حتى عجز ضباط المخابرات البريطانية عن تتبع سير القتال ، واستطاع روميل فى ٢٣ نوفمبر أن يقطع خط الرجعة على عدد كبير من الدبابات البريطانية ويطرد اللواء الخامس من جنود افريقيا من خنادقه . وأرسل فى ٢٤ نوفمبر فرقة أرييت ولواء دبابات فى غارة عبر الحدود المصرية لتحطيم تنظيمات العدو ، ولو أن هذه الغارة لم يكن لها نتيجة فعالة ، إلا أنها أوقعت الارتباك فى خطوط التموين البريطانية ، وأقلقت مضاجع البريطانيين لبضعة أيام .

وقد تمكنت الفرقة النيوزيلندية من الاتصال بحامية طبرق فى ٢٧ نوفمبر ،

ولكن أصبح من الملموس أن الهجوم البريطانى قد فقد سرعته .

وقد وقع حادث هام فى اليوم التالى مباشرة ، فقد استبدل الجنرال كانتجهام بالجنرال ريتشى ، وفى هذه الفترة كان روميل قد أعاد تنظيم قواته واسترد سيدى رزق ، ولكن لم تعد لديه القوة على متابعة النجاح .

صمم الجنرال ريتشى على التقدم ، واتبع سياسة شن الغارات على خطوط المواصلات والمؤخرة . فكان لهذه السياسة نتيجة فعالة . وفى ٥ ديسمبر انسحب روميل إلى الغزالة بعد أن فك الحصار عن طبرق . ثم عاد فانسحب ثانية إلى خط درنة ـ بنغازى ، ثم بعدها إلى العجيلة ، وهناك انتظر وصول الإمدادات . كل ذلك بينما القوات البريطانية تتبعه ببطء وتنشىء مراكز للتموين .

وفجأة عاد روميل فقام بهجوم مضاد ، فانسحب الانجليز إلى خط الغزالة ـ بير حكيم . وقد أثار هذا العمل إعجاب مرشال الجو سير ادوارد الينجتون فقال : « بالرغم من أن روميل لم يحاول انتزاع سيطرتنا على الجو ، وبالرغم من ضآلة معاونة سلاحه الجوى فقد استطاع أن يقوم بهجوم مضاد جبار على القوات البريطانية » .

وقد يعزى هذا النجاح إلى حشد روميل لقوات متفوقة فى المكان الحاسم من المعركة ، ولكن مما لا شك فيه أن السر فى هذا النجاح يرجع إلى التفوق فى القيادة نفسها .

ولقد كانت المهارة التى أبداها روميل فى متابعة نجاحه ، دليلا على براعته فى استخدام احتياطيه ، وقدرته على الاحتفاظ بقواته المدرعة متجمعة

لمواجهة ظروف القتال المتقلبة فى حروب الصحراء .

وكانت سياسة الانجليز فى ذلك الوقت تميل إلى عدم الاشتباك فى القتال بعدد كبير من الدبابات ، بل يفضلون الاشتباك بعدد قليل على جملة مرات ، فكان هذا فى صالح روميل . وفى هذا المجال صرح روميل يوماً لأحد الضباط الأسرى من البريطانيين بقوله : « ما الذى يضيرنى لو أنكم تتفوقون علينا حقاً بكثرة دباباتكم ما دمتم لا تدفعون بها للقتال أمامنا إلا حفنة حفنة » .

لم يكن روميل يعبأ بأصول حرب الصحراء فقاتل فى أشهر الصيف التى تشتد فيها الحرارة ولم يكن أحد يتوقع نشوب القتال فيها ، وهاجم البريطانيين والفرنسيين فى خط الغزالة — بير حكيم فى شهر مايو ١٩٤٢ ، وكان غرضه من هذا الهجوم هو تحطيم الجيش الثامن وتقصير خطوط المواصلات بالاستيلاء على طبرق . وقد تمكن من عزل الحامية الفرنسية فى بير حكيم كما تمكن من فتح ثغرة فى حقول الألغام ووسعها حتى تمكن من إمداد قواته شرق هذه الحقول .

وقد علق السير جوردون فانليش على هذه المناورة الجريئة والتى كلفته التضحية بكثير من قواته المدرعة فى المرحلة الأولى من القتال بقوله إنه ليس من السهل على أى قائد أن يتخذ مثل هذا القرار الخطير . ولقد أدى هذا إلى وقوف الجنرال ريتشى فى موقف محير ، وكان عليه أن يختار أحد أمرين فإما أن ينسحب من ليبيا أو يقاتل قوات روميل المدرعة ومدافعه المضادة للدبابات تحت ظروف غير مناسبة له .

ولقد اختار ريتشى أشجع الحلين ، ولكنه لسوء طالعه كان حلا مشئوماً ، فقد تمكن روميل يوم ١٣ يونية من إيقاع القوة الأساسية للدبابات البريطانية فى كمين ، وذلك بأن سحبها إلى مكان كان قد حشد فيه عدداً هائلا من مدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات ، فخسر البريطانيون فى هذا اليوم ٢٥٠ دبابة .

وكان للسرعة والدقة الذى نفذت بها هذه الخدعة ، وكذا لمتابعة روميل للنجاح ، أن وقعت الفوضى والاضطراب والهزيمة أيضاً فى صفوف البريطانيين . أما كيف أمكن للألمان إخفاء هذا الفخ الهائل عن ملاحظة السلاح الجوى البريطانى فأمر يحير العقول . ولكن التقارير دلت على أن روميل قد أحكم إخفاء مدافعه .

وراجت شتى الإشاعات المثيرة عن مدافع روميل السرية المضادة للدبابات ، ولكن الواقع أنها لم تزد عن كونها المدافع ٨٨ مم المضادة للطائرات وذات الواجب المزدوج التى كانت تستعمل فى الجيش الألمانى منذ الحرب الأهلية الأسبانية .

وفى هذا المقام يحلو أن نذكر قصة كتبها أحد المحررين الأمريكيين على الطريقة الأمريكية واستقاها من خياله أكد فيها لقرائه أن روميل تمكن من تحطيم الجيش البريطانى بأن جعل الراديو الألمانى يرسل إشارات لاسلكية متعددة مدعياً فيها أن الجيش الألمانى عند جسر الفرسان فى مأزق حرج ، فخدع البريطانيون ووجدوا فى ذلك الفرصة السانحة للهجوم ، فدفعوا بقواتهم المدرعة إلى ذلك المكان حيث لاقوا حتفهم .

وبالرغم من بساطة هذه القصة وسذاجتها ، إلا أنها تعطينا فكرة عن مدى النكبة التى حلت بالجيش البريطانى ، والحقيقة كما رواها ضباط المخابرات البريطانية هى أن روميل كان يقود المعركة ويصدر التعليمات والأوامر بواسطة الراديو دون أن يكون غرضه خديعة الإنجليز ، ولطالما سمع مراسلو الجرائد الأمريكية عن طريق أجهزة الاستقبال فى الخطوط الأمامية صوت روميل الهادىء وهو يصدر تعليماته ويوجه القوات التى تحت قيادته . ولقد ظل روميل طوال الحملة على شمال أفريقيا وهو يسير على هذه الطريقة ، فكان يصف لهم المواقع بواسطة إحداثيات مقاسة جميعها من خط تسامتى معلوم لقواته ومجهول طبعاً للحلفاء .

وتبعاً لذلك انسحبت القوات البريطانية بعضها إلى طبرق ، فدخلها ما يزيد على ٣٠,٠٠٠ رجل بينما سارت القوة الأساسية إلى الحدود المصرية . وكانت حامية طبرق أضعف من أن تحافظ عليها ، ولم يمهلها روميل لتعزيز مواقعها بل اندفع بقواته المدرعة ومدفعيته بأقصى سرعة وهاجم المدينة من الشرق بينما كان يتظاهر بالهجوم على جامبوت .

وكان الهجوم مفاجئاً ، وعلى غرار العمليات فى الحرب العظمى السابقة ، فبعد أن قامت المدفعية بضرب شديد على المواقع ، تقدمت الدبابات والمشاة فى أعقاب غلالة من النيران ، ثم اخترقوا المواقع الدفاعية واندفعوا صوب الميناء فوصلوها قبل الغروب وأجبروا بذلك القوات البريطانية على التسليم .

ولم يضع روميل أدنى وقت فى طبرق ؛ بل دفع بقواته المدفعية

والخفيفة الحركة إلى « مرسى مطروح » فسقطت بعد سبعة أيام وأسر فيها ٨٠٠٠ رجل كانوا قد تركوا بها للتعطيل لكى تكسب القوة الأساسية بعض الوقت أثناء انسحابها .

وفى هذه المرحلة أعنى الجنرال أوكنلك الجنرال ريتشى من القيادة وتولاها بنفسه واحتل خطاً دفاعياً يمتد من العلمين إلى منخفض القطارة .

وفى نهاية شهر يونية صار روميل على مسيرة ٦٥ ميلا من الإسكندرية . ولا يسعنا أمام هذا العمل إلا أن نصف هذه الحملة بأنها كانت رائعة وأن روميل هو بطلها . فقد كان كالمدفعية ، فى كل مكان من المعركة . فكان يحدد بنفسه للمهندسين المواضع التى يقومون فيها برفع الألغام كما يقوم بنفسه بتعيين أغراض المدفعية ، بل وكثيراً ما كان يرى وهو يشتغل دليلا للقوات المشاة . ولطالما تعرض للموت ونجا بأعجوبة من شظايا الشرابنل وداناته الشديدة الانفجار .

فلا غرابة إذن فيما قامت به الصحافة الألمانية من الإشادة بذكره جاعلة منه القائد الموهوب وخير من أنجبته الحرب الأخيرة . وقد منحه هتلر رتبة فيلد مارشال وأعلى درجة من الوسام الحديدى .

وفى رحلته إلى برلين ليتقلد رتبته الجديدة أذاع على محررى الصحف أن الفيالق الأفريقية لن تلبث حتى تندفع إلى الإسكندرية والقاهرة . ولم يدر روميل وقتئذ أنه قد أصبح أمام أكبر معركة فى أفريقيا .

لم تكن المواقع البريطانية فى العلمين قد تمت بعد . وكان الجيش الثامن قد منى بخسائر فادحة ، فى حين كانت قوات روميل فى غاية

التعب وكانت تقاسى أشد المصاعب من جراء مشاكل التموين ؛ بدليل أنهم لو استطاعوا أن يضاعفوا مجهودهم فى الأسبوع الأول من يونية لأصبح من المحتمل أن يصلوا إلى الإسكندرية . ولكن روميل أخذ يتخذ الحيطة فى أعماله ، فقام فى أول يونية بهجوم على العلمين بقصد الاستطلاع منتهزاً فرصة قيام زوبعة من الأتربة ، ولكن البريطانيين استطاعوا تجميع ما تبقى من دباباتهم وردوه على أعقابه ، ثم قاموا بهجوم مضاد فى اليوم التالى وتمكنوا من أسر ألفى جندى وثلاثين مدفعاً ، كما أعادوا الهجوم بنفس الطريقة عدة مرات فى الأيام التالية . واقتنع روميل أن خط العلمين قد أصبح محصناً ، فلم يقم بأى عملية هجومية واسعة النطاق حتى نهاية أغسطس ، فأفلتت الفرصة بذلك من يده .

وفى ليلة ٣٠ أغسطس قذف روميل بمدرعاته ومشاته الراكبة تحت ستار من ضوء القمر الخافت صوب القطاع الجنوبى من جبهة العلمين فقابلها البريطانيون بالنيران الحامية من المدفعية وخسر روميل مائة دبابة وألفى رجل ، وإن كان البريطانيون لم يحاولوا القيام بهجوم مضاد لأنهم كانوا مشغولين بما هو أهم .

وقد علق محرر أمريكى على هذا الهجوم فقال إن روميل قد اقترف كافة الأخطاء التى وقع فيها البريطانيون من قبل طوال حربهم فى شمال أفريقيا ، فلم يقم بحشد قوات كافية من دباباته ، ولم يجر استطلاعاً دقيقاً كافياً ، فرمى بنفسه وسط حقول الألغام والأرض الوعرة حتى يئس من النجاح فى سحب الدبابات البريطانية ولذا لم يجد بداً من التقهقر .

ومنذ ٥ سبتمبر لم تُر الفيالق الأفريقية إلا وهى تقوم بحفر الخنادق وتعزيز مواقعها الدفاعية . فبدأ فى الحال فى عمل حقول الألغام .

وبينما كان جيش روميل منهمكا فى هذا العمل سارع هو إلى زيارة برلين تاركا الجنرال فون ستون والجنرال توما فى القيادة . وقد قوبل هناك بحماسة شديدة ، وفى أحد المؤتمرات الصحفية نعت روميل الجيش الثامن بالجبن وعدم الشرف فى قتاله ...

كان القرار الذى اتخذه روميل للوقوف بقواته عند العلمين مثار كثير من النقد ، فقال الميجر جنرال فوللر إن هذا القرار يشهد بأن روميل ، بالرغم من كل تجاربه السابقة ، فشل فى فهم ضرورة الدفاع بعمق فى الأرض الصحراوية أمام هجوم ميكانيكى ، كما اتهمه الجنرال توما عقب أسره بارتكابه غلطتين تكتيكيتين شنيعتين فى إعداد الدفاع عن خط العلمين ، أولاهما وقوفه عند هذا الخط ، وثانيتهما تجميعه كافة الأسلحة المدرعة فى الشمال قريبة من الخطوط الأمامية ، فعرضها بذلك لخسائر جسيمة لا مبرر لها من المدافع الإنجليزية ، كما قال إن حقول الألغام الألمانية وضعت بشكل خاطىء ، فلم يكن الكثير منها واقعاً تحت المراقبة المباشرة الألمانية مما أدى إلى تمكن الإنجليز من رفعها بسهولة ودون خسائر .

لم تكد القوات المتحالفة تغزو شمال أفريقيا من الغرب حتى انقلب الموقف الاستراتيجى بأجمعه فى البحر الأبيض المتوسط رأساً على عقب ، ووصل روميل بأقصى سرعة من برلين ليقود الانسحاب الطويل إلى تونس وليحتفظ فى الوقت ذاته بالعناصر الألمانية سليمة ،

لتكون قادرة على الاشتباك فى المعارك هناك، ولو ضحى فى سبيل ذلك بقوات إيطالية كبيرة . وكان هذا الإنسحاب أطول وأسرع انسحاب حدث فى التاريخ ، وقامت الصحافة والإذاعة الألمانية بمجهود جبار لإقناع الشعب الألمانى والإيطالى بأن انسحاب روميل من العلمين إلى تونس يعد من أروع العمليات الحربية فى التاريخ ، ولكن الإشادة بمقدرة روميل التكتيكية والإدارية لم تكن تخفى الحقيقة المرة عن مدى الضعف الذى وصلت إليه قوات المحور فى تونس ، ولا عن مدى أهمية نجاح مونتجومرى فى دفع القوات البريطانية فى أعقاب الجيش الألمانى فأصبح واضحاً للعيان أن عمليات روميل ودفاع فون أرنيم لم تكن سوى أعمال تعطيلية لتعطيل غزو الحلفاء للقارة الأوربية .

وقد قام روميل بعدة غزوات وحشية على القوات الأمريكية ليختبر مدى قدرتها وليوقع الارتباك فى خطط الجنرال أيزنهاور ، كما قام بجملة هجمات أخرى على الخطوط البريطانية ولكن دون جدوى ؛ ويقال إنه أذاع مرة فى أمره اليومى على جنوده قوله « إن لم تتمكنوا من طرد الجيش الثامن فإن مدة إقامتكم فى شمال أفريقيا لن تتعدى أياماً معدودة » .

وكانت هذه آخر العمليات التى تولى روميل إدارتها فى شمال أفريقيا ، إذ استدعاه هتلر بعدها للعودة إلى الوطن بأسرع وقت ليقلده أكبر أوسمة الدولة تقديراً لبطولته الفذة خلال السنتين اللتين قاد فيهما الحملة فى شمال أفريقيا . وقد صرح مصدر ألمانى مسئول أن صحة روميل

قد ساءت عقب الفشل الذى منى به فى عام ١٩٤٢ وأن هتلر قد استدعاه ليتمكن من العلاج .

حاول الجنرال فون أرنيم الذى خلف روميل فى القيادة إقامة خط دفاعى أخير للدفاع عن تونس ولكنه فشل، وانهارت بذلك قوات المحور فى شمال أفريقيا وسكنت المقاومة المنظمة نهائياً وأسر الجنرال نفسه مع ٢٥٠,٠٠٠ من قواته .

ولما بدأ الحلفاء فى غزو القارة الأوروبية كان روميل على رأس قيادة المجموعة « ب » من الجيوش الألمانية المكونة من الجيشين السابع والخامس عشر الألمانيين ، وأصبح بذلك مرءوساً للجنرال رونشتيد مما جعل موقفه شاذاً شائكا ، ولو أن هذا القائد كان يعتبر روميل قائداً فذاً ، ولكنه فى الوقت ذاته كان يعيب عليه أعماله التى قام بها فى الحملة على بولندا أثناء قيادته لمركز رئاسة هتلر الخاصة ، فكان يعتبرها أقرب إلى العمليات المسرحية منها إلى العمليات الحربية ، وكثيراً ما أشار إليه خلال أحاديثه بقوله « ذلك القط الفظ الذى رأس سر أدولف هتلر » .

كان الفشل فى منع الحلفاء من النزول إلى البر ، وكذا الخلاف على استخدام القوات والموارد الألمانية بفرنسا ، سبباً فى نشوب نزاع شديد بين روميل ورونشتيد ؛ وانتصرت القيادة فى ألمانيا لروميل فاستبدل رونشتيد فى مايو بالفيلد مارشال فون كلوج ، ونفذت بذلك خطط روميل فى جبهة « كان » .

ولو أمعنا النظر فى حالة روميل فى هذه الفترة من الزمن لوجدنا أنه جىء به اليوم ليقود عمليات حربية لم تكن تجاربه وحروبه السابقة لتفيده فيها ، فكفاحه الطويل ضد الجيش الثامن لم يؤهله لمجابهة خصم أحسن تسليحه وتجهيزه إلى درجة لم تصل إليها عقلية رجال الإمدادات الألمانية . فالموارد الهندسية الواسعة النطاق التى هيأت للحلفاء بناء موان صناعية ، والإمدادات الهائلة كانت كلها مما لم يكن روميل ليتوقعه أو يجول بخاطره . وعلى ضوء الحوادث التى حدثت بعد ذلك ، ثبت أن روميل قد أخطأ الحكم على طبيعة هجوم الحلفاء واستعداداتهم ، فقد كان حائط الأطلنطى والمواقع الدفاعية المقامة على الشواطىء لعرقلة الغزو هى كل أمل روميل للدفاع عن أوروبا . كما أنه وضع نصب عينيه أنه لو قدر وسقطت هذه الدفاعات فإنه يقوم على الفور بهجوم مضاد يطرد به القوات المتحالفة ويرمى بها إلى البحر بقواته الاحتياطية الممكنة . ولكن الحلفاء نزلوا فى مواقع متفرقة فوزع روميل قواته لمجابهتهم ، وسارع إلى تعديل خططه بالهجوم ولكنها فشلت وبذلك كان نصر الحلفاء محققا .

وفى مايو ١٩٤٤ أصيب روميل فى حادث سيارة وقع له أثناء مهاجمة طائرات الحلفاء لقيادته فى جبهة « كان » الفرنسية ، ولكن خبر وفاته لم يعلن إلا فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ولم يذكر فيه أى شىء عن دفاعه المجيد فى نورمانديا بل اقتصر على القول « بأن الحياة العسكرية لأنجح قائد من قوادنا قد انتهت » . ومع ذلك فسيظل

اسم روميل مدى الأجيال عالقاً بأجَلّ ضروب البسالة فى القتال الذى قامت به الفيالق الأفريقية فى مدى عامين كاملين .

ولا شك فى أن روميل كان ذا قدرة لا تبارى فى التكتيك والتنظيم الحربى ، وكانت خططه سواء فى الهجوم أو فى الانسحاب موسومة دائماً بطابع التنظيم المحكم والتجديد الجرىء ، وكانت كل معركة من معاركه حتى خريف عام ١٩٤٢ تكشف لنا عن صور جديدة فى القتال ، ولو أنه كان ميالا على الدوام إلى تكرار نفس الخطط فى العمليات الكبيرة . وقد كسب انتصارات حاسمة بقوات محدودة ، ولكن لم تؤد انتصاراته إلى نتائج حاسمة ، وحتى الساعة التى التقى فيها بمونتجومرى وألكسندر لم تتح لقائد بريطانى من قبل الفرص لمجابهته بقوات مماثلة له أو متفوقة فى الجو والأرض . وكثيراً ما ضيع البريطانيون فرصة تفوقهم عليه فى الجو بتفوقه عليهم فى الدبابات . والمدفعية المضادة للدبابات وكيفية استخدامها . وكان من أكبر العوامل فى نجاحه تعوده على قيادته للمعارك وهو فى الجبهة الأمامية ، ويقال إن هذا كان من أهم الأسباب فى جميع انتصاراته .

وخير ما نختتم به الحديث عن روميل هو أن نقول أنه لم يكن سوى عنواناً للجيش الألمانى العتيد .

لا انسحاب ولا تسليم بعد اليوم

« مونتجومرى »



« الفيلد مارشال مونتجومري »

مونتجومرى

فى شهر يونية عام ١٩٤٦ ، عندما توجه مونتجومرى إلى وزارة الحرب البريطانية فى لندن ليتولى مهام منصبه الجديد كرئيس لهيئة أركان حرب الإمبراطورية ، كان قد أتم التاسعة والخمسين من عمره وكان لا يزال من أبرز الشخصيات فى انجلترا ، فى حين كان الفخار العسكرى الذى يشعر به مئات الألوف من الجند ، والملايين من أقاربهم ، لا يزال قائماً ، وكان مونتجومرى بالنسبة لهؤلاء الملايين لا يزال هو « مونتى » الذى أبرزته معركة العلمين ، وإن كان الجميع يعتقدون أنه أبرز من أنجبته بريطانيا من القواد العسكريين منذ ويلنجتون .

وفى عام ١٩٤٢ ، أى قبل ذلك بأربع سنوات فقط ، كان الذين يعرفون اسم مونتجومرى خارج محيط الجيش ، أقلية لا تكاد تذكر . وفى ذلك الوقت كانت الحرب قد قطعت مرحلة كبيرة وكان مونتجومرى يقترب من الشيخوخة ، وهو فى الرابعة والخمسين ؛ وفجأة تقفز تلك الشخصية المجهولة فتنتزع مئات الألوف من الرجال الأقوياء شديدى البأس ، وإذا بمونتجومرى يتنقل فى صحبة الملوك والزعماء برأس مرفوع ، وكبرياء وصلت فى بعض الأحيان إلى حد الفظاظة . أما فى الميدان ،

فكان يقود العمليات الضخمة ، التى لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، بمثل السهولة والمقدرة التى يدار بها أى تمرين عسكرى داخل الثكنات . وإذا بهذا الضابط الذى قضى قرابة نصف قرن فى محيط الحياة العسكرية العادية ، يصبح بين عشية وضحاها قائداً ملهماً ، ويصبح اسمه على كل لسان ، وتتعدى شهرته شهرة تشرشل فى بريطانيا وروزفلت فى أمريكا وشيانج كاى تشيك فى الصين .

المكان جبهة العلمين ، والوقت عصر يوم من أيام شهر أغسطس عام ١٩٤٢ ، وفى أقصى الأفق طائرتان من طائرات « مسر شميدت ١٠٩ » ، عائدتان من غارة على خطوط البريطانيين الخلفية .

ولعله من قبيل المصادفات أن يلمح أحد طياريهما طائرة بريطانية من طائرات حمل الركاب المعروفة باسم « بومباى » ، تطير فى أقصى الأفق ؛ ولم يكن الطيار الألمانى ليدع مثل هذه الفرصة تفلت من يده ، فلوّح لزميله بأحد جناحيه ، ثم اندفع بسرعة البرق الخاطف نحو الطائرة البريطانية ، وأخذ يقذفها بوابل من قذائف مدفعه الرشاش . وقد حاولت الطائرة أن تلوذ بالفرار ، ولكن الأمر لم يكن سهلا ، فاضطر قائدها للهبوط بها أملا فى أن يتمكن من إنقاذ الركاب . ولكن الطائرة الألمانية لم تغفل عنها وسرعان ما انقضت عليها مرة أخرى ورمتها بقنبلة حارقة أشعلت فيها النار لساعتها قبل أن تصل إلى الأرض ، فأخذت الطائرة الضخمة تخبط فى الجو كالطائر الجريح ، حتى ارتطمت أخيراً بالصخور ، وما كادت تستقر أرضاً حتى كانت هشيما وحطاماً .

وقد قتل ركاب الطائرة وعددهم سبعة من الضبـاط البريطانيين ، ومن بينهم الجنرال جوت ، وهو القائد الذى كان قد وقع عليه الاختيار لقيادة الجيش الثامن فى شمال أفريقيا ، وكان فى طريقه إلى القاهرة لقضـاء يومين للراحة قبل أن يضطلع بأعبـاء منصبه الجديد فى مواجهة روميل .

كان مقتل هـذا القائد الذى يعد بحق من أمهر قواد الصحراء ، نـكبة من أشد النـكبات التى راحت تتلاحق على الجيش الثامن منذ أن نقل الجنرال ويفل إلى الهند ، كما كان نـكبة ولا شك على الإمبراطورية البريطانية بأسرها . ولـكن القدر لم يكن يرمى إلى نـكبة البريطانيين ، بل لعـله رمى إلى نكبة الألمـان ، وهو كثيراً ما يتدخل فى الوقت المناسب ليخلق من الظروف القاسية مناسبات ، ويرسم خططـاً يعجز عن وضعهـا أمهر الخبراء . والواقع أن هذا الحادث يعد نوعاً من تدخل القدر إذ أتاح أن يتولى قيادة هذا الجيش قائد آخر ، هو الجنرال برنارد لو مونتجومرى ....

والآن لنعد قليلا إلى الوراء لنستعرض أعمال هـذا الجيش الذى أختير مونتجومرى لقيـادته ، لاسيما وقد نال من الشهرة فى خـلال الحرب العالمية الأخيرة ما لم ينله جيش آخر . فقد ولد الجيش الثامن فى البأساء ، وغذّى بلبان الهزيمة والارتداد ، ونشأ فى الرمال والدماء ، وترعرع فى خضم المعارك وسعير النيران ، حتى أصبح أحسن جيوش العـالم وأقواها رجالا وأوفرها عتاداً . وقد أتيح للمستر تشرشل أن

يفيه حقه ، ويقدم له تحية العالم الحر . وكان ذلك عندما زار طرابلس ومشى فوق أرضها مختالا فخوراً وقال « إذا سئل رجل بعد الحرب عما فعل ، فسيكفيه أن يقول إننى سرت مع الجيش الثامن . »

لقد عجز الجنرال كاننجهام عن قيادة هذا الجيش ، وفقد السيطرة عليه فى معركة سيدى رزق ، فحمل عنه عبء القيادة الجنرال «نيل ريتشى» من نوفمبر عام ١٩٤١ إلى يونية عام ١٩٤٢ ، واستطاع خلال تلك الفترة رد جيوش المحور بقيادة الفيلد مارشال أروين روميل ، إلى العجيلة فى ديسمبر عام ١٩٤١ ، ولكنه اضطر بعد ذلك إلى الانسحاب إلى خط الغزالة — بير حكيم ، بعد أن خسر الكثير من دباباته ، كما عجز بعد ذلك عن تخليص القوات الفرنسية المحاربة التى حوصرت فى بير حكيم ، وأوقع بنفسه فى كمين نصبه له روميل عند « جسر الفرسان » ، كما سقطت طبرق واستسلمت حاميتها التى يبلغ تعدادها ٣٠,٠٠٠ رجل . والواقع لقد كان هذا الجيش فى كثير من الأحيان يقاد قيادة سيئة ، كما حدث فى ذلك اليوم من أيام شهر يونية عام ١٩٤٢ ، حين قذف بدباباته فى كمين أعدته لها مدافع روميل من عيار ٨٨ مليمترا . وفى كثير من المناسبات شهدت قوات الجيش أخطاء ولدتها الغفلة وسوء التصرف ، كما حدث فى إحدى المرات حين أخذت ٩٠ دبابة ثقيلة من دبابات فالنتين تدمدم على حقل من حقول الألغام الألمانية فلم ينج منها سوى ١٩ دبابة ، وكان السبب فى تلك الكارثة هو توجيهها توجيهاً خاطئاً ، وفى وقت لم يكن فيه لدى القوات ما يكفى من العتاد .

ومع ذلك أبى رجال الجيش الثامن أن يعترفوا بالهزيمة ، ولعل ذلك كان السبب فى أنهم لم يهزموا . وهم لم يفقدوا الثقة مطلقاً فى أنهم متى أعطوا العتاد الكافى فإنهم قادرون على أن يهزموا جيوش روميل ، ولعل ذلك كان نتيجة تلك الروح التى بثها فيهم ويفل عندما تولى قيادتهم .

وأخيراً وما كادت فلول الجيش الثامن المفكك تغادر مرسى مطروح حتى سمع العالم نبأ عزل الجنرال ريتشى من القيادة وتولية الجنرال أوكنلك مكانه ، وكان ذلك فى المرحلة الدفاعية الأخيرة عند خط العلمين . وهناك وبعد قتال مرير دام حتى شهرى يوليو وأغسطس ، وقف كل من الجيشين يلهث من شدة التعب وفرط الإعياء ، ولجأ إلى حرب الخنادق . وكان الجنرال أوكنلك قد لمّ شعث الجيوش الخائرة فى العلمين عند خط دفاعى أنشىء على عجل ، وهو يمتد من البحر الأبيض المتوسط مسافة أربعين ميلا إلى الرمال اللينة الخداعة عند حافة منخفض القطارة ، وكان المحور قد أوقف ولكن لم يكن أحد يدرى إلى أى مدى يطول وقوفه .

وعلى مسافة تقرب من سبعين ميلا أمام روميل تقع الإسكندرية ، ومن ورائها الجائزة السنية التى سلخت جيوش المحور ثلاث سنوات فى الجهاد من أجل الظفر بها ، وهى قناة السويس ، ذلك الطريق المفضى إلى الهند وإلى الاتصال باليابان . ومن الواضح أن روميل كان يود أن يخاطر بكل شىء حتى يبلغ هذا الهدف ، ولكن فى أقل من ستة أشهر بعد ذلك كان جيش روميل قد ذاق الهوان ، فقد طورد أبعد

مما طورد أى جيش فى التاريخ وذلك لمسافة ١٦٠٠ ميل ، فلما ألجىء إلى جحر ضيق بين بنزرت وتونس قضى عليه القضاء الأخير .

وبوصول قوات المحور إلى خط العلمين ، شعر الإنجليز بحرج موقفهم ، حتى لقد أخذ الأسطول البريطانى يجلو عن الإسكندرية ، وجعل تشرشل يقلب أوجه الرأى المختلفة ويستعرض تاريخ القواد البريطانيين ويتمعن فى صفحاتهم . وقد وجد أن أوكنلك يمتاز بشجاعته الحقة ، حيث قام بعمل ممتاز باحتلاله خط العلمين بعمق ، كما أظهر أنه منظم من الطراز الأول ، ولكنه لم يسبق له أن قام بدور تكتيكى فى خلال قيادته لقوات الشرق الأوسط كما أنه لم ينل تقدير الجيش ، أو حتى هيئة أركان الحرب فى القاهرة .

ورأى تشرشل أن الحياة فى الشرق الأوسط تحتاج إلى دم جديد ، فانتخب الجنرال ألكسندر للقيادة العامة والجنرال جوت لقيادة الجش الثامن . ولكن هذا الأخير عاجلته المنية كما قدمنا فوقع الاختيار فى اللحظة الأخيرة على مونتجومرى .

ومونتجومرى والحق يقال لم يكن له نصيب يذكر من الشهرة ، حتى أن أحداً من الذين كانوا يحتسون الكوكتيل فى شرفة فندق شبرد فى ذلك اليوم الحار من صيف ١٩٤٢ لم يهتم بأن يرفع بصره ساعة وصول ذلك القائد البريطانى النحيل ونظر إليهم نظرة سخط ، ثم مرّ مسرعاً يجتاز الشرفة إلى داخل الفندق ، ولكن الضباط منهم عرفوه بلا شك فى فجر اليوم التالى ، عندما شاهدوه يستعرض الجنود فى صمت ،

ثم يقول فى هدوء تام كمن يقرر حقيقة ثابتة : « إن الجيش الثامن سيحارب عدوه فى نفس البقعة التى هو فيها الآن ، وأنه لا انسحاب ولا تسليم بعد اليوم » .

وقد سمع المحاربون القدماء فى الجيش الثامن عن هذا القائد الاسبرطى ، وساورهم الشك فى أنه سينال حبهم ، ولكنهم لم يلبثوا حتى صاروا يدعونه « مونتى » ، ويزدحمون حوله ليظفروا بنظرة منه كلما طلع عليهم .

وكما ذكرنا ، لم يكن مونتجومرى هو المرشح الأول لقيادة هذا الجيش ، ولم يقع عليه الاختيار إلا بعد سقوط الطائرة التى كانت تقل الجنرال جوت ، غير أنه كان مرشحاً لإحدى القيادات العليا الأخرى . ففى ربيع عام ١٩٤٢ عهد إلى السفير الأمريكى المستر وينانت بمخالطة رجال الجيش البريطانى ليبلو مقدرتهم ويتخير منهم قائداً يستطيع أن يضطلع بقيادة القوات البريطانية والأمريكية . وفى أثناء زيارة قام بها المستر وينانت للجنرال مونتجومرى سأله قائلا « أيها الجنرال ، افرض أنك أمرت بمهاجمة كاليه ، فكم من الزمن يقتضيك وضع خطة الهجوم والشروع فى التنفيذ ؟ » وكان وينانت يتوقع جواباً يقتضى أسابيع من الوقت ، ولكن مونتى لم يجب ، بل تناول التليفون واتصل بأركان حربه وتحدث معه بعض الوقت ، وفى فجر اليوم التالى كانت إحدى الفرق تقوم بمناورة تمثل هجوماً على الألمان ، وكان غرض مونتجومرى هو أن يضع تقديراً صحيحاً لإمكان الإجابة على سؤال المستر وينانت إجابة تتمشى والواقع . وقد بلغ ذلك من المستر وينانت

مبلغا حمله على أن ينصح باختيار مونتجومرى لقيادة الهجوم الأمريكى البريطانى فى شمال أفريقيا . وكانت إجراءات هذا الهجوم فى ذلك الوقت لاتزال فى دور التحضير . وكان الجنرال السير هارولد ألكسندر



مونتجومري في جلسة هادئة مع أركان حربه

الذى عين فى مكان أوكنلك ، صديقاً للجنرال مونتجومرى ، وكان كل من الرجلين قد شهد كثيراً من المواقف الحرجة . فألكسندر كان

شعاره « هاجم ، هاجم ، ثم أعد الكرة حتى وأنت فى موقف المدافع »
ومع ذلك فقد شاء القدر الساخر أن يتولى ألكسندر قيادة انسحابين
من أعظم الانسحابات ، وهما الجلاء عن دنكرك والارتداد عن بورما .

كان مونتجومرى أطول من المتوسط قليلا ، نحيف الجسم ، قوى
البنية ، ممتلئاً نشاطاً ، لا يدخن ولا يشرب الخمر ويؤدى فرائض
الصلاة بانتظام ، ويكره الجلبة والضوضاء ، وهو جاد صارم فى جميع
أعماله حتى لقد كان يتعمد أن يلقى محاضراته على الضباط فى الأوقات
المقلقة لهم ؛ أما طباعه فلا تطاق ومع ذلك فرجاله جميعاً يحبونه ويعترفون
له بأنه رجل الأخلاق المثلى .

وكان رجال الجيش يعدونه ضابطاً شاذ الطباع ، ولكنهم يعرفون
أنه امتاز وهو ضابط ناشىء فى الحرب العالمية الأولى ونال شهرة
بأنه قائد بارع . ويذكره أفراد الجيوش التى قادها فى انجلترا بأنه صاحب
النظام الصارم ، وأنه كان يدفع بقواته فى تمرينات رياضية شديدة
يؤودهم احتمالها .

ولد برناردلو مونتجومرى فى يوم ١٧ نوفمبر ١٨٨٧ ، وكان والده
من رجال الدين ، وفى ذلك العام كان قد عين أسقفاً فى تاسمانيا بأستراليا .

وقد أمضى برنارد طفولته فى تلك البلاد . وقبل أن يستكمل
العاشرة من عمره بدأ يكوّن لنفسه طبيعة خاصة وشخصية استقلالية .
وكان كثير الحركة عصبى المزاج ، لا ينفك ينتقل من مشروع إلى آخر
يحدوه فى ذلك نفاذ صبر ظاهر ومزاج عصبى . ولم يكن برنارد الطفل

يقنع بغير الزعامة على غيره من الأطفال وهم يلعبون معاً . أما بالنسبة لأخوته فقد كان أقلهم خضوعاً واتباعاً لتعاليم والديه ؛ وسرعان ما تطرق به هذا الميل إلى حب المشاكسة ، فلم يكن يخرج من عراك إلا ليشتبك فى آخر . وكان يلذ له أن يقاوم أى نوع من السيطرة تفرضها عليه الأسرة أو المدرسة بالرغم من صغر سنه وقتذاك .

وقبل أن يبلغ برنارد الثانيـة عشرة ، ضبط وهو يدخن . وقـد حزن والده لذلك كثيراً فصحبه إلى الـكنيسة فى صمت ، وهناك ركع الاثنـان فى خشوع لمدة ربع ساعة . وبعد أن غادرا الـكنيسة قال الوالد لولده أن الله لا بد وأن يكون قد غفر له زلته ما دام قد اعترف بها . غير أن برنارد رفض أن يقطع على نفسه عهـداً بعدم التدخين طالما أنه لا يستطيع أن يثق فى إمكانه المحافظة على هذا العهد . وبعد بضع سنوات ، عندما قال له والده أنه قد بلغ مبلغ الرجال وأنه يستطيع أن يقرر لنفسه ما يراه صالحاً ، صمم برنارد على عدم التدخين ، ولا يزال إلى اليوم محافظاً على هذا التصميم .

وعندما بلغ برنارد الثانية عشرة شاهد مجموعة من الجنود الاستراليين يمرون بشوارع المدينة فى طريقهم إلى حرب البوير ، فعقد العزم منذ تلك اللحظة على أن يكون جنديا .

وفى عام ١٩٠١ نقل والده إلى لندن فالتحق بالمدرسة الثانوية ، فى حين انضم أخوه الأكبر إلى الجيش وأبحر إلى أفريقيا .

وقد امتـاز برنارد فى مرحلة الدراسة الثانوية بتفوقه فى الألعاب

الرياضية ، فقد كان سباحاً ماهراً وعدّاء قوياً ، وكان أكثر ما يظهر تفوقه فى المباريات العامة التى يحضرها كثير من النظارة . وإذا رجعنا إلى صحف ذلك العهد وجدنا فى مجلة « وسدن » الصادرة فى عام ١٩٠٦ الفقرة التالية : « إن المعروف عن فريق مدرسة سانت بول أنه لا يكاد ينزل إلى الملعب حتى يبدى من ضروب المهارة ما يفوق الوصف ، وفى هذه المرة أبدى الفريق المذكور مقدرة عظيمة فى صعود المرتفع ، وأظهر « كوبر » و « مونتجومرى » براعة فائقة عندما أضافا ١٠٠ نقطة إلى مجموع فريقهما فى اللحظة الأخيرة وعندما كان الفشل المحقق يلوح فى الأفق . »

وعندما أدخل نظام التخصص فى المدارس الثانوية لإعداد من يرغب من الطلبة للحياة العسكرية ، اختار برنارد الانضمام إلى القسم العسكرى ، وكانت صورة الجند الاستراليين لا تزال عالقة بذهنه .

التحق برنارد بعد إتمامه الدراسة الثانوية بكلية ساندهرست العسكرية ولم يكن خلال دراسته بالكلية من المتفوقين فى الدرس ، واقتصرت شهرته على انضمامه إلى طائفة المشاغبين من الطلبة الذين كان شعارهم أن يضربوا الأشخاص الذين لا يحبونهم . وقد استمر برنارد مشاغباً حتى كانت الحادثة التالية التى أوقفته عند حد ؛ ففى أحد الأيام اتفقت « الشلة » على معاقبة أحد الطلبة ، وكان برنارد يتزعم فريق التنفيذ ، وبينما كان الطالب المسكين يخلع ملابسه فى العنبر هجم عليه الأشقياء بالسونكيات واضطروه إلى الوقوف رافع الذراعين إلى أن أشعل

برنارد النار فى ذيل قميصه ، وقد أصيب المسكين بحروق أرسل بسببها إلى المستشفى ، وبالرغم من أنه لم يبح بأسماء زملائه الذين اعتدوا عليه ، إلا أن هذا الحادث كان نقطة تحول فى أخلاق برنارد ، فقد بدأ يشعر بأنه كان يضيع وقته فيما لا يفيد ، وأن عليه إذا كان يأمل فى الترقى إلى رتبة صف ضابط أن يلتفت إلى دروسه ، فضاعف من نشاطه وانكبابه على الدرس حتى ظهر اسمه فى رأس قائمة المتفوقين . وأخذ اهتمامه بالجندية يتضاعف فخصص لها كل وقته حتى تخرج من الكلية بامتياز ، وكان ترتيبه الثلاثين من مجموع الناجحين البالغ عددهم ١٥٠ طالباً .

كان ذلك فى عام ١٩٠٨ ، وقد عين الملازم مونتجومرى فى آلاى الووروبكشاير ورحل للحاق بالكتيبة الأولى من الآلاى المذكور على الحدود الشمالية الغربية للهند . وسرعان ما تعلم مونتجومرى اللغة الهندية وأجادها لدرجة أنه استعملها بعد ذلك بثلاثين عاماً فى إصدار الأوامر إلى القوات الهندية التى قادها .

وماكادت الحرب العظمى الأولى يندلع لهيبها حتى كان مونتجومرى فى الصفوف الأولى ، وقد جرح خلالها مرتين ، ومنح وسام الامتياز ووسام صليب الحرب الفرنسى ، ثم خدم فى جيش الاحتلال بألمانيا . وفى عام ١٩٣٤ عيّن للتدريس فى كلية أركان الحرب فى كامبرلى بانجلترا ، ثم فى بلوخستان بالهند ، وكان وقتذاك برتبة كولونيل ، وعين بعدها قائد للآلاى التاسع المشاة فى بورتسموث ثم قائداً لإحدى الفرق فى أثناء الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٨ .

بعجيب ، فقد روى عنه أنه لما عاد إلى انجلترا فى عام ١٩٤١ ، أصر على أن يقوم الضباط حتى رتبة الأميرالاى بمشاركة الجنود فى العدو لمسافة ٧ أميال أسبوعيا ، وكان فى أغلب المرات يجرى معهم ؛ ولما شكا إليه بعض الضباط المتقدمين فى السن ، جعل الشوط ستة أميال ... وما كان ذلك إلا لشدة إيمانه بما يجب أن يكون عليه أفراد الجيش من سلامة البدن والاستعداد الدائم لكل عمل . فلا غرابة إذن فى أن نراه بشمال أفريقيا أشد قسوة مما كان فى انجلترا ، الأمر الذى جعل المراسلين الأمريكيين يقولون إن الجنرال مونتجومرى يدرب جيشه ليكون جميع أفراده من الفدائيين .

وكان مونتجومرى لا يمل التحدث إلى جنوده فى كل مكان وكل مناسبة ، ويرى غرس روح معنوية قوية فى كل فرد من أفراد الجيش ، روح تحترق كاللهب يضاعفها أنه كان يبسط خططه للضباط بغاية الصراحة وينصحهم بقوله إن الحرب شىء هيّن تتجمع جميع مبادئها فى كلمة واحدة هى « الإدراك » .

ولكى يجعل من كل فرد فى الجيش شريكا له فى مشروعاته الضخمة وهى هزيمة روميل وتحطيم جيوشه ، أذاع خطته فى معركة العلمين على جميع أفراد الجيش ليعلم كل منهم الدور الذى سوف يلعبه . أما أوامره وتعليماته منذ بداية المعركة عند العلمين حتى ساعة وصوله إلى تونس فكانت شفوية ، ولم تكن صورة روميل الفوتوغرافية لتفارق مركز رئاسته لتذكره دائماً بالمهمة الملقاة على عاتقه .

ويصر مونتجومري دائماً على تعيين قواد للشئون الإدارية لايقلون كفاءة بحال من الأحوال عن زملائهم في جبهة القتال . أما هؤلاء الضباط الذين لم يسعدهم الحظ ليكونوا بمثل كفاءة مونتجومري فكان يقول لهم بصراحة إنهم على قدر كبير من الكفاءة ولكن ذلك القدر لا يكفيه .

كان الجيش الثامن في تلك الآونة منتشراً على خط طوله ٤٠ ميلا يمتد من منخفض القطارة حتى قرية العلمين ، وهو الاسم الذى اشتهرت به العملية التالية . وقد أدرك مونتجومري لساعته أن طبيعة حرب الصحراء قد تغيرت ، فحرب الدبابة ضد الدبابة ، والمعارك التي تجرى على نمط المعارك البحرية في الرمال المترامية ، قد تحولت في تلك الفترة إلى حرب الخنادق الثابتة كما كانت في الحرب العالمية الأولى . فسلاح الهجوم في معركة العلمين ينبغي أن يكون هو جنود المشاة الذين وصفوا في الحرب السابقة بأنهم ، تلك الفئة المضرجة بالدماء الخليقة بالرثاء ، وأن يكون على المدفعية وسلاح الطيران تمهيد السبيل ، أما الدبابات فعليها أن تنتظر حتى يستبعد السداد من عنق الزجاجة .

شعر مونتي أن حسابه يدل على احتمال النجاح . فإذا نفذ خطته ، وإذا استطاع أن يحطم الدبابات الألمانية ، فليس أمام روميل إلا أن يقطع مواصلة القتال ثم يفر . في الصحراء لا تستطيع أن تثبت وتمضى في الحرب بغير أسلحة مدرعة .

ولما نشبت الحرب العالمية الأخيرة قاد الفرقة البريطانية الثالثة فى فرنسا ، وخاض بها غمار الحرب فى دنكرك ، ثم عيّن بعدها قائداً للفيلق الخامس ، ثم قائداً للقطاع الجنوبى بانجلترا .

وعندما تزوج وهو فى سن الأربعين أقام أمور منزله على النظام العسكرى ، فكان يصدر الأوامر اليومية للعناية بابنه الوحيد وتنشئته ، ولما سأله بعضهم أهو يتمنى مزيداً من الأولاد ، أجاب قائلا : « كلا بكل تأكيد ، فعندى ما يكفينى من أعمال أركان الحرب » .

وفى عام ١٩٣٧ توفيت زوجته وهو فى ذلك يقول « لقد اعتدت أن أنهى كافة أعمالى بمشاركة زوجتى ... » ..

وهو يهوى تربية الطيور ويغرم بدراسة التاريخ الحربى والتعمق فى الدراسة الفلسفية لفن القيادة حتى أجادها ، بدليل أنه قام فى أسابيع قليلة بتنفيذ الأعمال الضخمة التى عجز الجنرال أوكنلك عن القيام بها فى شهور عديدة ، بل استطاع فى أيام قلائل أن يفرض شخصيته على كل فرد فى الجيش الثامن ، ذلك الجيش الذى جمع الكثيرين من مختلف الشعوب والأجناس ، ففيه الإنجليزى والأفريقى والاسترالى والهندى واليونانى والفرنسى الحر . . خليط لم تر مثله معركة فى التاريخ . وإذا نحن أردنا أن نلخص أعمال مونتجومرى فى تلك الآونة وجدناها غاية البساطة : تفتيش مستمر على وحداته ، وتمرين متواصل مرير على الحرب الحقيقية فى خشونة تبلغ حد القسوة جعلت جميع الرجال يتلهفون على القتال تخلصاً من هذا التدريب الشاق ! وليس هذا عليه

كانت قوات الجيش الثامن تشمل الفيلق العاشر المدرع (وهو يتكون من فرقتين مدرعتين والفرقة الثانية النيوزيلندية) ولواءين مدرعين وست فرق مشاة هى الفرقة ٩ الاسترالية والفرقة ٤ الهندية التى استولت عنوة على هضاب كيرين فى إريترية والتى انتزعت من الألمان فى مصر ، ذلك المضيق الصخرى المعروف باسم حلفايا ؛ والفرقة الأولى من قوات جنوب أفريقيا ، والفرقة ٥١ الهايلاندرز ، والفرقتين ٥٠,٤٤ البريطانيتين ، وكان معه أيضاً قوات من المحاربين الفرنسيين واليونانيين . هـذا ولم تعرف حقيقة القوة الجوية التى كانت تحت تصرف الجنرال كاننجهام ولـكنها كانت كافية لمهاجمة خطوط تموين المحور بما لا يقل عن ٧٠٠ قاذفة قنابل .

وكانت قوات المحور على جبهة العلمين فى أكتوبر ١٩٤٢ تتكون من فرقتين بانزر (١٥ ، ٢١) والفرقة ٩٠ المشاة الخفيفة الميكانيكية ، والفرقة ١٦٤ المشاة الخفيفة (التى نقلت جواً من كريت) ، وفرقتين إيطاليتين مدرعتين (الأريتا والليتوريو) وفرقة تريستا المشاة الميكانيكية . وهذه القوات كانت تكوّن الفيلق ٢٠ خفيف الحركة وكان معها خمس فرق مشاة هى فرق ترنتو ، وبريشيا ، وباڤيا ، وبولونيا ، وفوليورى ، وكان مجموع قواتها فى ٣ أكتوبر يقدر بنحو ٩٠,٠٠٠ رجل و ٦٠٠ دبابة و ٤٠٠ مدفع و ٩٠٠ مدفع مضاد للدبابات (منها بعض مدافع عيار ٨٨ مم) و ٦٠٠ طائرة .

وأخيراً أرسل المستر تشرشل أمره إلى كل من الجنرال ألكسندر

والجنرال مونتجومرى مؤذناً لها بابتداء المعركة . ولم تكن تلك الأوامر سوى رسالة بسيطة لا تزيد عن بضع كلمات وفيها يقول « إن واجبكم الأول والأساسى هو تدمير الجيوش الألمانية والإيطاليـة بقيادة الفيلد مارشال روميل بأسرع وقت ، والاستيلاء على جميع معداته ومراكز تموينه فى كل من مصر وليبيا » .

وبالمثل كانت تعليمات مونتجومرى غاية فى البساطة أيضـاً ليسهل فهمها والقيام بإتمامها بالرغم من تدخل العدو ، كما كانت خطته أيضـاً مرسومة على أساس المفاجأة والخديعة واستعمل لهذا وسائل شتى .

ولكى يحصل مونتجومرى على الحرية التامة فى تنفيـذ الخطوات التحضيرية ، قام بتشكيل جيش احتياطى فى المناطق الخلفية ، وقد أفاد هذا الجيش فى تأمين القاعدة ضد أى هجوم مفاجىء . ثم جمع فرقتين مدرعتين ومعهما الفرقة الثانيـة النيوزيلندية وشـكل منها قوة اقتحـام خاصة أسماها الفيلق العاشر المدرع . وكانت هذه القوة مسلحة بالدبابات الأمريكية التى وصلت حديثاً ، وبمدافع اقتحام ذاتية الحركة ، وقد أعد لها مونتجومرى برنامجاً دقيقاً لتدريبها وإعدادها لمهمة الاقتحام التى كانت قد خصصت لها .

كانت خطة مونتجومرى ترمى إلى الحصـول على أقصى قـدر من المفاجأة والخداع ، وكان يأمل بذلك فى تضليل روميل عن اتجاه هجومه الرئيسى حتى لا يحشد هذا الأخير قواته المدرعة بأكملها فى مواجهته ، خصوصاً وقد كان مونتجومرى يعلم ببراعة جنودها وشجاعتهم وحسن

تدريبهم . فعمل على إيهام روميل بأن الهجوم الرئيسى سيوجه فى أكثر من مكان واحد حتى يضطره بذلك إلى توزيع قواته المدرعة وبذا تسهل عليه عملية الهجوم الرئيسى . وعلى ذلك فقد كلف الفرقة الرابعة الهندية بالتظاهر أمام تبة الرويسات ، والفرقتين ٥٠ و ٤٤ شمال وجنوب دير المناسيب ، والفرقة ٧ المدرعة جنوب الحميات . فى حين كلف الفرقة الاسترالية بتثبيت الفرقتين ١٦٤ و ٩٠ وفرقة تريستا من قوات المحور على طول الساحل . أما الهجوم الرئيسى فكان موجهاً إلى شمال تل العيسى حيث كان على الفيلق العاشر المدرع أن يقوم بالاقتحام خلال ثغرة يقوم بفتحها له المهندسون والمشاة . وكان الجزء الذى سيتم فيه هذا الاقتحام هو أقوى أجزاء الجبهة الألمانية ، فى حين كانت النقطة التى يتوقع الألمان أن يحدث منها الهجوم البريطانى هى تبة الرويسات .

وكانت خطة مونتجومرى من هذه الوجهة تشبه الخطة الخداعية التى اتبعها اللنبي فى الهجوم على غزة فى عام ١٩١٧ ، فأنشأ منطقة لتجمع السيارات فى مؤخرة منطقة الاقتحام ، وكانت الطائرات الألمانية تأتى يومياً لمراقبة منطقة تدريب الفيلق العاشر المدرع خلف الخطوط ، فى حين كانت كتائب من الدبابات ماركة ٤ مموهة على شكل سيارات تنقل كل ليلة إلى منطقة تجمع السيارات ويسحب بدلها عدد مماثل من السيارات ، فى حين كانت تجرى التحضيرات الأولية لاقتحام المشاة وفتح الثغرة عند تل العيسى ، ونجحت هذه الخطة فعلا ، فإن التحضيرات الأولية التى كان يقوم بها مونتجومرى لم يقتصر تأثيرها على خديعة

الألمان فيما يختص بالوقت المحدد للهجوم فحسب ، بل أنها اضطرت الجنرال فون شتوم إلى تقسيم قواته المدرعة ، فأرسل الفرقة ٢١ وفرقة أريتا المدرعة إلى الجنوب لمواجهة التجمعات البريطانية هناك واحتفظ بفرقة الليتوريو فى الشمال . ولزيادة إرباك قوات المحور رأى مونتجومرى أن يوهم روميل بأنه ستحدث عملية كبيرة لإنزال الجنود خلف خطوطه على الساحل ، ففى يوم الهجوم وهو يوم ٢٣ أكتوبر عام ١٩٤٢ ، خرجت قافلة كبيرة من السفن من ميناء الإسكندرية فى الساعة ١٦٠٠ متجهة غرباً . وقد تم شحن هذه السفن بالجنود والدبابات على مرأى من كثير من الناس ، ولا بد أن يكون بينهم بعض عملاء المحور ليرسلوا إليه أنباء تلك التحركات . وقد عادت معظم تلك السفن ثانية إلى الإسكندرية تحت جنح الظلام ، بينما كانت الخطة قد وضعت لتقوم السفن القليلة الباقية بهجوم تظاهرى على الشاطىء خلف خطوط المحور تستخدم فيه مدافع الهاون والرشاشات والإشارات الضوئية ويعززه ضرب قوى من مدافع الأسطول حتى يعتقد المحور بأنها عملية كبرى خلف خطوطه لإنزال الجنود . وكان تحديد موعد تلك المظاهرة بحيث تبدأ بعد الهجوم الرئيسى الفعلى بثلاث ساعات فيضطر روميل إلى حجز احتياطيه بالمنطقة الساحلية .

هذا ولم يكن روميل يعتقد بقرب وقوع الهجوم ، فسافر إلى برلين تاركاً الجنرال فون شتوم فى قيادة الفيالق الأفريقية ، وهناك فى برلين وفى إحدى حفلات الفوهرر كان روميل ضيف الشرف فيها ،

ولم تكن لتعوزه الثقة وقتذاك فى قرب انتصار جيوشه ، فقال لمراسلى الصحف : « نحن الآن على أبواب مصر ، وقد عزمنا على العمل النهائى . وإننا لم نتسرع فى دخولها خشية أن نضطر إلى مغادرتها ، ولكن ثقوا أننا لن نحيد عن أهدافنا » .

وفى ذلك الوقت كانت طائرات الحلفاء قد ظلت مدة أسبوعين تلقى قنابلها على الأهداف الحربية فى مؤخرة روميل فى حين كانت الطائرات المطاردة تحاول تطهير الجو من الطائرات الألمانية . ولما دنت ساعة البدء اشتد الهجوم الجوى ، وأخذت القاذفات تذهب وتجىء ضاربة خطوط تموين روميل ومطاراته ، بينما كانت طائرات المطاردة تنزل أشد العقاب بخطوطه الأمامية ومواقع مدفعيته .

وكان مونتجومرى يعتقد أنه ينبغى على كل رجل ، من القادة إلى الجنود ، أن يعلم ماذا يجرى فى الميدان وماذا ينتظر منه أن يعمل ، ولذلك فإنه دعا ضباطه فى إبان اشتداد الهجوم الجوى ، وأفضى إليهم بخطته ثم صرفهم ليخبروا وحداتهم .

وفى الليلة المحددة للهجوم تحدث الجنرال مونتجومرى إلى جيشه فقال : « عندما توليت قيادة هذا الجيش قلت لكم إن الأوامر تقضى علينا بتدمير روميل وجيوشه وإن هذا سيتم لنا بمجرد إتمام استعداداتنا ، وستدور المعركة بعد فترة قصيرة ، وستكون من المعارك الفاصلة فى التاريخ لأنها نقطة التحول فى هذه الحرب » .

وقبل بدء الهجوم بنصف ساعة ، فتحت المدافع أفواهها وأخذت

تقذف حممها بشدة لم يسبق لها مثيل منذ الحرب العظمى الأولى ، وكانت المدافع البريطانية مصفوفة متلاصقة على طول خط العلمين البالغ أربعين ميلا ، وكان مونتى يردد على الدوام « إن ستار نيران المدافع يجب أن يبلغ من القوة والشدة مبلغاً يزعزع قلوب الأعداء » .

وفى الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم الجمعة ٢٣ أكتوبر فتحت المدافع البريطانية فوهاتها لتقذف مواقع المحور فى جبهة العلمين بغلالة من النيران لم يسبق لها مثيل فى شدتها ، فسقطت هذه القذائف على المواقع الأمامية وحطمت مواقع المراقبـــة وقطعت خطوط المواصلات . وتقدمت طلائع المشاة والمهندسين خلف ستائر الدخان والنيران المضادة للدبابات ثم تبعتها المشاة ، بينما كان السلاح الجوى يقوم بأشد الغارات على المطارات ومراكز المواصلات ومواقع التجمع ومخازن التموين ، مما جعله أقوى هجوم جوى وقع فى الشرق الأوسط منذ بداية الحرب .

وقد استمرت المدفعية والمشاة سبعة أيام كاملة تعمل دائبة على توسيع ثغرات حقول الألغام ، وفى ليلة ٢٦ أكتوبر قتل الجنرال فون شتوم فانتقلت قيادة الفيالق الأفريقية إلى الجنرال ريترفون توما ، وقد بذل هذا جهد المستميت فى تجميع قواته المدرعة لصد الهجوم البريطانى . وكم مات من رجاله فى سبيل كل شبر من الأرض يكسب أو يفقد ، ولكن كمية النيران وسرعة وسمك الفولاذ فى الدبابات الأمريكية ماركة ٤ ، وكذلك قوة المدافع ١٠٥ مم فى إصابة الهدف

وتجمع المدافع المضادة للدبابات . . كل تلك العوامل مجتمعة ساعدت على أن يخسر الجنرال توما القوة الأساسية لقواته المدرعة فى قتال دام يوماً واحداً عند تل العقاقير حيث تقابلت قوات الحلفاء بفلول الفرقتين ١٥ و ١٦ المدرعتين وصكتهما صكا شديداً وحطمت ثلث الألف دبابة التى كانت مع قوات المحور ، وأسرت الجنرال توما .

وعند ذلك تهلل وجه مونتجومرى فرحاً وقال فى أحد أوامره اليومية للجنود : « فى أقصى الغرب صيد صالح ، فامضوا فى مهمتكم ، وأتمنى لكم جميعاً صيداً طيباً . . . » .

وأسرع قواد المحور فى جمع شتات فيلقهم المنهزم بسيارات النقل وتركوا معظم الجنود الإيطاليين خلفهم حين أعوزتهم السيارات . وكانت قوات المحور المتقهقرة على طريق الساحل تحارب بين الحين والحين حرب مؤخرة لكسب الوقت ، ومونتجومرى يتعقبهم بجيشه الثامن « المنتقم » فأسر فى طريقه ٨٠,٠٠٠ من الإيطاليين و ٢٠,٠٠٠ من الألمان .

ويقسم البريطانيون معركة العلمين إلى مرحلتين : الأولى عبارة عن اختراق المشاة ، والثانية معركة الدبابات عند تل العقاقير ، ويعتبرون أن المرحلة الأولى هى التى جعلت المرحلة الثانية ممكنة التنفيذ ، وأن المرحلة الثانية عززت النجاح فى المرحلة الأولى . أما المرحلة الأولى فقد تمت فى تسعة أيام ، وأما الثانية فانتهت فى بضع ساعات ، وأصبح تل العقاقير مقبرة لأسلحة المحور المدرعة ، وبهذا انتهت معركة العلمين وبانتهائها كسب الحلفاء معركة مصر وما تلاها مما لم يزد عن كونه متابعة للنجاح الأولى .

وبعد نهاية المعركة انتقد الجنرال مونتجومرى طريقة توزيع الفيالق الإفريقية وقيادتها ، وأبان للجنرال توما وهو فى الأسر أنها كانت موزعة بشكل خاطىء ، كما أبدى مونتجومرى مزيد أسفه على تغيب المارشال روميل فى تلك الآونة ، وود لو أنه كان موجوداً ليأسره فى ذلك اليوم بدلا من الجنرال توما ليتحادثا سوياً فى تفاصيل المعركة. وكان مونتجومرى يقرّ بقدرته الفذة فى القتال ، ولكن كان يرى فيه ضعفاً واحداً ، وهو أنه يكرر أساليبه وخططه مما ساعد مونتجومرى على الانتصار عليه . أما مونتجومرى فقد أظهر أنه متنوع الأساليب ، ذلك أنه اتبع أسلوب الحرب العالمية الأولى فى تحطيم خط العلمين ، أما فى خط مارث فقد جمع بين الهجوم بالمواجهة وبين الاندفاع الجرىء فى الصحراء للالتفاف حول جناح العدو ، وفى مواقع أخرى حطم استحكامات المحور بهجوم قواته المدرعة .

وكان مونتجومرى مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الكوارث التى حلت بالحلفاء من قبل إنما نجمت عن ضعف التعاون بين سلاح الطيران والجيش والمدفعية ، فصمم على عدم تكرار هذا الخطأ . وقد كان القائد الجوى السير أرثر كاننجهام يقيم مع مونتجومرى فى مقر قيادته ، فوضعا معاً خطة التعاون بين الطيران والجيش مما لم يقتصر أثره على هزيمة قوات المحور فحسب بل أصبح نموذجاً يحتذى فيما تلا ذلك من عمليات .

إن المتتبع لأحوال الجيوش الألمانية وإدارتها فى الحرب ليعجب

أشد العجب من أمر تلك المعركة ، فالألمان ولا شك كانوا يتوقعون هجوماً عنيفاً من ناحية البريطانيين ، فكيف إذن يقفون على خط رفيع عند العلمين دون أن يوزعوا قواتهم بعمق كاف ؟ كما أن الاستيلاء على بضعة أميال فى الصحراء قد يكون أمراً يهم سمعة الألمان ومركزهم الأدبى ، ولكنه من الناحية الاستراتيجية عديم الفائدة ، فكيف إذن يحاولون التشبث بهذا الخط الرفيع من الأرض لدرجة كادت تؤدى إلى تدمير قواتهم الأساسية المدرعة بأكملها ؟ وقد ظل السؤال الذى لم يجد له أحد جواباً حتى اليوم هو : هل كان اختيار خط العلمين من أفكار روميل ، أم كان أمراً من زعيمه هتلر ؟ .

ويقول الرجال العسكريون البريطانيون إن الألمان قد ارتكبوا فى هذه المرحلة كافة الأخطاء التى وقع فيها البريطانيون من قبل ، أما هم فقد تعلموا حرب الصحراء الميكانيكية من المعارك التى خسروها ويقولون إنهم جاهدوا عامين كاملين لعلهم يظفرون بتحطيم الفيالق الإفريقية ، ولكن مهارة روميل فى استخدام الأسلحة الميكانيكية وقدرته الفذة فى تجميع قواته المدرعة ومهارته التكتيكية الفريدة فى نوعها وتفوّق مدافعه المضادة للدبابات وعنايته بصيانة الدبابات وإصلاحها ، هى العوامل التى كانت تفسد على البريطانيين محاولاتهم ، بل كثيراً ما حولت انتصاراتهم إلى هزائم . لقد جبل القواد البريطانيون فى كافة المعارك السابقة فى الصحراء على أن يدفعوا بدباباتهم للقتال على دفعات قليلة . فكانت تلك الدبابات تلقى التدمير الكامل من دبابات

روميل المتجمعة — حقاً لقد قاسى البريطانيون الهزائم المريرة حتى أمكنهم أن يتعلموا فى النهاية ألا يشتركوا فى قتال مع الدبابات إلا والمدافع المضادة للدبابات على قرب من دباباتهم، كما تعلموا قيمة التعاون الوثيق بين الجيش والطيران .

وبهذه الوسائل، وعلى ضوء الدروس التى تعلمها الجيش من هزائمه السابقة، تمكن مونتجومرى من تقليل خسائره. وكثيراً ما كان يؤكد لجنوده أنه لن يدفع بهم إلى المعركة إلا إذا أيقن أن له أملا معقولا فى النصر ؛ كما كان يشرح لهم باستمرار سير المعارك والدور الذى تم فيها بفضل مجهوداتهم وبذلك كان يغرس فيهم روح الثقة بالنفس، وجعل الجميع يتفانون فى العمل تحت قيادته .

وبعد نهاية معركة العلمين استدعى مونتجومرى المراسلين الحربيين إلى خيمته فى مركز الرياسة وقال :

« لقد هزمنا العدو وقد أوشكنا الآن على تدميره » . ولما سئل عن سر نجاحه فى معركة العلمين ذكر النقط الآتية ، وهى التى كان يرى أنه لا غنى عنها للقواد :

١ — كن بسيطاً فى كل شىء .

٢ — امنع المكاتبات وعود مرءوسيك على العمل بالأوامر والتعليمات الشفوية .

٣ — ادرس الروح المعنوية واعتن بتنميتها واعلم أنها شىء عظيم فى الحرب وبدونها لن تكسب شيئاً .

٤ ــ عندما يبدو الموقف غير مستقر فى كفة الميزان اظهر منتهى ثقتك فى العمليات والخطط حتى ولو كنت تشعر بعدم الاطمئنان إلى نتائجها .

٥ ــ انتخب لك رئيس أركان حرب حازم تثق به وابتعد عن التفاصيل واتركها له .

٦ ــ وأخيراً لا تحمل هماً .

ثم التفت مونتجومرى بعد ذلك إلى مراسلى الصحف وقال لهم مازحاً « هل أعجبتكم قبعتى ؟ » وكان يضع على رأسه قبعة سوداء من نوع البيريه ويضع عليها شعار كثير من الوحدات . ثم أسرع إلى دبابته واختفى بها وسط رمال الصحراء .

وبالرغم من كل المحاولات التى قام بها الجيش الثامن ، تمكنت بعض الفيالق الأفريقية من الإفلات بانسحابها السريع وقيام مؤخرتها بكثير من أعمال التدمير والتخريب لستر هذا الانسحاب . وعبثاً حاول مونتجومرى الالتحام معهم فى معركة حاسمة ، إذ استمر انسحابهم من برقة وليبيا حتى استقروا فى تونس ، واقترن هذا الانسحاب بانتصار البريطانيين فى ممر حلفاية ، والسلوم ، وطبرق ، ودرنة ، وبنغازى ، والعجيلة ، واستغرق هذا التقدم ثلاثة عشر أسبوعاً قطع مونتجومرى فى خلالها ١,٣٠٠ ميل ووصل إلى أهداف استعصت من قبل على ويفل وكاننجهام وريتشى ، كما قضى بهذا النصر على أحلام الفاشيست بإقامة دعائم إمبراطورية عظيمة فى شمال أفريقيا .

واحتفالا بهذا النصر قرر مونتجومرى إقامة عرض كبير لقواته فى تونس بالرغم من شدة إعيائها بعد طول القتال والسير . فتذكر الضباط بهذه المناسبة قول المستر تشرشل :

« إن مونتجومرى لا ينهزم أمام الهزائم ولا يقهر وقت التقهقر ولا يطاق وقت النصر » .

كان انتصار مونتجومرى عند العلمين وتقدمه إلى تونس جزءاً من خطة عامة للحلفاء ترمى إلى طرد جيوش المحور نهائياً من أفريقيا . ففى تلك الآونة ، أعنى فى نوفمبر عام ١٩٤٢ ، نزلت القوات الأمريكية إلى شواطىء أفريقيا الفرنسية الشمالية ، ولكنها عجزت فى البداية عن الاستيلاء على كل الموانىء المهمة فى تونس وبنزرت ، فأسرعت القوات الألمانية والإيطالية بالانتقال إلى تونس لإيقاف هذه المغامرة الأمريكية . ولسوء الأحوال الجوية تحولت هذه الحرب بعد ذاك إلى حرب موضعية ، ولعل أبرز أعمال مونتجومرى فى هذا الوقت هو اختراقه خط الدفاع فى تونس وقيامه بحركة التفاف واسعة بقواته المدرعة حول هذا الخط أدت فى النهاية إلى انتصار الجيوش الأمريكية والبريطانية وتسليم فون أرنيم وقواته وانتهاء حملات المحور نهائياً فى شمال أفريقيا .

لم ينته دور الجنرال مونتجومرى عند هذا الحد . ففى يوليو وأغسطس عام ١٩٤٣ قاد مونتجومرى الجيش الثامن خلال سلسلة من أعنف المعارك فى صقلية . وعند نهاية تلك الحملة كانت قواته أول من اقتحم القارة الأوروبية . ففى ٣ سبتمبر عام ١٩٤٣ ، وهو اليوم الذى

وقعت فيه إيطاليا الهدنة ، نزلت قوات مونتجومرى فى ريچيو كالاريا .
وعند ما قام الجيش الخامس الأمريكى ومعه القوات البريطانية بتلك العملية الجريئة التى أنزلوا فيها قواتهم فى سالرنو ، أجبرت قوات مونتجومرى الأعداء على رفع قبضتهم عن رأس الشاطىء الخاص بالحلفاء .

ومن ذلك الوقت حتى ٢٤ ديسمبر ، قام مونتجومرى بإدارة العمليات فى الجانب الشرقى لشبه الجزيرة الإيطالية .

وفى عيد الميلاد أعلن أن الجنرال مونتجومرى سيقود القوات البرية البريطانية تحت القيادة الجديدة التى تولاها الجنرال أيزنهاور . وقد رحب مونتجومرى بهذه المهمة ترحيباً عظيما ، فى حين كان ترحيب الشعب البريطانى بهذا التعيين مما يفوق الوصف ، فقد كان البريطانيون يعرفون أن شخصية مونتجومرى وحسن زعامته كانتا مما أكسب الجيوش البريطانية تلك الروح العالية والكفاءة الممتازة التى كانت ضرورية لهزيمة الفيالق الألمانية فى أفريقيا ، وأنها ستكون من العوامل التى ستحقق للحلفاء النصر النهائى فى الحرب .

لقد أضاف مونتجومرى شيئاً جديداً على التاريخ العسكرى البريطانى ، ذلك هو « روح حب الجيش » . لقد كان الموجود قبلا من هذه الروح قاصراً على « حب الوحدة » ، ولم تكن هناك تلك الروح التى تستطيع أن ترفرف بجناحيها على جيش بأكمله . وفى الرسالة التى أذاعها مونتجومرى على الجيش الثامن فى عيد الميلاد مودعاً له قال : « ما هو سر قوة هذا الجيش العظيم ؟ إن هذه القوة كامنة فى روح التضامن

التى ترفرف عليه ، وفى العزيمة الصادقة التى يتميز بها كل فرد من أفراده فى تأدية الواجب ، وفى روحه المعنوية العالية . إن هذا الجيش لهو بمثابة أسرة كبيرة ندر أن يوجد مثيل للروح الطيبة التى تسرى فى مجموع أفرادها » .

هذا وبتدفق القوات الأمريكية وازدياد قوتها ، أعطى للجنرالين برادلى وديفرز قيادة مجموعة من الجيوش فى حين احتفظ الجنرال مونتجومرى بقيادة الجيوش البريطانية والكندية .

وعندما بدأ رونشتد هجومه المفاجىء الذى قام به فى الأردين يوم ١٦ ديسمبر ١٩٤٤ ونجح فى قطع المواصلات بين الجيوش المتحالفة فى تلك المنطقة ، عهد إلى مونتجومرى بالقيادة مؤقتاً للجبهة الشمالية لكى يقضى نهائياً على الهجوم الألمانى .

وفى بداية عام ١٩٤٥ كان مونتجومرى لا يزال يردد إعجابه بمقدرة الجيوش الألمانية فى القتال وشدة عنادهم مما كان يبدو جلياً فى الجبهة الغربية ، ومع ذلك فإنه كان على تمام الثقة بالنصر ، وقد شاطرته القوات البريطانية فى فرنسا تلك الثقة ، ولعل التاريخ سيذكر له أنه الرجل الفرد الذى وضع الأساس الروحى لنصيب الجيوش البريطانية من النصر على ألمانيا .

وإذا كانت الحكومة البريطانية قد منحته رتبة الفيلد مارشال فى أول سبتمبر عام ١٩٤٤ تقديراً لخدماته ، وهى خدمات ستبقى ولا شك عالقة فى أذهان الشعب البريطانى ما بقى الزمن .

لقد قيل عن الجنرال ألكسندر أنه رجل يصعب إرضاؤه ، وقيل عن مونتجومرى أنه رجل يصعب العمل معه ، وقد يكون من الطريف أن نعلم بحكم الجنرال ألكسندر فى مونتجومرى بعد أن خدم معه فترة طويلة من الزمن إذ قال : « عندما يتوافر لك قائد ممتاز فدعه وشأنه . إن كل ما كنت أفعله هو أن أذكر لمونتى ما أريده ، ولا أزيد شيئاً فيقوم هو بكل شيء حتى يتم تنفيذ ما كنت أقصده بالضبط ، ولم يحدث يوماً أن ساورنى القلق على نتيجة ما كنت أطلبه منه » .

والواقع أن الجنرال مونتجومرى قد أظهر مع الجنرال ألكسندر تضامناً وثيقا جعل الجيوش البريطانية فى كل مكان تفخر ، وبحق ، بروح قوادها الطيبة .

هذه هى قصة مونتجومرى ، أو قصة رجل أدى لأمته كل ما يمكن أن يؤديه الرجل الشريف لأمته ، وتفانى فى أداء واجبه وأخلص لوطنه ، وأدى الأمانة الملقاة على عاتقه خير أداء ، فأنزلته أمته المنزلة التى تليق بمثله ووضعته على رأس الجيش البريطانى ...

الرجـــل الذى اقتحم أوروبا



« الجنرال دوايت أيزنهاور »

ايزنهاور

الحرب مهنة ، والقيادة فن ، وكلاهما يحتاج إلى الدرس والمران . أما الدرس فمن السهل القيام به ، وأما المران فيحتاج إلى الكثير من العناء .

وقد يقال إن المناورات التى تقوم بها الجيوش كفيلة بتحقيق مثل هذا الغرض ، ولكن الواقع أن المناورات لا تفيد إلا بقدر محدود ، فإنه من العسير فى وقت السلم أن نهيء كافة ظروف الحرب التى تعانيها الجيوش المقاتلة لنخلق بذلك فرصة ملائمة لتمرين القادة . ولو استطاعت أمة من الأمم أن تخلق لجيشها ولقادتها مثل هذه الفرص ، فهل من المعقول أن تسمح هذه الفرص بتجميع جيوش أمم مختلفة تتاح لها ظروف الحرب الحقيقية ليتمكن قائد أو اثنان من قيادة هذه الجموع المحتشدة من القوات ؟ وإننا لنستنتج من ذلك أنه عندما تنشب الحرب وتنضم بعض الأمم إلى بعضها البعض فى حرب مشتركة ، يصبح من العسير بل ومن النادر العثور على القائد الذى له سابق خبرة بقيادة جملة جيوش ليعهد إليه بمهمة القيادة العامة . ومن هذه الحقيقة أيضاً يمكننا أن نستخلص أنه لا توجد مدرسة لتخريج القادة لتولى العمليات الحربية الواسعة النطاق على مسارح الحرب غير الحرب نفسها .

فإذا قدر لبعض الأمم أن وجدت نفسها أمام حرب ضروس ، فليس عليها إلا أن تختار قائداً تتوسم فيه بعض صفات خاصة ، ثم

تعهد إليه بمهمة قيادة جيوشها . وما عليها بعد ذلك إلا أن تنتظر الحوادث لتحكم على صدق فراستها ، أما هذه الصفات المخصوصة التى تهيء صاحبها لمثل هذا الاختيار فكثيرة لا تحصى ، بل وقلما تتوافر جميعها فى شخص واحد ، ولكن سنعرضها هنا على سبيل المثال . فمثل هذا القائد يجب أن يلم بطرق ونظريات الحرب الحديثة . ولا بد أن يكون وثيق الصلة كثير المعرفة بخواص الرجال والمعدات ، منظماً وإدارياً من الطراز الأول ، وأن يكون قوة دافعة منفذة ، وأن يكون متحمساً للغرض الذى يحارب من أجله . كما يجب أن يكون ذا عقل متحمس ميال إلى التجديد والتطور ، فلا يقف حيث انتهت الحروب السابقة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يتحتم عليه أن يكون مرناً لين الجانب منسقاً وسياسياً وذا صبر لا ينفذ . كما يجب أن يكون متحلياً بالقدرة على الإقناع وقوة البيان وبعد النظر . وكشخص كثير التعامل مع شعوب وحكومات متباينة يجب عليه أن يقدر ظروفها المختلفة وأن يعمل على معاونتها ، كما يجب عليه أن يتوخى الحيطة والحذر فى أعماله وتصرفاته .

هذه بعض الصفات التى يجب أن تتوافر فيمن سيوضع فى يده مصير الشعوب والحكومات . وقد تتوافر هذه الصفات كلها أو بعضها فى الكثير من القادة ، ولكن أين لنا بالرجل الذى يستطيع أن يسبر غور الرجال فينتقى لنا منهم من تتوافر فيه هذه الصفات ، بل وأين لنا بالشجاع الذى يأخذ على عاتقه هذه المهمة الشاقة ، فإن قدر وأساء الاختيار فقد عرض أمته وباقى الأمم المتحالفة لذل الانكسار ...

ومن هنا تتجلى عظمة الجنرال « مارشال » رئيس هيئة أركان حرب الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد استطاع بفطنته وبعد نظره أن يتوسم كل هذه الصفات فى شخص قائد بسيط ؛ ولو قدر وأبدى للأمريكيين مثل هـذا الرأى قبـل بداية الحرب ، لقوبل بعـاصفة من السخرية والاستغراب . فأين للبكباشى « دوايت أيزنهاور » ، قائد أحد آلايات المشاة فى جيش الولايات المتحدة ، كل هذه الصفات التى تؤهله لقيادة جيوش الأمم المتحدة ؟ ولـكن مما أثلج صدور الأمريكيين أن صدقت فراسة الجنرال « مارشال » ، فلم يمض عامان إلا وقد نجح هذا القـائد فى إنزال حملة الحلفـاء على شواطىء أفريقيا ، بل وضرب رقماً قياسياً لقادة المستقبل فى الإدارة وحسن التنظيم ، كما استحق إعجاب الإنجليز ، فقبل تشرشل بصدر رحب وضع الجيوش البريطانيـة تحت إمرته مع ما فيها من قواد لهم شىء كثير من سابق الخبرة فى الحرب .

ولو تتبعنا سيرة هذا الرجل لوجدنا أنه لم يسبق لضابط آخر أن ارتقى فى صفوف الجيش الأمريكى بنفس السرعة التى ارتقى بها « أيزنهاور » ولـكن لم يكن هذا الارتقاء وليد المصادفة بل كان نتيجة حتمية لشدة حيويته وتحمله لأعباء المسئوليات الجسام . وإن التجارب والشدائد التى مرت به كـفيلة بأن تضعه فى مقدمة أكبر القادة المنظمين فى عصرنا الحاضر .

ولد داڤيد دوايت أيزنهاور فى اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٩١ فى بلدة دينسون بولاية تكساس ، حيث كان والده يعمل كمهندس إنشـاءات فى أعمـال السكك الحديدية . وهو يوقع باسمه « دوايت داڤيد أيزنهاور » ولـكنه مقيد فى دفتر المواليد باسم « داڤيد

دوايت أيزنهاور ، ويرجع هذا العكس فى ترتيب الاسم إلى أن والدته كانت تناديه دائماً باسم « دوايت » ، وفيما عدا ذلك فقد كان الجميع ينادونه باسم « آيك » .

اشتهر الجنرال « آيك أيزنهاور » ، قائد قوات الحلفاء فى مسرح العمليات الحربية بشمال أفريقيا ، فى جميع الأوساط العسكرية بأنه رجل ذو تفكير متزن وعقل جبار ، وتكاد هذه الشهرة تلازمه منذ اليوم الذى تخرج فيه من الكلية الحربية حيث قيل عنه وقتئذ إنه أحد اثنى عشر ضابطاً صغيراً يتنبأ لهم العارفون بتولى القيادات العليا . وقد كان ترتيبه الأول فى التخرج من مدرسة القيادة وأركان الحرب فى فورت لافنورث .

وأيزنهاور يتميز بالكثير من التواضع ، وهى صفة نلاحظ أنها لازمت معظم كبار القادة . وهو لم يكن يفتأ يصرح بأنه جد شاكر للظروف التى هيأت له تولى القيادة ، لا سيما وقد ظل قابعاً وراء مكتب جامد طيلة سنوات عديدة وهو يشاهد بغيظ مكتوم غيره من الضباط الذين ينتقلون من وراء المكاتب إلى قيادة وحدات عاملة فى الجيش الأمريكى ، وكان يمنى نفسه بقيادة فرقة أو حتى آلاى يستطيع أن ينسبه إلى نفسه .

لم يكن الجنرال أيزنهاور يسمح لنفسه مطلقاً بأن تعطله فى تنفيذ خططه إجراءات الروتين العادية بالجيش . ولهذا فإنه يفضل المقابلات الشخصية السريعة مع أولى الأمر على عقد المؤتمرات المعتادة وتحرير المذكرات الضافية ، ولما كان هو نفسه خبيراً فى وضع القرارات

الشاملة فى اختصار مفيد ، فإنه يحتقر التقارير المطولة المصوغة فى كلمات إنشائية جوفاء ، وقد أصدر أوامره لضباط أركان حربه بألا يستأذن أحد منهم فى الدخول عليه بمكتبه ، وكان إذا شاهد أحد الضباط الأصاغر واقفاً بحياء على باب مكتبه متردداً فى الدخول وهو يمسك بيده أوراقاً للعرض ، كان يتبع طريقته الخاصة فى تشجيعه فيقول : « إن كنت تبغى عملا فهاته ، إن هذا ليس مخدعاً ... » .

ومن طريف ما يحكى عن ديموقراطيته القصة التالية : « كان ذلك فى شمال أفريقيا ، وكان أيزنهاور يتحدث إلى بعض القادة البريطانيين ، وإذا بأحد جنوده يحييه ويستأذنه فى أن يأخذ عربته الخاصة لمهمة يريد قضاءها ، فأذن له أيزنهاور » وهنا علق أحد القادة البريطانيين على هذه الروح الديموقراطية ممتدحاً إياها ، وإذا بأيزنهاور يجيب : « مهما يكن من أمر فإن هذا الجندى قد استأذننى فى استعمال العربة ولكن غيره لا يفعل ذلك عادة ... » .

والصفة التى يقدرها البريطانيون فى أيزنهاور أكثر من غيرها هى الصراحة ، وقد كان لهذه أثر عظيم فى خلق تفاهم كلى بين هيأتى أركان الحرب البريطانية والأمريكية . وقد خلق أيزنهاور بنشره كل المعلومات وقوله الحقائق مجردة ، وعدم إخفائه شيئاً منها ، خلق بذلك جواً من الثقة المتبادلة ألهمت حلفاءه معاملته بالمثل .

وشخصية أيزنهاور يغلب عليها طابع الود واللطف . فهو يميل إلى مصادقة أى شخص بشرط ألا يكون نازياً أو فاشياً أو يابانياً ، وهو يبرز عواطفه بوضوح إلى درجة أنها قلما تفشل فى اكتساب مودة الآخرين له ،

وتقول عنه زوجته : « إن له ابتسامه جذابة ، ولكنه عندما يكف عن الابتسام يستحيل وجهه منبسطاً مثل سهول كنساس » وقد بقيت شخصيته كما هى لم تتغير بعلو مركزه ، ويصفه بعض البريطانيين بأنه « أمريكى جداً » وهو وصف يطابق الواقع ، فهو بالتأكيد ليس ألمانيا بالرغم مما كان يذيعه الراديو الألمانى خلال الحرب من عبارات التهكم قائلا بأن الأمريكيين قد أسندوا قيادة جيوشهم فيما وراء البحار إلى قائد ألمانى . وإذا كانت هناك أية صلة لاسم أيزنهاور بألمانيا ، فهى صلة ترجع إلى القرن السابع عشر ، عندما فر بعض الألمان وبعضهم يحمل إسم أيزنهاور إلى سويسرا هارباً من الاضطهاد الدينى فى ألمانيا ، وقد ظلوا فى سويسرا قرابة قرن من الزمان ثم رحلوا إلى الولايات المتحدة واختلطوا على مر الأيام بالعنصر الانجلوسكسونى ، والإيرلندى ، والاسكتلندى ...

تخرج أيزنهاور من الكلية الحربية ورقى إلى رتبة ضابط وعين فى الآلاى التاسع عشر المشاة . وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى لم تتح له فرصة مرافقة القوات الأمريكية إلى فرنسا ، ولكنه عين بناء على طلبه فى سلاح الدبابات وعهد إليه بمركز تدريب الدبابات فى كولت بولاية بنسلفانيا . وسرعان ما اشتهر اسم كولت هذه بأنها أحسن معسكرات الولايات المتحدة تنظيما . وبانتهاء الحرب نال أيزنهاور وسام « الخدمة الممتازة » لما أظهره من نشاط غير عادى ، وبعد نظر ومهارة ممتازة فى الأعمال الإدارية المتعلقة بالتنظيم والتدريب وإعداد القوات الفنية لسلاح الدبابات للعمل فيما وراء البحار .

ثم عين أيزنهاور قائداً لوحدات الدبابات فى قلعة ميد فى ميريلاند، وعين بعد ذلك ضابطاً إدارياً فى قلعة جيليارد فى منطقة قناة بناما . وتمكن بعد ذلك من دخول كليـة أركان الحرب ثم كلية الجيش وعين بعدها فى وزارة الحرب . وخلال هذه الفـترة تمكـن من الالتحـاق بمدرسة الجيش الصناعية زيادة على عمله .

وبالرغم من أن أيزنهاور يعتبر فى العادة خبيراً فى الدبابات، إلا أنه كان دائماً من أنصار القوة الجوية . وعندما كان يعمل رئيساً لأركان حرب الجنرال « ماك آرثر » فى واشنطن فى أوائل عام ١٩٣٠ ، ساعده فى تدعيم خطط تركيز السيطرة الجوية على القوة الجوية الحربية . وبعد مضى بضع سنوات، وكان مساعداً خاصاً للجنرال « ماك آرثر » فى الفيلبين، كان يشرف بنفسه على تنظيم القوة الجوية الفيليبينية ، واشترك مع « ماك آرثر » فى وضع خطة الدفاع الاستراتيجى التى نفذت بعد مضى عدة سنوات ضد اليابانيين عند هجومهم الغادر على كوريجيدور وباتان .

وفى الفيلبين كما فى عاصمة الولايات المتحدة وفى مختلف المناصب التى شغلها أيزنهاور فى مختلف الأنحاء، كان دائماً يشغل ساعات فراغه فى البحث والاطلاع ، وهو يتميز بالمقدرة على القراءة السريعة المحكمة وبذاكرة قوية ساعدته كثيراً فى الكتابة وفى المحادثة . وأهم ما يتخصص فيه هو التاريخ العسكرى . وفى الأبحاث التى قام بها عن المعارك التاريخية ، كان يمر مراً سريعاً على تفاصيل العمليات والمواقف الحربية التى لم يكن من المحتمل أن يتكرر حدوثها فى الحروب الحديثة، فى حين كان يتعمق فى دراسة العوامل

النفسية التى أثرت على القادة فيما اتخذوه من قرارات حاسمة . وهو إذ يتحدث عن الحرب ويقول : « إنها كانت دائماً مأساة إنسانية . فأنت تستطيع أن تملأ ميدان القتال بكل ما استطاع العقل البشرى ابتكاره من الآلات ، ولكنك تحتاج دائماً إلى مخلوقات بشرية قوية لإدارتها » .

وقد عاد أيزنهاور من الفيلبين إلى عاصمة الولايات المتحدة فى عام ١٩٤١ ليتولى قيادة الآلاى الخامس عشر المشاة . ولكنه لم يلبث به سوى بضعة أشهر عين بعدها أركان حرب الفيلق الخامس . وفى يونية من نفس العام عين أركان حرب الجيش الثالث ، وفى خريف عام ١٩٤١ أقيمت مناورات هامة فى أمريكا وعين أيزنهاور رئيساً لأركان حرب الجنرال كروجر ، فأتيحت له بذلك الفرصة لقيادة عملية حربية اشترك فيها مائتا ألف رجل من الجيش الثالث الأمريكى ، وأظهر فيها مهارة وذكاء وروحاً حاسمة ، استحقت إعجاب الجميع ورقى بعدها إلى رتبة الأميرالاى .

وبمجرد أن اشتركت الولايات المتحدة فى الحرب ، وضع أيزنهاور على رأس إدارة العمليات الحربية فى وشنطن . وفى ربيع عام ١٩٤٢ وهو فى هذا المنصب كان يتولى وضع السياسة الاستراتيجية لقوات الولايات المتحدة فيما وراء البحار ، إلى أن جاءته الفرصة التى كان يحلم بها دائماً ، إذ عين قائداً عاماً لقوات الحلفاء فى مسرح العمليات الحربية بشمال أفريقيا ، فأتيح له أن يطبق عملياً الخطط التى كان يضعها فى مكتبه بإدارة العمليات الحربية ، وليخرج بها من حيز الأوراق إلى عمليات تكتيكية بقوات حقيقية تحت قيادته المباشرة .

وفى الفترة التى تولى فيها أيزنهاور إدارة العمليات الحربية ، لم يعلم الكثيرون من الأمريكيين وقتئذ مدى التطور والتغيير الواجب اتباعه فى جيش الولايات المتحدة ، فبدلا من أن يكون هذا الجيش قوة دفاعية صغيرة حسبما كانت تمليه السياسة الخارجية الأمريكية ، أصبح لزاماً عليهم النهوض بأعباء جيش عظيم مدرب ومنظم على أحدث النظم ، كفيل بخوض المعارك المشتركة فى القارات النائية .

كانت تلك الفترة من أحلك الفترات فى تاريخ الولايات المتحدة ... فاليابان تكيل لها الضربات القاسية ، بينما جيوش ألمانيا تنزل الهزائم بجيوش الحلفاء ، وبدا أن جيوش المحور قد غدت قوة لا تقهر . وهنا صممت أمريكا على أنه إلى أن يتم تجهيز الجيش الأمريكى ، لا بد من صد تقدم دول المحور مهما كلفهم ذلك من ثمن ، أو تعطيلهم على الأقل . كما كانت خطة الولايات المتحدة أيضاً أن تحتفظ ببعض القواعد والمعاقل الخارجية .

وقع على كاهل أيزنهاور عندئذ عبء انتخاب تلك المناطق ، وكذا تخصيص القوات اللازمة لكل منها . ولم تكن هذه الفكرة تلاقى التأييد المطلق حتى أن بعض العسكريين عدها إسرافاً لا مبرر له ، وتوزيعاً للقوات الأمريكية على شكل حاميات بسيطة مشتتة فى أرجاء الكرة الأرضية ، وتساءلوا عن مدى أهمية مثل هذا العمل وعن مدى قدرة الجيش الأمريكى على مقابلة قوات المحور بعد أن أسرف فى توزيعه بهذا الشكل ، ونعتوا القادة الأمريكيين بأنهم هواة ، وقارنوهم بزملائهم من ذوى المهارة من محترفى الحرب فى الجيوش الأخرى . ولكن الواقع أن القيادتين الأمريكية والبريطانية أمكنهما بالرغم من الظروف القاسية التى كانت

تحيط بأمهما ، أن تدبرا أكبر مفاجأة لدول المحور ، وذلك بإنزال حملة مجهزة أحسن تجهيز على شواطىء شمال أفريقيا فى نوفمبر عام ١٩٤٢ ، فأيدت بذلك القوات البريطانية المشتبكة فى معركة العلمين أحسن تأييد .

كانت انجلترا هى المعقل الوحيد للشعوب المتحالفة فى غرب أوروبا ، فوجب إذن أن تبدأ عمليات الغزو من هناك ، فبعد أن قامت أمريكا بحماية قواعدها فى المحيط الأطلسى ، بعثت بقيادة الغزو إلى لندن وفى ذلك الحين وقع اختيار الجنرال مارشال على أيزنهاور ليرأس هذه القيادة .

كان ذلك كله يجرى فى الوقت الذى كان فيه الحلفاء يعانون أشد النكبات . فقد سقطت طبرق وقتئذ فى أيدى روميل وأسر من الحلفاء ٣٠,٠٠٠ رجل ، ثم سار روميل فى أعقاب الجيش البريطانى المتقهقر صوب مصر ، وأوقع به خسائر فادحة ، بينما كان الجيش الألمانى يوالى انتصاراته على الروس فى أوروبا .

كانت كل تلك الهزائم مما يشيع روح الهزيمة فى نفوس الكثيرين ، فلمح أيزنهاور هذه الظاهرة وبادر إلى القول لقادته ومرءوسيه : « ليس لدعاة الهزيمة ولا للمتشائمين مكان فى هذه القيادة ، وكل فرد لا يصمد أمام العقبات التى ستقابلنا والمتاعب التى نتوقعها عليه أن يفارقنا إلى وطنه » .

وما أن نزلت الجيوش الأمريكية إلى انجلترا حتى وقع على كاهل أيزنهاور واجبان عظيمان ، أولهما تدريب الجنود على خوض غمار القتال ، وثانيهما خلق روح الزمالة والصداقة بينهم وبين الجيوش البريطانية التى ستسير معهم جنباً إلى جنب فى ميادين القتال .

قبلت انجلترا تحت حكم الظروف القاهرة ضيافة الأمريكيين فى بلادها ،

ولكن الجيش الغريب فى أرض الوطن بغيض على النفس ، حتى ولو كان حليفاً . فما بالكم بجيش لم يشعر بعد بوطأة المصاعب والمتاعب التى كان البريطانيون يرزحون تحتها ! حلّ الأمريكيون إذن على البريطانيين ضيوفاً ثقالا ، يعتزون بمرتباتهم الضخمة وتقاليدهم الأمريكية ، مما أوجد فى انجلترا حالة حرج شديد بين الطرفين المتحالفين. ولكن أيزنهاور عمل فى الحال على تثبيت حالة الرعب والتعب التى كان يعانيها الشعب البريطانى فى عقول الجيش الأمريكى ، فقام بتنظيم رحلات دورية إلى المناطق المنكوبة التى دمرتها القنابل ، وتعاونت الصحافة وأقسام الترفيه عن الجنود على توثيق روابط الصداقة والتآلف بين الشعبين ، فمهدت بذلك السبيل إلى خلق روح من التعاون والثقة المتبادلة بين الجيشين الأمريكى والبريطانى . ونجح أيزنهاور فى مهمته وأصبح الجيشان جيشاً واحداً . والواقع أنه لم يسبق لأمتين فى التاريخ أن أدمجتا قواتهما ووحداتهما كما فعلت أمريكا مع بريطانيا فى ذلك الوقت .

كان أيزنهاور قد وصل إلى لندن فى ١٤ يونيه ١٩٤٢ ، ولم يمض على وصوله إليها إلا القليل حتى انهمك فى مهمة تنظيم جيوشه وإعدادهم للقتال . فأنشأ معسكرات جديدة ومطارات فى مختلف أنحاء بريطانيا ، وجهز أراض جديدة للتدريب . وكان من الضرورى تموين الآلاف المؤلفة من الرجال بالمهمات والطعام والملابس وإعدادهم لما ينتظرهم من قتال شاق عنيف ؛ وعند ما حصل هؤلاء الرجال على ما لقنه إياهم مدربوهم العسكريون من أمريكانيين وبريطانيين ، وجّه أيزنهاور اهتمامه بعد ذلك إلى المشكلة التكتيكية الخاصة بتجميع السفن

والمدافع والطائرات والرجال للقذف بهم فى الجبهة المشتعلة الأتون .

لقد كان التصميم على غزو شمال أفريقيا الفرنسى من أكبر المشاغل التى شغلت أيزنهاور ، فقد كان عليه أن يشتبك فى أعظم العمليات الحربية البرمائية المعقدة التى حدثت فى تاريخ الحروب الحديثة .

ولم يكن البريطانيون والأمريكيون على بينة من حقيقة نوايا الفرنسيين ، فاحتاطوا لكلا الموقفين حتى لا يؤخذوا على غرة ، وكان من الأغراض التى توخوها فى حملتهم على شمال أفريقيا تقديم المساعدة لفرنسا ، وخلق مركز تستطيع منه أن توجه المقاومة ضد دول المحور فوجب لذلك ألا تراق كثير من دماء الفرنسيين ، وأن يكون الهجوم سريعاً وخاطفاً حتى لا يثير نفوسهم ...

وللمحافظة على السرية لم يكن من المستحب تمهيد الطريق مع السياسيين قبل الغزو بمدة طويلة حتى إن السياسيين الذين كان يتفاوض معهم الأمريكيون لم يحاطوا علماً بميعاد الغزو إلا قبل وقوعه بأربعة أيام . وبالرغم من كل الانتقادات التى وجهت إلى خطط الغزو فمما لا شك فيه أن نزول القوات فى شمال فرنسا كان مفاجأة لقوات المحور . وكان على أيزنهاور أن يحتمل جملة مسئوليات جسام منذ بداية الحملة ، فقد تحتم نزول ١٠٧,٠٠٠ جندى بريطانى وأمريكى بصفة مبدئية من جملة قواعد أمريكية وبريطانية تبعد مئات الأميال من منطقة مملوءة بالغواصات ، وكان على الطائرات حماية هذه القوات سواء من حاملات الطائرات أو من قواعد نائية مثل مالطة وجبل طارق ، وكان على السلاح الجوى تطهير مضيق جبل طارق

من أى مراقبة للعدو إذ لو تعرضت هذه القوات قبل النزول لهجمات العدو الجوية لأصبحت فى خطر .

وكانت هناك جملة احتمالات كان على أيزنهاور أن يحتاط لها جميعاً ، ومن أهمها احتمال هجوم دول المحور على أسبانيا وتجميع قوات بها وقطع خط الرجعة على الحلفاء فى شمال أفريقيا .

أما المسئولية الكبرى التى أخذها أيزنهاور على عاتقه ، فكانت فى استخدام الجنود الأمريكيين الذين لم يسبق لهم خوض القتال . ولكن لما كانت الحرب تتطلب تمرين الجيوش على القتال تحت ظروف مشابهة للحرب الحقيقية ، كما إن القتال لا يمكن تعلمه إلا فى المعارك ، فإن الحملة على شمال أفريقيا كانت أكبر مدرسة للقوات الأمريكية .

ولم يكن موقف الجيش الفرنسى فى شمال أفريقيا وقتئذ ظاهراً كما ذكرنا ، وكانت تعوزهم الدبابات والمدفعية الحديثة ، إلا أنه كان لديهم الكثير من الأسلحة الصغيرة ، كما كان لديهم مدفعية ساحلية على درجة كبيرة من القوة ، وكذا كان أسطولهم البحرى مما يعتد به ، فضلا عن أنه لم يكن قد نسى بعد ذلك اليوم المشئوم من شهر مايو عام ١٩٤٠ ، عندما حاول الأسطول البريطانى إغراق مراكبهم فى وهران ، فكانت الكرامة تتطلب منهم الأخذ بالثأر ...

وفى الوقت الذى كانت تتقدم فيه أساطيل الغزو إلى الشواطىء الأفريقية ، كان رجال السياسة يحاولون إقناع الجهات الفرنسية الرسمية بعدم المقاومة ، ولكن الوقت كان ضيقاً فتصرف القواد الفرنسيون حسب أهوائهم . فمنهم من رحب بنزول الحلفاء ، ومنهم من قاوم أشد المقاومة ، كما حدث

فى كازابلانكا ووهران وميناء الجزائر ، ولـكن سرعة نزول الحلفاء وقوتهم ، وكذا نفوذ الجنرال دارلان وچيرو ، وضعا حداً لهذه المقاومة ، وكان دارلان هو الرجل الذى تدين له القوات الفرنسية بالطاعة وتعمل تبعاً لمشيئته .

كان هذا الغزو فى الواقع مفاجأة غير منتظرة الألمـان . ولـكنهم قابلوها بعمل سريع حازم ، وسرعان ما أنزلوا قوات إيطالية وألمانية فى بنزريت وتونس بطريق البحر والجو ، وبفضل مواصلاتهم القصيرة كان لهم قصب السبق على الحلفاء فى الاستيلاء على تونس ، أما الجنرال أيزنهاور فكان عليه توزيع قوات كبيرة فى مراكش لمقـابلة احتمال أى غزو لقوات المحور يأتى من ناحية أسبانيا .

ولم تكد القوات الأمريكية تصل إلى ما يقرب من حوالى ٦٠ ميلا من تونس حتى بدأت الاشتباك مع الدوريات الألمانية ، ولم تترك هذه المناوشات أدنى شك لدى الأمريكيين عن مدى قوة وصلابة أعدائهم فى القتال . وقد حدث كثير من الأخطاء التى أضعفت عزيمتهم ، فليس هناك خطأ أكبر من أن تهاجم الطائرات الأمريكية القوات الحليفة وتنقض عليها بالمدافع الرشاشة خمس مرات متوالية وهى تحلق فوق رءوسهم ، ثم تنقض عليهم بمدافعها ، وتزهق أرواحهم وتدمر معداتهم وليس لهم حيلة فى رد هذا العدوان .

وليس أمرّ أيضاً من أن تفقد إحـدى القوات جميـع معداتهـا وحملاتها عندما اضطرت إلى الانسحاب ليلا تحت وطأة هجوم الألمان ، كل هذه الحوادث كانت مريرة مبكية تثير الألم والحسرة فى نفوس الأمريكيين .

ومنذ ديسمبر من ذلك العـام أصبح جليـاً أنه لا أمل فى نصر

سريع حاسم فى تونس ، وأنه لا مندوحة لهم من الحرب الموضعية بما فيها من تعطيل ومصاعب .

كان هذا التوقف سبباً فى إثارة الرأى العام الأمريكى ، وبدأت الصحافة فى توجيه اللوم إلى قيادة الغزو ، وأبدت أسفها واستغرابها لتوقف هذا الجيش مع كثرة عدده وعدده ، ولكن لو قدر لهؤلاء القوم على حقيقة الموقف ، لعلموا أن القوات التى كانت تحت إمرة أيزنهاور كانت أقل جداً مما كانت تدعيه الدول المتحالفة لخديعة الجيش الفرنسى ولإرهاب ألمانيا ، وفضلا عن ذلك فقد كان أيزنهاور مضطراً إلى ترك حاميات كبيرة لحماية المؤخرة ولتوزيعها على المواقع المختلفة فى تونس ، وكانت أكبر صعوبة يعانيها الحلفاء هى عدم وجود أرض تصلح لهبوط الطائرات .

كانت كل المناوشات تجرى بينما كان روميل يسرع فى الانسحاب للوقوف عند خط مريت ، ولكن لم يكد يصل إلى هذا الخط ويضع بعض قواته لمقابلة هجوم الجيش الثامن ، حتى أسرع فى القيام بغارة دموية على الخطوط الأمريكية بقصد اختبار قدرتهم على القتال وليدمر مستودعاتهم الهائلة عند تايبسا .

وقد مرقت القوات المدرعة الألمانية فى خطوط الدفاع الأمريكية مروق السيف ، وهنا يقول أحد الثقاة البريطانيين فى وصف القتال : « إن الفرقة الأمريكية المدرعة كانت موزعة بشكل لا يمكنها من مقابلة أى هجوم متجمع ، ويبدو أنه لم يكن فى الحسبان احتمال هجوم الألمان ولم تكن هناك ستارة واقية من المدافع المضادة للدبابات » .

فكان هذا الموقف شبيهاً بما كان يراه روميل فى بداية الغزو فى ليبيا .

لم يكد يبدأ الهجوم إلا وقد بدأ انسحاب الأمريكيين الذى تحول فى التو إلى هزيمة . فسقطت حافصا وفايد وكاساين ، وبدا أن روميل أصبح قاب قوسين أو أدنى من مستودعات الجيش الأمريكى الهائلة عند تيبسا ، ولو قدر وسقطت هذه المستودعات فى يده لتغير الموقف كلية فى تونس . لقد كان الهجوم بحق ضربة محكمة .

لم يتهرب أيزنهاور من المسئولية بل احتملها كلها بكل شجاعة ، وتحدث وقتئذ إلى الجنرال مارشال بالراديو فقال « إن الخطأ التكتيكى والفشل الذى منينا به ناشىء من أنى أردت أن أفعل أكثر مما فى طاقتنا » .

وقد انتهت الحملة فى شمال أفريقيا بانهزام المحور فى تونس بعد جملة معارك دامية أتاحت الفرصة لأول مرة للحكم على ما قام به أيزنهاور . فأخذ عليه بعض السياسيين البريطانيين والأمريكيين ميله إلى الاستعانة ببعض رجال السياسة الفرنسيين ممن يشك فى نيتهم ولا يؤمن جانبهم كالأميرال دارلان ، بينما شد البعض الآخر أزره واعترفوا بأن المشاكل التى كان يواجهها شمال فرنسا كانت أعظم بكثير مما كانت تبدو ظواهرها . فبينما كان الغرض الرئيسى والواجب الأول هو كسب هذه المعركة بطريقة تمكن الحلفاء من كسب فرنسا إلى جانبهم لمشاركتهم غزو القارة الأوروبية فى المرحلة القادمة ، لم يكن أيزنهاور بالقائد الذى ينسى أنه لا يمكن أن يدير دفة القتال بنجاح بينما مؤخرته وخطوط تموينه تعمها الفوضى والاضطراب ، فلم يكن هناك بد من التدرع بالصبر ومعالجة الأمور بالسياسة والحكمة

والكياسة والتريث حتى تحل بعض المشاكل من تلقاء نفسها .

وكانت قدرة أيزنهاور على تفهم خواص القوة البحرية من أكبر العوامل التى وضعته فى مصاف أعظم القادة . فلم يكن مارشال الجو تيدر يلقى أقل عناء فى شرح مقدرة السلاح الجوى على العمل ، إذ لم يكن أيزنهاور بالرجل الذى يحتاج إلى شرح طويل .

وطريقته فى العمل سريعة وسهلة ، فكان يلجأ إلى عقد المؤتمرات ، ويجمع قواد الجيش والطيران على مائدة واحدة ، ويشرح لهم الأغراض الأساسية ، ثم يتركهم ليضعوا باقى التفاصيل والطرق المحتملة ولا يطلب منهم سوى النتائج . كما أتاحت المؤتمرات اليومية التى يعقدها أكبر فرصة لقوات الجيوش الأرضيـة والجوية لاستعراض الموقف الحربى بأجمعه . وقد استطاع أيزنهاور بفضل التعاون الوثيق بين قواد الجو والبحرية منع وصول أى إمدادات إلى جيوش المحور فى صقلية .

وبعد انتهاء الحملة على شمال أفريقيا ، امتدحه بعض الأحرار الفرنسيين ، وعزوا إليه الفضل فى عدم قيام حرب أهلية فى الجزائر . ولعل أحسن النتائج التى أمكن الحصول عليها من معركة شمال أفريقيا ، هو تركيز جهود الجيوش الأمريكية والبريطانيـة وتوجيهها إلى هدف واحد ، فوضعت بذلك أسس التعاون المشترك الذى بفضله نجح غزو أوروبا .

كان أيزنهاور بعيد النظر ، فعمل على تثبيت روح التعاون فى نفوس الجيوش المحاربة ووجهها هذه الوجهة الصالحة وأدمجها فيها حتى غدت كفريق رياضى واحد ، يسعى نحو هدف واحد . ويعد هـذا العمل

ولا شك أعظم عمل قام به أيزنهاور ، بل إن انتصار الحلفاء على دول المحور فى شمال أفريقيا ، هذا الانتصار الباهر الذى لم يسبق له مثيل فى الحرب الأخيرة ، ليعد بحق أقل قيمة لو قيس بالنتائج التى أسفر عنها هذا التعاون والاندماج . ولقد خطب الجنرال مارشال فى إحدى المناسبات فقال فى صدد هذا الموضوع : « إن أى نزاع بين القادة فى الجيشين الأمريكى والبريطانى ، أو أى خلاف بين هيئة أركان الحرب فى كلا الجيشين ، كان سيؤدى حتما إلى أسوأ النتائج وإن السيطرة على كل هذه المشاكل الخطيرة ليعتبر ولا شك أكبر عمل قمنا به فى هذه الحرب . وليس أيزنهاور وحده هو المسئول عن خلق روح التعاون والثقة ، ولكنى أقرر صراحة بأنه لولاه لأصبح هذا التعاون مستحيلا » .

كان أيزنهاور فى بداية الحملة على شمال أفريقيا أقل رتبة من كثير من مرءوسيه من القادة ، ولكنه بالرغم من ذلك سيطر على الموقف بكل صلابة وكياسة وروح طيبة . ولم يكن ممن يتباهون بسلطتهم على الآخرين ، فبينما كان الكثيرون من مرءوسيه من القادة الأمريكيين يسيرون فى عربات فاخرة ترفرف عليها الأعلام ويحرسها رجال البوليس الحربى ، كان أيزنهاور كثيراً ما يدخل المدن التى غزاها دون أن يعلم به أحد .

ولم يكن تواضعه متكلفاً ليؤثر به على الناس ، بل كان صادقاً مخلصاً ، فلم يكن ليخفى جهله بالشىء عندما يستعصى عليه فهمه . ولم يكن ليستنكف أن يقول لأركان حربه فى إحدى المؤتمرات وعلى مسمع

من الجميع « إنى آسف لأنى لا أفهم هـذه النقطة » ، أو يقول : « قد أكون أصم فأرجوك أن تعيد ما قلت » .

وقد ذكر أحد محررى الصحف الأمريكية أنه أثناء انعقاد مؤتمر للقادة قبل غزو صقلية ، عدل أيزنهاور فى الحال عن قرار خطير كان اتخذه على أثر مناقشة جرت مع ضابط صغير برتبة يوزباشى ، أظهر فيها هذا الضابط استحالة تنفيذ هذا القرار من الوجهة العملية .

ويعزى بعض نجـاحه مع البريطانيين إلى أنه كان يعاملهم كما كان يعامل الأمريكيين تماماً دون مفاضـلة أو تفريق ، وكانت علاقتـه مع مارشال الجو تيدر والجنرال كانتجهام علاقة الصديق بصديقه .

وكـان أفضل خصائص أيزنهاور كقائد لمسرح من أكبر مسارح الحرب ، هى هدوءه وقدرته على إبعاد كل ما يشوش عليه تفـكيره . فحالما يعتقد أن الخطط والترتيبات التى وضعت هى أفضل ما يمكن عمله ، كـان يبعد هذا الموضوع نهائياً من تفـكيره . وعندما طلب منه فى إحدى الليـالى أن يعطى قراره الأخير إن كـان ينوى أن يؤجل الغزو على صقلية لليوم التالى بالنسبة لسوء الأحوال الجوية ، أو أن تبدأ العملية فى ميعادها ، أمر بأن يسير كل شىء كما اتفق عليه ، ثم عاد إلى فراشه ونام نوماً هادئاً حتى صباح اليوم التالى . وعندما كانت الأحوال تسوء ، وهى كثيراً ما كـانت تسوء فى وقت الحرب ، كان ينظر إليها نظرة فلسفية ويعلق عليهـا بقوله : « لا يمـكننا أن نسحب أوراقاً رابحة على الدوام » .

وفى ٢٤ ديسمبر عام ١٩٤٣ ، أصدرت الحكومة الأمريكية والحكومة البريطانية أمراً بتعيين أيزنهاور قائداً عاماً لقوات الغزو الأوروبية ، فترك القيادة من بعده للجنرال ميتلاند ويلسن ونقل مقر قيادته إلى لندن . ولهذه المناسبة قال عنه أحد المراقبين : « إن صداقة أيزنهاور وشخصيته الفذة كانت السر فى نجاحه ، وليس هناك دونه من يستطيع التوفيق بين كل هذه الشخصيات والشعوب المختلفة . وإن إدارته للحملة الفرنسية دون أى خلاف أو نزاع بين الأمريكيين والبريطانيين ليعد فى الواقع أبرع أعماله » .

لم تكن الترتيبات الإدارية ولا الخطط الحربية كافية لتأمين النصر ونجاح غزو أوروبا . وكان لا مندوحة عن بث روح النصر فى نفوس الجيش ، خاصة وإن قصة « دييب » كانت لاتزال عالقة بالأذهان .

ولم تكن مقدرة الألمان وقوتهم فى القتال بخافية على أحد ، فضلا عن أن الدعاية الأمريكية جعلت تشيد بعظمة الاستحكامات ومتانة حائط الاطلنطى ، لدرجة جعلت حتى أكبر الأخصائيين فى الجيوش المتحالفة يقدر الخسائر مبدئياً بما يعادل ٥٠ ٪ من القوة .

ولكن لم تكد تنتهى جميع الترتيبات الخاصة بالغزو ويكمل تدريب القوات ، وسارت الجيوش فى طريقها إلى المراكب المعدة لنقلها إلى القارة الأوروبية ، إلا وكان كافة القادة والرجال يلوحون لأيزنهاور ويعاهدونه النصر وقد امتلأت نفوسهم ثقة بقدرتهم .

وكان الناس ينظرون إلى أيزنهاور نظرتهم إلى الرجل الذى بلغ

الذروة فى التنظيم العسكرى ، ولكنهم كانوا يميلون فى الوقت نفسه إلى تقليل قيمة الدور الذى يلعبه من الوجهة الاستراتيجية . كما أن ميله إلى إنكار الذات وعدم تمكن روح الإثرة من نفسه ، كان مما شجع على انتشار هذا الرأى ، ولكن الحقيقة أنه بحكم منصبه كقائد أعلى للجيوش المتحاربة كان له وحده القول الفصل فى جميع القرارات الهامة التى اتخذت فى حملة فرنسا .

ولقد أثبتت الأيام صدق فراسته . فبعد أن نزلت الجيوش المتحالفة فى القارة الأوروبية ، وبعد أسبوعين من بداية الغزو ، قامت عاصفة هوجاء . فلو أن أيزنهاور استمع إلى نصيحة الكثيرين الذين طلبوا تأجيلها إلى ذلك الوقت لتعرضت الحملة لأكبر النكبات . ولم يلجأ أيزنهاور فى تنفيذ خطته فى غزو القارة الأوروبية إلى إنزال قواته فى أماكن متفرقة لتضليل العدو ، بل أنزل جموع قواته مباشرة على الهدف الرئيسى فى شبه جزيرة كوتنتين لحصل بذلك على مفاجأة استراتيجية هامة باستخدامه مبدأ تجمع القوى فى الوقت الذى لم يكن متوقعاً فيه ، وبمجرد أن استتبت أقدام الجيوش فى القارة بعد بداية الغزو بثلاثة أسابيع ، عاد أيزنهاور فألغى خطته الأصلية ونزل بجيوشه فى موجة أخرى لمد الغزو على شبه جزيرة بريتانى ، ما بين نانت وسانت تروبيز .

وإلى هنا إذا كان هناك مجال للشك فى مقدرة أيزنهاور على التنظيم فإنه بعد غزو فرنسا برزت مواهبه مما لم يبق لمثل هذا الشك أثراً

وإن مجرد التفكير فى مشاكل التموين والإعاشة وإمداد هذه الجيوش العديدة بما تحتاجه فى مثل هذا الصراع العنيف لكفيلة بأن تثقل كاهل أكبر القادة ، فما بالنا بقائد يلجأ إلى تغيير خطته الأصلية بعد بداية الغزو ببضعة أسابيع .. لا شك فى أن عبء مثل هذا العمل كان ثقيلا .

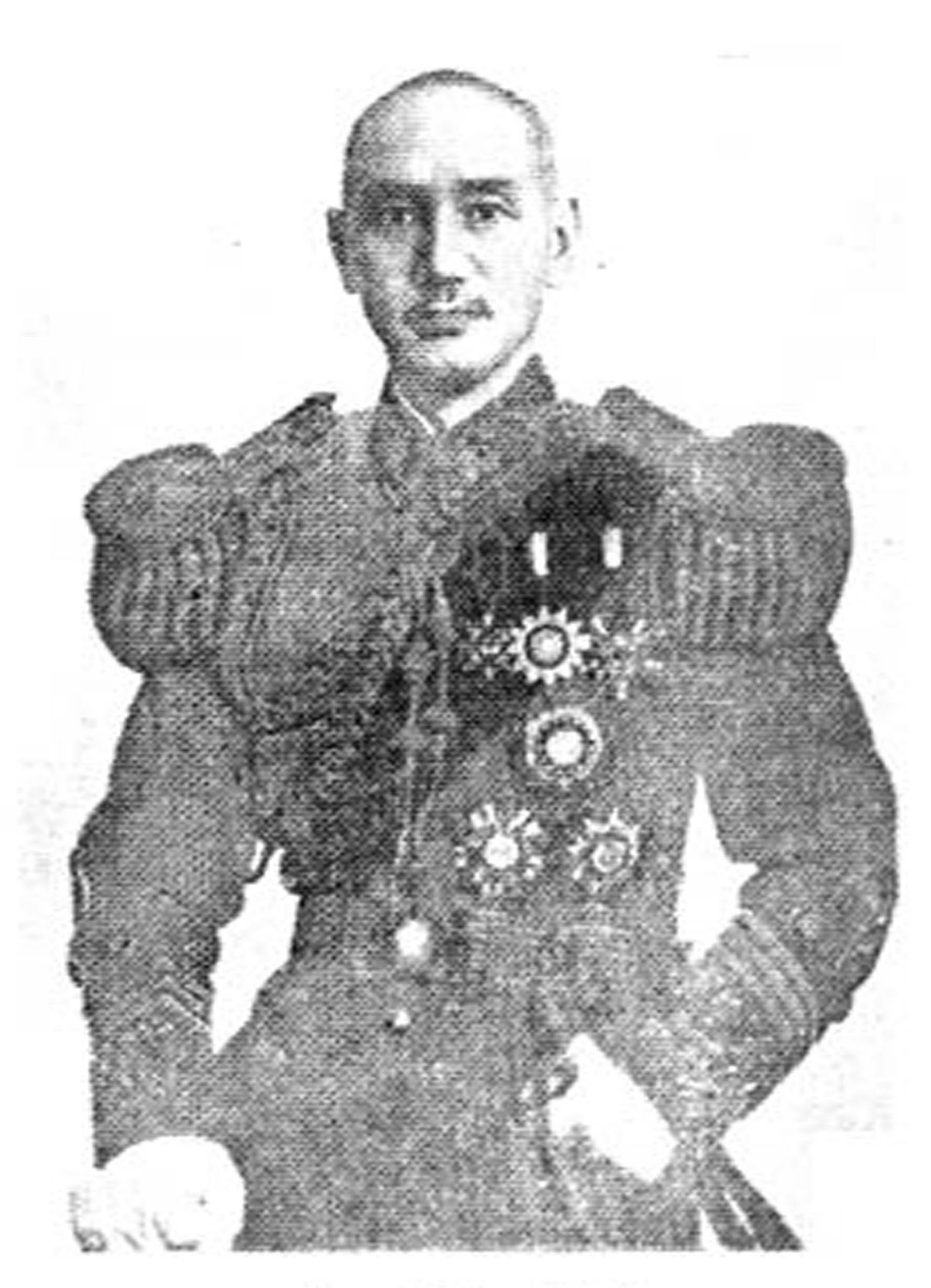
ولكن الواقع أن مجرد تغيير الخطة الأصلية والاتجاه إلى خطة أخرى ليدل دلالة واضحة على مدى مرونة عقلية أيزنهاور واستعداده الدائم لحمل أكبر الأعباء .

ولم تكن هذه الحادثة إلا إحدى مغامراته تبعها بمغامرة أشد منها أثراً ، فلم تكن الجيوش الألمانية تركن إلى الانسحاب إلا وقرر متابعة التقدم فى أعقاب هذه الجيوش مفضلا ذلك عن الاستيلاء على الشواطىء والموانى الفرنسية ، وكان يعتقد أنه لو تمكن من تتبع الجيش الألمانى بجيش صغير سريع فإنه سيوقع الفوضى والارتباك فى صفوفهم بالرغم من كثرة عددهم وعددهم .

كانت أعمال أيزنهاور منذ نشأته إلى أن بلغ أعلى مرحلة فى القيادة فى حرب ضروس شغلت العالم أجمع ، تدل بلا شك على أنها كانت أعمالا مجيدة تستحق الإعجاب وتؤهله لأن يحتل مكاناً عالياً بين عظماء القادة بل وبين عظماء الرجال .

إبدأ بألا تمكّن العدو من الانتصار،
ثم انتظر الوقت الذى تقهره فيه.

« سن تسو »



« المارشال شيانج كاى شيك »

شيانج كاى شيك

« إذا أردت أن تضمن الفضيلة للعالم فعليك أولا أن تحكم أمتك ،
وإذا أردت أن تحكم أمتك فاحكم أولا أسرتك ،
ولن تحكم أسرتك إلا إذا حكمت نفسك ،
ولكى تحكم نفسك فاحكم قبل ذلك عقلك ،
أحكم عقلك بأن تكون مخلصاً وصادقاً فى أغراضك وأهدافك ،
وسبيل المرء إلى ذلك كله إنما يكون بالحكمة والمعرفة ،
فانهل منهما أقصى ما تستطيع . »

كونفوشيوس

* * *

ما أكثر ما تعاقب على الصين من الفلاسفة . بوذا قبل التاريخ ، ومن بعده كونفوشيوس الذى كان يكره النساء ، ثم ميشيوس الذى مجّد الطبيعة ، ولاو الذى نادى بالبساطة والقناعة .

وبين كل واحد من هؤلاء والآخر عدة قرون . والصينيون عامة يتلوّنون مع فلاسفتهم ويؤمنون بهم كأشد الحواريين إيماناً ووفاء . ومن بين هؤلاء الصينيين الجنرال شيانج كاى شيك .

إنه يدين بالبوذية ، أو كان يدين بها ، ولكنه يدين أيضاً لفلاسفة

الصين بكل معتقداته وآرائه . فهو يحفظ تعاليم كونفوشيوس عن ظهر قلب ويتغنى بها ويسير على نهجها فى كل خطواته .

ولا شك فى أن إدمانه قراءة الأدب الصينى القديم هو الذى جعل منه ذلك الإنسان الفذّ الذى يحار المرء فى معرفة كنهه ، فهو يشبه عقدة نفسية عسيرة الحل ، وهو فى الوقت نفسه رجل حافل بالمتناقضات .

هذا الكيان الهزيل ، ذو الوجه المعروق ... إنه أقوى الأحياء فى الصين على الإطلاق . وهذا الزعيم الشعبي المحبوب من مواطنيه ، هو نفسه الذى اختطفه مواطنوه وكادوا أن يقتلوه .

وفى الوقت الذى تنعقد فيه آراء رجاله ومرءوسيه على أنه أكثر القواد شدة وعنفا ، إذا بهم يرون فيه أكثر الناس تسامحاً وغفرانا .

وهو الرجل الذى جمع شمل الصين ووحدها وجعل منها أمة متماسكة ، وهو نفسه الذى يشن حرباً أهلية لا هوادة فيها منذ أكثر من عشرين عاماً ، هلك فيها الألوف من أبناء وطنه ولا يزال رحاها مستمراً .

وهو الرجل العسكرى الذى استخدم لأول مرة استراتيجية « الأرض المحروقة » ، وهى الاستراتيجية التى اتبعها الروس فى دفاعهم المجيد عن موسكو ، كما أنه من أشد أنصار الدفاع فى عمق كبير . وهو الذى ساعده اعتقاده الراسخ وإيمانه القوى فى عدالة مطالبه على أن يدفع بهؤلاء الملايين من الصينيين المظلومين لبذل مقاومة شديدة وتحمل العذاب الناتج من هذا البذل فى سبيل تحقيق مطالبهم . وقد استطاع شيانج كاى شيك أن يحقق بذلك عملا من أعظم الأعمال الحربية فى التاريخ .

فى ٣١ أكتوبر عام ١٨٨٨ ، وفى قرية شيكاو من أعمال مقاطعة شيكيانج شرقى الصين ، ولد شيانج .

كانت أمه هى الزوجة الثالثة لأبيه الذى كان فلاحاً خشناً اشتغل بالتجارة إلى جانب الزراعة شأنه فى ذلك شأن معظم أهالى الصين . وقد مات هذا الأب دون أن يفيد أبناؤه الخمسة شيئاً من زراعته أو تجارته .

وكغير شيانج من عظماء الرجال ، كان لوالدته عليه أثر كبير ، فهى التى طبعت أبناءها بطابع قوى من الأخلاق القويمة والمثابرة والدأب على العمل . وقد تحدث عنها شيانج ذات مرة فقال :

« لم تقض أمى يوماً واحداً بلا تعب ، فقد كان عليها أن ترعانى وكذلك بضعة أطفال من زوجات أبى الأخريات . وكانت تقدس المنزل وتخشى أن يعجز أبناء السيد الراحل عن إعادة بنائه . وعندما كبرت كانت حياة التشرد التى أحياها هى أكبر أسباب قلقها .

ولكنى مدين لها حقاً . فهى التى علمتنى أن الظلم والاستعباد يمكن محوهما بالعمل المنتج . وكلما وقفت على قبرها ورأيت الأشجار التى زرعتها بيدى قد نمت واستطالت أشعر بضآلة الأعمال التى قمت بها . »

وليس فى طفولة شيانج ما يستحق الذكر . كان طفلا سقيما عليلا ، هزيلا إلى درجة جعلت الجميع يؤكدون موته قبل أن يتقدم به العمر . ولكنه نجا من الموت مرات ، نجا من الموت مرضاً ، ونجا من الموت عندما ابتلع وهو طفل قطعتين من الخشب ، ونجا مرة ثانية من الموت وهو فى الخامسة من عمره عندما سقط فى حوض من الماء

المتجمد ، ونجا أخيراً من الموت بعد ذلك بسنوات عندما زلت قدمه فهوى فى مياه النهر الجياشة الصاخبة .

وفى صباه كان يؤدى الأعمال المنزلية . كان يغسل الأطباق ويمسح أرض الدار من الوحل ، ويحمل على ضعفه إناء الماء ليملأه من النهر .

كانت أمه بوذية مؤمنة ، فعودته على الطاعة والأمانة ، وظل كذلك طيلة حياته ...

ولما بلغ شيانج سن المراهقة كانت الثورة فى الصين تشتد وتقسو . وكان أباطرة « مانشو » الذين يحكمون الصين قد بلغوا أبعد حدود الضعف ، فى حين كان الأهالى فى حالة مؤسية من الكسل والتراخى ، وقد حطم الأوربيون قواهم بتشجيعهم على تجارة الأفيون والإدمان على تعاطيه .

أما أداة الحكم فكانت فى منتهى السوء ، وكان هذا الشعب المسالم عند ما يتعسف معه الجباة وحكام المقاطعات من الجنرالات ومحصلى الضرائب يكتفى عادة بأن يغلق الحوانيت ويتوقف عن العمل .

أما النظام العسكرى فقد كان من بقايا الأقطاع وكان لكل جنرال فى مقاطعته الخاصة آلاف من الجنود وملايين من الاحتياط ، وهو يؤجر هؤلاء الجنود حتى للامبراطور نفسه مادام هذا قادراً على دفع الأجر . أما الجنود فأشبه بفرق المرتزقة ، عديمو الكفاية معدومو المبادىء . وعندما سقطت الإمبراطورية ، وضعف نفوذ الحكومة المركزية ، راح كل واحد من هؤلاء الجنرالات يستقل بالمقاطعة التى يعيش

فيها ويحتمى بما كون لنفسه فيها من جيوش ليحكم فيها على هواه ، يفرض الضرائب كما شاء ويكدس الأموال والخيرات لحسابه الخاص .

ومن هؤلاء الجنرالات كان « شانج هو » ابن الجنرال تسولين العجوز. كان أبوه حاكما بأمره فى أقاليم منشوريا الواسعة ، وله جيش ضخم وموارد أضخم . وعندما اقتحم اليابانيون منشوريا فى طريقهم لالتهام الصين ، قتل وهو يكافحهم ، وبذلك خلف لابنه لقب الجنرال ، وبلاداً ضائعة ، وكرهاً لا يحد لليابانيين ، وإن كان قد ترك له جيشاً ضخما وخزانة مليئة بالذهب .

كان الجنرال « الشاب » كما يدعونه ، فى الثالثة والثلاثين عندما مات أبوه . فعاش فترة خيل للجميع أنه استكان فيها إلى ذلك المصير . عاش فى شنغهاى فى أباحية صاخبة ، فأدمن الأفيون ثم عالجه بالمورفين فأدمنه أيضاً . والذهب الذى فى خزائنه لا ينفذ وجيشه اللجب يمرح مطمئناً إلى حياة الكسل والخمول . إلى أن كان يوم فى أكتوبر عام ١٩٣٠ وفى ساعة من ساعات صحوه ، هجر كل ذلك لينضم بقواته إلى قوات الحركة الوطنية « الكومنتانج » التى يقودها شيانج كاى شيك .

كان ذلك فى ساعة عصيبة من ساعات بطل الصين ، ولعل هذا هو الذى جعله فى وقت ما أكثر المقربين إلى شيانج من الجنرالات . وقد أثبت فعلا خلال السنوات التالية أنه قائد ممتاز وأنه يستطيع أن يكون شديد الولاء إلى أقصى حد عندما يريد ، ومخادعاً أيضاً إلى أقصى حد عندما يريد ، ولذا كانوا يسمونه بالجنرال المتقلب .

وهناك جنرال آخر لعب فى حياة الصين دوراً بارزاً ، ذلك هو الجنرال شوته أو « تيموشنكو الصين » أو قائد القوات الشيوعية الصينية التى يطلق عليها اسم القوات الحمراء .

بدأ شوته حياته متلافا فى الصين وفى أوروبا واليابان ، ثم رحل إلى موسكو بعد أن أكمل تعليمه فدخل مدرستها الحربية حتى أنه لما عاد إلى بلاده كان قد تشبع بالمبادىء السوفييتية .

عاد شوته فوجد بذرة الشيوعية التى غرسها مبعوثو روسيا أمثال « لومولين » و « فون جالتز » قد بدأت فى الازدهار . ولكن أحداً لم يكن يكره الشيوعية كما كان يكرهها شيانج كاى شيك . وعندما حاربهم بلا هوادة اعتصمت فلولهم بالجبال وتزعم « شوته » قواتهم وضم إليه اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين والهاربين وطلاب المغانم وكل من كان يطمح فى الكسب دون أن يدفع الثمن .

اعتصموا بالجبال وكوّنوا القوات الحمراء التى كانت تنحدر إلى البلاد المتاخمة لهم وتسلبها . وكان نفوذهم يمتد ويتضاعف حتى كوّنوا حكومة وضربوا النقود وأنشأوا المحاكم وسيطروا على ما لا يقل عن عشرين مليوناً من الصينيين .

كانت تلك هى حال الصين عندما تفتحت عليها أعين شيانج كاى شيك وهو فى السابعة عشرة من عمره ، أى سنة ١٩٠٥ . وإلى جانب ذلك كانت هناك جماعات الإصلاح السرية والعلنية ، وهى التى تجمع المتطرفين وأحزاب الوسط ، يقودها رجال متحمسون ، أمثال الرجل الثورى

« شن شى ماى » وطالب الطب « صن يات صن » ممن ألفوا جمعيات « البوكسرز » وإحياء الصين وغيرها من الهيئات الوطنية التى تدعو إلى إصلاح تلك الحال وضم أشلاء الصين المتنافرة وتوحيدها .

لم يكن عجيباً إذن من شيانج كاى شيك الشاب الهزيل الفقير ، وهو يدين بالولاء لتعاليم كونفوشيوس ، أن يلح فى طلب تعلم الفنون الحربية ليكون جنديا ، وقد عاش صباه على أمل واحد هو أن يدخل مدرسة العلوم الحربية فى طوكيو عاصمة اليابان . ولكن شيانج لم يكن له سند من كبار الحكام ليساعدوه فى تحقيق أمله ، فاضطر إلى دخول مدرسة « باوتنج فو » الأمبراطورية العسكرية الصينية بالقرب من بيكين ، وفى « باوتنج فو » التقى به « شن شى ماى » وسرعان ما أعجب به شيانج وامتدت بينهما صداقة وطيدة ، وكان لشن شى ماى رأى فى الصين لا يتحول عنه وهو أنه لا صلاح لها إلا بثورة كاملة عاجلة . وعنه استقى شيانج ما اشتهر به فيما بعد من جرأة وتطرف ، ولقد بدت عليه هذه الصفات عندما التحم بأحد المدرسين اليابانيين فى كلية « باوتنج فو » ، فقد أمسك المدرس بحفنة من التراب ووضعها على المائدة وقال لتلاميذه « هذه الحفنة تحتوى على ٤٠٠ مليون جرثومة على الأقل ، فهى أشبه بالصين بها ٤٠٠ مليون نسمة » ، وهنا صمت التلاميذ جميعاً إلا شيانج فقد انتقل فى خفة الهر إلى منضدة الأستاذ وقسّم حفنة التراب إلى ثمانية أقسام وواجه التلاميذ قائلا : « يسكن اليابان ٤٠٠ مليون نسمة ، ويمكن مقارنتها بأحد هذه الأقسام

التى يحتوى كل منها على ٥٠ مليون جرثومة ».

وأخيراً ترك شيانج « باوتنج فو » وأمكنه أن يحقق أمله القديم فانتقل ليكمل دراسته فى مدرسة « شنيوجوكيو » الحربية فى طوكيو ، ومكث بها ثلاث سنوات التحق خلالها بالآلاى ١٣ مدفعية الميدان بالجيش اليابانى كجندى عادى ، وفى خلال تلك الفترة عرف الرجل الثانى الذى كان له أكبر الأثر على حياته وهو الدكتور « صن يات صن ». كان لقاءهما عام ١٩٠٩ وكان شيانج فى ذلك الوقت قد بلغ الحادية والعشرين ...

وفى خلال ذلك انضم شيانج إلى جمعية صينية وطنية تعمل سراً فى اليابان وتمهد الطريق لظهور « الكومنتانج ». وفجأة فى يوم ١٠ أكتوبر عام ١٩١١ حدث حادث من حوادث الثورة التافهة كان إيذاناً ببزوغ فجر جديد فى حياة الصين ، وكان هذا الحادث بداية الكفاح الطويل الذى جعل شيانج يكتب بحياته أروع تاريخ لأمته والذى كانت أولى صحائفه تلك الحرب التى بدأها شيانج فى ٤ نوفمبر عام ١٩١١ ولم تقف رحاها للآن.

لم يكن ذلك الحادث سوى انضمام حامية « ووشانج » إلى ثورة أشعلها « شن شى ماى » صديق شيانج القديم فى شنغهاى. كانت تلك هى الفرصة السانحة فانتهزها شيانج. ولم يكن أمامه عندئذ بد من أن يرحل إلى شنغهاى ، وقد دبر الأمر فى صمت ، واستطاع أن يحصل على تصريح لمدة ٤٨ ساعة. ومن بلد بعيد حزم شيانج ثيابه العسكرية وسيفه

وأرسلهما بالبريد إلى وزارة الحربية اليابانية . وفى أحد مراكب البضائع — ليضلل اليابانيين — اختفى شيانج فى طريقه إلى شنغهاى .

وهناك كانت الثورة قائمة . وعندما استطاع الوصول إلى صديقه « شن شى ماى » ، وجده فى أحد أحياء شنغهاى القديمة عاكفاً على خريطة للمدينة يضع الخطة للاستيلاء على أبنية الحكومة ، فاشتركا معاً فى وضع تلك الخطة ، واطلع كل منهما بجانب منها .

وأفلح شيانج فى تنفيذ الجزء الذى تولاه من المعركة ، ولكن الثورة فى المجموع كانت فاشلة . وقد قبض على صديقه عندما استعصت عليه قلعة المدينة فترك جنوده ودخلها وحده ليجادل حراسها ويحاول استمالتهم إلى الثورة بالمنطق . وقد قبض عليه الحراس وإن كانت قوات شيانج قد تمكنت فيما بعد من اقتحام القلعة وتخليص « شن شى ماى » من الأسر .

وكان لتلك الحوادث المتعاقبة ، بالإضافة إلى قصة فراره من اليابان ما جعل اسمه على كل لسان ، ولم تمض أيام بعد ذلك إلا وكان شيانج بطل الثورة الصينية .

انتهت الثورة كما قلنا إلى الفشل ، وقتل « شن شى ماى » ، فانضم شيانج إلى « صن يات صن » الذى حضر خفية إلى الصين ، وبدآ معاً يحيكان خيوط التآمر .

و « صن يات صن » هو الزعيم الروحى للصين وقد نهل شيانج من حكمته فى تلك الليالى التى كانا يقضيانها سوياً فى طوكيو . وقد كوّن « صن يات صن » الحزب الوطنى الصينى (الكومنتانج) واستطاع أن يدبر عدة

حركات ثورية كان شيانج من أقوى دعاماتها ، وبرزت مواهبه كقائد حربى ممتاز وإن زعم الكثيرون أن الظروف قد خدمته كثيراً وأن « صن يات صن » كان يعالج كثيراً من أخطائه وعيوبه بحكمته وسعة صدره .

وقد تكونت الجمهورية الصينية أخيراً برئاسة « صن يات صن » وظل شيانج يخدمه بإخلاص خمسة أعوام طوال ، ولكنه خرج بعد هذه الأعوام بنتيجة غريبة لتجاربه السياسية وهى أنه لا بد من دعاية قوية وأنصار كثيرين يجمعهم المال قبل أن يجمعهم أى شىء آخر . وكان أن قرر شيانج أن يهجر السياسة للاشتغال بجمع المال ...

كان ذلك فى عام ١٩١٧ عندما يمم شيانج شطر « شنغهاى » ، سوق الصين الكبير ، حيث غامر فى سوق المضاربات المالية . ومن العجيب أن يفلح شيانج فى التجارة حيث تمكن فى مدى أربع سنوات من تكوين ثروة لا بأس بها .

وفى عام ١٩٢١ استدعاه « صن يات صن » مرة أخرى ليشتغل بالسياسة والحرب معاً ، فقد كان الكومنتانج فى حاجة إليه بعد أن نما وقويت شوكته وكثر أنصاره ، فعين شيانج رئيساً للجنة المركزية فى الحزب .

وكان الدكتور « صن يات صن » ينتدبه فى المهام الدقيقة والهامة . وفى إحدى تلك المهام كلفه بالذهاب إلى موسكو للعمل كضابط اتصال ومراقبة طبقاً لشروط الاتفاقية التى عقدت وقتذاك مع روسيا . وهناك تفتحت أمام أعينه آفاق جديدة بعد ما سبق له أن خبره من النظم

السياسية والعسكرية الصينية واليابانية . وقد شاهد شيانج تلك النظم فى روسيا تتحد وتتضافر وتتخذ لنفسها طريقاً آخر هو طريق الثورة . وعندما عاد إلى الصين كان اعتقاده راسخاً فى أن الصين فى حاجة ماسة إلى إصلاحات عسكرية شاملة لكى تتمكن من ضمان النجاح فى ثورتها الأهلية . وقد رافق شيانج فى عودته إلى الصين الجنرال فاسيلى بلوخر الذى أصبح فيما بعد المستشار الروسى العسكرى لشيانج ومعاونه فى كنتون .

والظاهر أن شيانج استطاع أن يقنع الدكتور « صن يات صن » بضرورة إدخال بعض تلك الإصلاحات العسكرية بدليل أنه قبل وفاة الدكتور صن بيوم واحد أنشئت مدرسة حربية جديدة فى كنتون وعهد إلى شيانج بمهمة تدريب طلبتها للعمل فى الجيش الأهلى الجديد ، وكانت الدراسة بتلك المدرسة تستغرق عامين يتدرب الطلبة خلالهما على العلوم العسكرية المقرونة بالتعاليم الوطنية ، وتبث فيهم روح المحافظة على الحالة النفسية والمادية للجنود الذين سيعملون تحت إمرتهم فى أعلى مستوى . وعندما مات الدكتور صن يات صن فى عام ١٩٢٥ خلفه شيانج فى رئاسة الدولة كما أصبح قائد الجيش الصينى الوطنى وبذلك أصبحت له الصدارة فى الحزب والسياسة .

وإن شخصاً آخر ليست له مطامع شيانج كان كفيلا بأن يقنع بهذا النصر ، ولكن شيانج بقى على وفائه لعهده من الكفاح المستمر لأجل الصين . فلم يهدأ ، بل سرعان ما قام بحملاته فى أرجاء الصين

يهاجم العناصر المتألبة على الجمهورية بفعل دعايات الروس أو اليابان . واستطاع فعلا أن يخلق من الصين أمة متحدة .

كان هذا الذى قام به شيانج عملا عظيما لا نظير له فى التاريخ ، كيف لا وقد تمكن فرد واحد من أن يجمع ٤٠٠ مليون نسمة فرقتهم الخلافات وأنهكتهم الخصومات تحت لواء واحد ويجعل منهم أمة واحدة وشعباً واحداً .

ولم يكن نفوذ الحزب الذى يرأسه شيانج منبسطاً على الصين كلها ، بل كان أكثر نفوذه فى الجنوب ، أما فى الشمال فكانت الفوضى والاضطرابات . وكان أكثر الناس تفاؤلا لا يشك فى أن نجاح شيانج فى اجتياح الصين سيتطلب منه سنوات عمره بل وأكثر منها . ولكن المتتبعين لسير الحوادث ذهلوا عندما توالت الأنباء بانتصارات شيانج . ففى الفترة بين ١٩٢٦ و ١٩٢٨ وهى الفترة التى قاد فيها شيانج الجيش الوطنى المكون من ٢١ فرقة ، اكتسح الجيوش الإقليمية الشمالية لأول مرة فى تاريخ الصين منذ حرب عام ١٨٦٨ / ١٨٧٨ . وكانت الجيوش الوطنية تخترق الأقاليم دون أن تقوم بأى عمل من أعمال النهب والسلب أو الاعتداء على الأهالى حتى وصلت فى عام ١٩٢٨ إلى بيكين ودخلتها .

قلنا أن أحداً لم يكن يكره الشيوعية كما كرهها شيانج الذى كان يميل إلى النظم الديموقراطية التى ترمى إلى إقرار النظام الاجتماعى على حرية الاختيار والتملك والعمل . ولكن بعض اليساريين من أعضاء

الكومنتانج كانوا يغالون فى تفسير مبادىء الدكتور « صن يات صن » التى تقول بالمساواة الاجتماعية بين أبناء الأمة ، ومن هذه الناحية لاحت للشيوعيين الثغرة التى كانوا يحلمون بها ، وإذن فقد دب الانقسام فى صفوف الحزب فأصبح أنصاره من لونين : الصفر الوطنيون وعلى رأسهم شيانج ، والحمر الشيوعيون وعلى رأسهم كثيرون .

ولم يتردد شيانج أو يقف طويلا ليسمح للفتنة بالنمو إلى أن يتسع فاها لابتلاعه ، بل قرر أن يضرب وأن يضرب بكل شدة وفى كل مكان ، وأن ينسى كل شىء إلا مصالح الصين .

ولم يلبث شيانج أن وجد مركزه يزداد تحرجاً وهو شارع فى هذه الحركة الجديدة ، فهو أولا فى حاجة إلى المال وهذا المال أكثره فى يد الأجانب البيض الذين سبق له أن أعلن عداوته لهم . وفى ذلك الوقت كان شيانج قد أشرف بجيوشه على شنغهاى ، وهناك التقى بكبار الماليين الذين كانوا يخشون الحمر فعرضوا عليه أموالهم على سبيل القرض ، فقبلها شيانج دون تردد لأن غايته قد اتحدت مع غايتهم .

وأخذ شيانج يختبر قوته ويكر فى كل مكان وهو يهيء لجنوده تدريبا عالياً على أساس عملى واقعى . فراح الحمر يفرون أمامه فى كل مكان ويستسلمون صاغرين حتى لقد شبهوا وقتذاك باليهود فى الدول الديكتاتورية . وقد استمرت تلك المطاردة ١٠ سنوات طويلة ومع ذلك لم يتمكن من استئصال شأفة الشيوعيين وذلك لأن روسيا كانت وراءهم تمدهم بالمال والعتاد . وفى خلال ذلك الكفاح الطويل المضنى

كانت جبهة شيانج الداخلية غير مستقرة إذ كثيراً ما استقال من الرئاسة والقيادة، وكثيراً ما أعيد انتخابه، وفى كل مرة كان يستحوذ على سلطات أوسع. وقد تمكن أخيراً من بسط سلطانه على اثنين وعشرين مقاطعة لم يسبق لها أن دانت بالطاعة لقائد قبله.

كانت فترة الكفاح الحربى الذى مر بالصين من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٢٨ قد أقنعت شيانج بضرورة الاستفادة بخبراء عسكريين من الخارج. فما أن تخلص من مستشاريه الروس فى عام ١٩٢٧ حتى لجأ إلى ألمانيا فاستقدم منها بعض الخبراء لمعاونته فى تنظيم الجيش الصينى.

وكان أول من وصل من هؤلاء هو الكولونيل «ماكس باور» الذى أنشأ المدرسة الحربية المركزية فى نانكين، ونظم فرق إعادة للضباط المتخرجين من مدرسة هوامبو العسكرية، كما كوّن فرقة نموذجية ليتدرب فيها ضباط الوحدات الجديدة. وفيما بعد أنشئت مدارس فنية للمدفعية ومقاومة الطائرات والدبابات والمواصلات وأعمال أركان الحرب. ويعود إلى هذا الكولونيل الألمانى الفضل فى سرعة القضاء على الثورة التى قام بها لى تسونج ين فى عام ١٩٢٩.

والمستشار الثانى الذى استقدمه شيانج هو الجنرال هانز فون سيكت، ذلك الرجل الذى أنشأ الصناعة الحربية فى ألمانيا، وكان جندياً بارعاً وقد أعجب شيانج بشخصيته القوية ومتانة أخلاقه ومهارته الفنية. وكان رأى سيكت أن الإصلاح العسكرى فى الصين يجب أن يتمشى جنباً إلى جنب مع قيام الصناعات الحربية، وقد عمل بجد هو والجنرال

ألكسندر فون فالكنهاوزن الذى خلفه فى هذا العمل لرفع مستوى التدريب العسكرى الذى كان يدرس فى نانكين ، وتحسين أعمال أركان الحرب فى الجيش ، غير أنه قبل أن يتمكن هؤلاء المستشارون من القيام بأعمال واسعة النطاق ، أعلنت الحرب مع اليابان فى عام ١٩٣٧ ...

وفى شهر يونية عام ١٩٣٨ كانت ألمانيا النازية تطمح فى ضم اليابان إلى المحور ، وفى سبيل التقرب إليها قامت باستدعاء هؤلاء الخبراء الألمان من الصين ، وفى ذلك الوقت كانت الحرب على أشدها ومع ذلك ظل شيانج يجاهد بما لديه إلى أن كان عام ١٩٤٢ حين بدأت المعاونة الأمريكية تصل إلى الصين .

واعتباراً من عام ١٩٣٢ ، كانت تواجه شيانج مشكلتان عظيمتان استحوذتا على كل تفكيره ، واستنفدتا كل جهوده فى سبيل حلهما . وكانت المشكلة الأولى هى كيفية التصرف إزاء الغزو اليابانى الذى أخذ يلتهم الصين الشمالية القطعة بعد الأخرى ، والمشكلة الثانية هى ما يجب أن يفعله لمواجهة الحمر . وقد شعر أتباع شيانج بخيبة أمل كبيرة عندما وجدوه لا يلقى اهتماماً ظاهراً للمشكلة الأولى فى حين كان يقضى جل وقته ونشاطه فى محاولة سحق الحمر فى كيانج سى . وهنا تبين أن المشروع الضخم الطويل الأمد لإنشاء الطرق فى الفترة من ١٩٣١ إلى ١٩٣٧ لم يكن سوى استعداد للحرب ، ولكن أحداً لم يتنبه إلى تلك الحقيقة فى ذلك الوقت .

وقد شن شيانج أربع حملات حربيـة ضد الشيوعيين فى خـلال عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٤ ، حتى تمكن أخيراً من سحق القوات الشيوعية واضطرها هى وأتباعها من الوطنيين إلى القيام بحركة هجرة كانت أضخم ما عرفه التاريخ من الهجرات . وقد سار الشيوعيون ٦٠٠٠ ميل خلال كيانج سى وكوانج سى وكواى شو ويونان وسيكانج وكانسو حتى وصلوا إلى شن سى الواقعة فى أقصى الشمال . وبالرغم من هـذا الانتصار الباهر الذى دل على قيادة بارعة ، وضبط وربط عظيمين ، فإن شيانج لم يقنع بمـا تم بل لعله قد زاد إصراراً على اقتـلاع الشيوعية من جذورها قبل أن تنفث سمومها فى باقى الصين .

وفى تلك الأثنـاء أظهرت القوات الصينية الشمالية ميلا إلى عدم مواصلة القتال ضد الشيوعيين ، فقد كانت القوات اليابانية قد اجتاحت أقاليمهم فباتوا يفضلون أن يخوضوا غمار الحرب الأهلية ضد الغزاة . ولـكن جميع المحـاولات التى بذلها المـارشال الشاب «شانج سو لينج» لإقناع شيانج بإعلان الحرب على اليـابانيين قد فشلت ، حتى أنه قام باختطافه فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٦ محاولا بذلك إقنـاعه بوجهة نظره . وقد كانت عملية الاختطاف هذه صفحة جديدة فى تاريخ الصين وفى تاريخ شيانج نفسه ، فإن المارشال الشاب حاول جاهداً أن يقنع شيانج بالـكف عن محاربة الحمر وتوحيد القوى الأهلية لتقف كتلة واحدة أمام الغزو اليابانى ، ولـكن شيانج وهو فى سجنه رفض الاقتناع بهذا الرأى حتى اضطر المارشال الشاب أخيراً إلى إطلاق سراحه .

بدأ غزو اليابان للصين فى عام ١٩٣١ باحتلال مانشوريا ، ثم سقطت جيهول عام ١٩٣٣ ، وشاهار وسويان عام ١٩٣٦ .

وقد أكد بعض الزعماء الصينيين أن شيانج كان يعلم بضرورة مقاومة اليابانيين منذ عام ١٩٣٤ ولكنه كان يعلم أيضاً أن الصين لم تكن بعد مستعدة لتخاطر بخوض غمار الحرب وحدها ، وكان يعلم علاوة على ذلك أن خوض غمار مثل هذه الحرب يقتضى منه استخدام جميع الأسلحة الممكنة من سياسية وسيكولوجية وروحية ودبلوماسية . فإذا ما دخلت الصين الحرب ستستنفذ كل ما تملكه من كميات السلاح الضئيلة . ويقال أن شيانج قد أوضح كل تلك الحقائق فى المحاضرات التى كان يلقيها على الضباط فى عام ١٩٣٤ . والتى كانت سراً لا يذاع .

فلما أعلن الحرب على اليابان بعد ذلك بثلاث سنوات طبعت تلك المحاضرات ووزعت فإذا هى كلها استعداد وتوجيه للحرب ضد اليابان.

وأخيراً ، وفى عام ١٩٣٧ ، شعر شيانج أنه أصبح مستعداً ، فأهاب بالصينيين أن يضحو بكل شىء فى سبيل مقاومة اليابانيين . ويقول بعض المراقبين الأمريكان أن شيانج فى ذلك الوقت كان لديه نحو ٢٠٠ فرقة قوام كل منها ١٢٦٠ بندقية . وقد شكلت تلك الفرق فى ١٠٠ فيلق و ٥٠ جيشاً ، هذا بخلاف جيش الكومنتانج الذى دربه الألمان والذى كان قوامه نحو ٣٠٠,٠٠٠ رجل على قسط وافر من حسن التدريب والكفاءة .

وكانت الصعوبة الكبيرة التى أمام شيانج هى تموين ذلك الجيش. فإن الصين تفتقر إلى الصناعات الهامة ، وهى لذلك مضطرة للاعتماد على شراء ما تحتاج إليه من الدول الأخرى ، وحيث أنه فى تلك الفترة التى كانت الصين فيها أحوج ما تكون إلى شراء الأسلحة ، كانت دول المحور تستعد للحرب ، فإنها لم تتمكن فى أى وقت من الحصول على كميات مناسبة من الأسلحة الحديثة ، وكانت مضطرة إلى الشراء من حيث يتيسر لها ذلك ، مما أدى فى النهاية إلى تعدد أنواع الأسلحة وزيادة المشاكل الخاصة بالصيانة والتدريب . والخلاصة أن شيانج لم يستطع فى النهاية أن يعتمد إلا على جيش من حملة البنادق ، تعوزه المدفعية والأسلحة المدرعة ، ليواجه به جحافل اليابان الكاملة التسليح .

وفى ليلة ٦ / ٧ يوليو عام ١٩٣٧ بدأت الحرب الدفاعية دون إعلان ، وذلك عندما التحمت القوات الصينية بالقوات اليابانية عند ليكوشياو بالقرب من بايبنج ، واضطرت إلى الارتداد سريعاً أمام ضغط القوات اليابانية المتفوقة عليها فى العدد والسلاح .

وامتد القتال بعد ذلك إلى الجنوب ، وكف شيانج عن اتباع خطته السابقة التى كانت ترمى إلى الانسحاب وإخلاء الأرض ، حتى وصل إلى شنغهاى ، وهناك ثبت قواته . وقد أظهرت القوات الصينية فى دفاعها عن المواقع التى أنشأتها فى تلك المنطقة من الثبات وقوة العزيمة ما أثار إعجاب المراقبين جميعهم . غير أن الجاسوسية الألمانية استطاعت

أن تكشف عن الثغرة التي سمحت لليابانيين بعد ذلك من اختراق خطوط الدفاع الصينية ، حتى اضطر شيانج إلى التراجع مرة ثانية نحو الغرب ، حيث أنشأ ما أسماه خط الشتاء ، على بعد ٥٠ ميلا إلى الغرب من شنغهاى . ولكن هذا الخط لم يعمر إلى أبعد من يوم ٢٠ نوفمبر ، فاستأنفت القوات الصينية تراجعها غرباً حتى وصلت إلى العاصمة نانكنج ، التي لم يكن حظها بأحسن من حظ شنغهاى ، فسقطت فى ١٣ ديسمبر . وفى خلال ذلك كانت القوات اليابانية لا تنى عن القيام بأفظع ما عرفته الحروب من أعمال السلب والتدمير ، حتى لقد قدر عدد المدنيين من الأهالى الذين لاقوا حتفهم فى تلك الفترة بنحو ٤٠,٠٠٠ نفس .

وكان لسقوط نانكنج ، ولأعمال العنف التي قام بها اليابانيون ، رد فعل كبير . فامتلأت قلوب الصينيين حقداً فوق حقد ، وأوغرت صدورهم كراهة ، وتحفزوا للانتقام من الغزاة المتوحشين ، سيما وقد قام هؤلاء بإنشاء حكومة صينية كويزلنجية فى نانكنج .

وقد لخص شيانج خطته الدفاعية فى خطاب ألقاه وقال فيه :

« كانت خطتنا من بادىء الأمر ترمى إلى إنشاء قواعد المقاومة ، ليس على امتداد شواطىء الأنهار ، أو عند مراكز خطوط المواصلات ولكن فى داخلية البلاد ... فإن مقاطعاتنا الغربية هى القواعد الحقيقية للمقاومة . ولن يمكن لأى متاعب وقتية أن تزعزع من قوة عزيمتنا ... وإن حرب المقاومة التي نخوض غمارها الآن تختلف عن أى حرب أخرى ذات أغراض سياسية . فهى حرب نشنها لغرض واحد ، هو

المحافظة على حياة أمتنا — أو بعبارة أخرى لصيانة الثورة الأهلية . ولذلك فهى حرب لن تتقيد بالوقت ولا بالمسافة ، ولن تؤثر فيها العوامل المالية والاقتصادية أو المواصلات ... »

ثم جاء بعد ذلك سقوط كانتون وهانكوف فأنهى المرحلة الشرقية من الحرب ، وبدأت المرحلة الغربية للمقاومة وكان مركزها شونج كنج . وفى ذلك الوقت كانت الحكومة الصينية قد عزلت عن الاتصال بالعالم الخارجى ، وكان الظاهر لأول وهلة أن بلاداً فقيرة كالصين لن تستطيع استمرار المقاومة ضد دولة بحرية صناعية تجوب سفنها جميع المحيطات فى أمن وقوة . غير أن نفس هذا الوضع الخطر والنكبات التى أجبرت الصين على الاعتماد على مواردها الضئيلة ، قد عوضت بعض الشىء النقص فى المواد التى كان يمكن أن تصلها من البلاد الأجنبية . وعلى أثر انتقال الحكومة إلى شونج كونج ، بدأت حركة هجرة من أضخم ما عرفه تاريخ الهجرات ، حيث انتقل الملايين من السكان المدنيين من المناطق التى تسيطر عليها اليابان إلى داخلية البلاد . ولم يقتصر أمر الهجرة على الأفراد ، فقد نقلت مصانع بأكملها آلاف الأميال ، وأنشئت مصانع أخرى صغيرة فى المقاطعات الغربية لدرجة أن الصين كادت تصل إلى حد الاستكفاء الذاتى فى تلك المرحلة الدقيقة من الحرب .

وفى هذا الوقت كانت الجيوش الصينية التى تقوم بحرب العصابات تبدى نشاطاً عظيماً فى الشمال حتى أوصلت النشاط الحربى إلى أبواب شانغهاى . وكانت تلك القوات تقوم بغارات عنيفة على السكك الحديدية

وخطوط المواصلات ، وتوقع بالجماعات اليابانيــة المنعزلة ، كما كانت تقوم بتدريب الفلاحين الصينيين على أعمال المقاومة السلبية . وقد جاء فى بعض التقارير الرسمية أن أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ من رجال العصابات كانوا يعملون فى وقت ما خلف خطوط اليابانيين .

وفى خلال ذلك كان شيانج يواجه كثيراً من المتاعب الداخليـة فى محاربة الخيانة والعوامل الهدامة التى كان يقوم بهـا بعض القـواد الصينيين ، حتى أنه أمر بمحاكمة بعض الجنرالات ، وثبتت خيانة أكثرهم فأمر بإعدامهم ، ومن هؤلاء الجنرال لى فوينج قائد الجيش الرابع ، والجنرال هان فوشو حاكم شانتونج ، والجنرال شيه يو سان حاكم جهار .

واستمر الجهاد حتى كان سقوط فرنسا عام ١٩٤٠ ، فساعد ذلك اليابانيين على السيطرة على طرق اقتراب عديدة تؤدى إلى الصـين ، وذلك باحتلالهم جزر الهند الصينية الفرنسية . ومن ذلك الوقت ارتبطت الحرب فى الصين بالحرب العظمى التى كان مسرحها الرئيسى فى أوروبا ، حيث قد تنبهت الدول العظمى أخيراً إلى أهمية هذه الحرب البعيدة ، فقررت اعتبار الصين من دول الحلفاء ، وأخذت تمدها بالمساعدات المختلفة .

نجحت إذن خطة شيـانج نجاحاً منقطع النظير ، وهى الخطـة التى كانت ترمى إلى الثبات وكسب الوقت والاستعداد . حقيقـة استولت اليـابان على مساحات شاسعة من الأراضى الصينية ، وعدد كبير من مدنها وموانيها ، ولـكن الواقع أنه كلما ازداد توغل اليابان فى الأراضى الصينية كلمـا زادت أمامها المصاعب وتضاعفت التبعات ، وهى تخسر

دائماً شأنها فى ذلك شأن كل مهاجم ، خصوصاً إذا كان لخصمه خط انسحاب مفتوح ــ ومهما كانت المساحات التى احتلتها اليابان ، فقد كان الباقى من الأراضى الصينية خلف شيانج أكثر من ثلثى مساحة الصين . فضلا عن ذلك فقد كانت اليابان مضطرة للانفاق على الملايين من جيوشها ، وليست اليابان من الأمم الغنية ، بل أن ما دفعها للحرب لم يكن سوى الضائقة المالية التى كانت تعانيها .

وقد حدث ما توقعه شيانج ، فقد أخذت اليابان تفقد قوة أعصابها مع مضى الزمن واستطالة فترة الحرب ، واستمر الحال كذلك حتى ابتداء الحرب العظمى ، ثم إلى أن أصبحت الصين عضواً هاماً فى هيئة الحلفاء ، وحصل شيانج على معاونة أكبر أساطيل العالم وأعظم مصانعه ، وهنا كانت اللحظة الحاسمة فى حياة شيانج ، فقد بدأت اليابان منذ عام ١٩٣٧ ترى شبح الهزيمة ، فبادرت بتقديم عروض سخية على شيانج ، وحاولت بكل وسيلة أن تقنعه بالكف عن الحرب ولكن دون جدوى . وهكذا كادت اليابان تجثو على ركبتيها أمام الصين التى لم تحصل على انتصار واحد منذ بدء العمليات . وقد تدخلت ألمانيا فى ذلك الوقت محاولة إقناع الصين بالصلح مع اليابان ، وحاول السفير الألمانى أخيراً أن يعرض هذا الصلح على شيانج باسم اليابان ، فزاره فى منزله ، واستقبلته ــ كالمعتاد ــ مدام شيانج . فقدم لها السفير وثيقة الصلح ، فألقت عليها نظرة واحدة ، ثم قالت : « إنى مسرورة جداً لرؤيتك مرة أخرى . كيف حال أطفالك الأعزاء ؟ »

واستمر الحديث عن أطفال السفير دون إشارة واحدة إلى موضوع الصلح . وفى عام ١٩٣٨ قدمت اليابان شروطاً جديدة لم يكن نصيبها بأحسن من نصيب عروض العام السابق .

عندما ترى شيانج كاى شيك لأول مرة يأخذك شيء من خيبة الأمل ، فهذا الذى حمل على كتفيه عبء توحيد الصين يروعك ما تراه فيه من جفاف وخمول لا ينبئان بعبقرية أو ذكاء . ولكنك إذ تجلس إليه ، ويفيض معك فى الحديث ، تبرق عيناه ويفيض وجهه بدلائل عبقرية عميقة الغور تلمسها وتحس بها ؛ وهو إنسان متقشف يذكرك بالمتصوفين ، لا يدخن ولا يشرب الخمر ، بل وليس من عادته شرب القهوة أو الشاى ، يكثر من الاختلاء للعبادة والتفكير ، وهو لذلك يمقت المجتمعات ولا يشترك فيها إلا مضطراً ؛ حياته الخاصة شيء رتيب لا يشذ فى يوم عنه فى آخر ، فهو على الدوام يستيقظ مع الفجر ، كما تقضى بذلك حكمة كونفوشيوس ، ولا يكف عن العمل حتى الليل ولا ينسى قبل أن ينام أن يدون مذكراته الخاصة التى تعتبر الآن سجلا لأحداث الصين الحديثة .

تولى رئاسة الوزارة مراراً كما تولى رئاسة الجمهورية ، لكنه لم يكن يعلق أهمية على تلك المناصب إلا بقدر ما كانت تساعده على تحقيق أهدافه الوطنية . وهو يحى حياة عسكرية بحتة ، وقد علمته هذه الحياة وما أحاط به من ظروف قاسية عديدة أن يكون عنيفاً شديد القسوة ،

فقد أدان الشيوعيين وذبحهم ذبح الماشية ، كما علمته تلك الحياة أن يكون كثير الحذر .

أثبت فى كثير من المواقف أنه لا يهاب الموت ، وهو صبور قوى الأعصاب إلى حد بعيد ، وهو إلى ذلك دائم الحركة جم النشاط استخدم الطائرة فى كثير من تنقلاته حتى طاف بها معظم أرجاء الصين وتمكن بذلك من أن يرى سكان المقاطعات الغربية ويرونه ، وكان يقابل بحماسة بالغة فى كل مكان . وفى خلال توليته للإدارة المدنية لم يهمل شأنها بل كان يعمل على تنظيمها حسب النظم الحديثة ولا سيما فى الناحية المالية ، أما الناحية الاجتماعية فكانت حركة الإصلاح فيها تقودها زوجته .

وكثيرون لا يعلمون أن شيانج تزوج مرتين ، فقد تزوج لأول مرة وهو فى الخامسة عشرة بإحدى الفتيات من جيرانه ، ولكنه فى عام ١٩٢١ طلق تلك الزوجة لأنه وجد أن مستواها العلمى والاجتماعى لم يكن ليؤهلها لأن تصبح سيدة الصين الأولى عندما يصبح هو رجل الصين الأول . ولم يمض إلا القليل من الزمن حتى قابل فتاة جميلة هى « ماى لينج سونج » فشغف بها وأخذ يلاحقها دون كلل أو هوادة حتى تزوجا .

وشيانج من هذه الناحية يمكن مقارنته بالزعيم الآخر فى طرف المحيط وهو الرئيس روزفلت الراحل ، فإنك لم تكن تستطيع أن تتحدث عن أحدهما دون أن تذكر زوجته . وزوجة شيانج الثانية

تعتبر شريكته فى كل شىء، فى قلبه وفى نشاطه وفى عقله وفى حبه لبلاده . وهو سعيد فى حياته العائلية ولا يخفى هذه السعادة عمن حوله، وقد كتب إليها مرة يقول: «لقد وطدت العزم على أن أموت شهيداً فى سبيل بلادى إذا هى احتاجت إلى استشهادى، ولن أسمح لنفسى مطلقاً أن أقدم على عمل يشعرنى بالخجل من زوجتى أو يجعلنى غير جدير بالانتساب إلى الدكتور صن يات صن» .

والعائلة التى يصاهرها شيانج: أسرة صينية شهيرة، ليس ببناتها الثلاث اللواتى كن يسمين فى وقت ما «زهرات الصين الثلاث»، ولكن بنفوذها والسلطة التى كانت فى أيدى أفرادها .

وزهرات أسرة شونج الثلاث هن زوجات: الدكتور كنج رئيس وزارة الصين سابقاً، وهى الكبرى، والثانية هى أرملة الزعيم الكبير الدكتور صن يات صن، أما الثالثة فهى ماى ونج زوجة شيانج كاى شيك .

ويعترف شيانج رغم عناده، بالدور البارز الذى تلعبه زوجته فى حياته. وهو وإن كان شديد الاعتداد برأيه إلا أن زوجته فى الواقع هى مستشاره الناصح الأمين، فضلا عن كونها زميلته فى جهاده من أجل الصين . ولا شك فى أن جهل زوجها باللغات الأجنبية فيما عدا اليابانية هو الذى جعل منها ترجمانه الخاص .

ومدام شيانج لا تساهم فى حياة الصين العامة بهذا القدر فحسب، فإن لها دوراً بارزاً فى التعليم وهى التى ساعدت على إنشاء مئات المدارس

فى أرجاء الصين الشاسعة. وتدين لها البلاد بجماعات «الحياة الجديدة»، وهى حركة منظمة انتظم فيها الآلاف من الشبان والفتيان وهدفهم رفع مستوى الحياة الاجتماعية الصينية. وكانت مدام شيانج كاى شيك طيلة الحرب الصينية التى استدامت أعواماً طويلة تمثل زوجة الرجل المحارب الاول أكمل تمثيل، فكانت أول من يخف إلى الأماكن التى دمرتها القنابل وتساعد بيديها الرقيقتين فى رفع الأنقاض وإنقاذ الجرحى والترفيه عن المصابين. ولا ينسى الصينيون أن لها الفضل الأول فى إنشاء مئات القرى التى أمكن أن يأوى إليها المشرودن والمهاجرون ومن اجتاح اليابانيون أراضيهم وبيوتهم إبان زحفهم المروع على أراضى الصين ومقاطعاتها.

ولعل هذه الأسباب مجتمعة، إلى جانب نفوذها القوى، وصلاتها الوطيدة بالجاليات الأجنبية، ومكانة زوجها الباسل، هى ما جعلها تعرف فى الصين باسم «السيدة». والواقع أنها سيدة الصين الأولى بلا نزاع.

وفى شيانج كاى شيك أكثر من ناحية تسترعى نظر من يخبره عن كثب، فهو رجل لطيف ما فى ذلك من شك. فى حركاته وإيماءاته رقة وطيبة، ولكنه إلى جانب ذلك رجل صلب الرأى يميل إلى العناد، وله إصرار عجيب على الحصول على أهدافه التى يسلك نحوها دائماً طريقاً مستقيما. وهو لا يعرف المراوغة، بل يتجه نحو أعدائه رأساً ومواجهة، الأمر الذى جعل ضرباته قوية مروّعة، وإن كان ذلك أيضا مما عرضه إلى المتاعب عندما كان يفشل.

ولا شك فى أن قصة زواجه نفسها تدل على ناحية العناد فى عقلية هـذا الرجل العجيب . فإنه عندما تقـدم إلى أسرة شـونج يطلب يد ابنتهم ماى لنج ، لم يكن شيانج يدين بالمسيحية . وقد رفضت الأسرة الموافقة على هـذا الزواج لاختلاف دينه عن دينها . ورفض شيانج هو الآخر فى إصرار أن يصبح مسيحياً لغير سبب إلا للحصول على زوجة .. ولو كانت تلك الزوجة من عائلة شونج . ولـكن شيانج وعد بدراسة الدين المسيحى ، حتى إذا اقتنع به كان له أن يعتنقـه . وأكبر فيه أهل زوجته تلك الروح فزوجوه من ابنتهم . وبعد الزواج أكب شيانج على دراسة المسيحية فآمن بها واعتنقها فى عام ١٩٢٧ .

ومن صفـات شيانج البـارزة صبره الذى يكاد يضفى عليه ظلا من الخنوع والاستسلام . وإن هـذا الصبر ليتجلى بأبرز مظاهره فيما حدث عقب اجتياح اليابان لبقاع الصين . فقد اجتاحوا منشوريا ، ولم يحاول شيانج أن يحرك ساكناً . وبلغ توغلهم مقاطعة جيهول حتى التهموها ، ثم أردفوا بمنغوليـا الداخلية فمزقوها إرباً ، وشيانج صابر حتى لقد رماه قومه بالخضوع ، وقال البعض أنه باع بلاده .

وهنا تدخل الجنرال الشاب « شانج هو » الذى كان يريد الانتقام من اليابانيين الذين غزوا بلاده وقتلوا أباه ، فدبر حركة تمرد انتهت بأسر شيانج كاى شيك وهو عارى القدمين يرتدى منامته وبدون طقم أسنانه . وقد استدام هذا الأسر أربعة وعشرين يوما وأشيع فى الصين كلها أنه قتل . ولـكنه كان لدى المارشال الشاب يحاول إغراءه دون

جدوى لشن الحرب على اليابان ، حتى إذا يئس منه أخيراً اضطر إلى إطلاق سراحه .

وعاد شيانج إلى صمته . وظل رابط الجأش لا يدرى أحد إلى أى شيء يهدف . وفجأة ، فى عام ١٩٣٧ إذا بشيانج يأمر بالتعبئة العامة ، وينزل إلى الميدان بعتاد لم يدر أحد كيف استطاع الحصول عليه .

وعرف أهل الصين ، كما عرف العالم أجمع ، أن شيانج كاى شيك كان صامتاً لأنه كان يستعد ويتأهب للحرب . كان يؤمن بأن أى حرب ضد اليابانيين لا تجدى مادامت قوته تفتقر إلى المواد التى تدير عجلة الحرب . فراح يستعد منذ عام ١٩٣٠ ، ومكنه صبره من القيام بعمليات حربية هامة ما كان ليستطيع القيام بها لو لم يطل استعداده ويأخذ تمام أهبته .

وينعى الكثيرون على شيانج كاى شيك أنه من طلاب المظاهر . فقد ظل طيلة الحرب اليابانية الصينية ، وفى كل مكان تهاجر إليه حكومة الصين ، ظل يجمع أفراد الحكومة وكبار رجالها مرة صباح كل يوم . . لتعزف لهم الموسيقى نشيداً عسكرياً حزيناً يستمعون له وهو بينهم فى خضوع ، وفى بهرة المكان صورة كبيرة للزعيم الراحل صن يات صن ينحنون أمامها فى إكبار وصمت ثم يلقى شيانج محاضرة فلسفية عميقة عن ناحية من نواحى الوطنية ، وبعد أن يستمع إليها الجميع يجددون العهد على المثابرة على العمل حتى يحصلوا للصين على حياتها واستقلالها .

تلك المظاهرة العسكرية هى ما يقولون من أجله أن الزعيم الشعبى من طلاب المظاهر . ولكن الواقع أن شيانج قد خبر بنفسه الأثر الروحى الذى تتركه فى النفوس مثل هذه الاجتماعات ، وهو بذلك قد جعل من الوطنية الصينية ديناً يدين به كل فرد من أفراد حكومته . وهو بذلك يجعل عزيمتهم تتجدد وروحهم تتوثب وإيمانهم يزداد عمقاً كما يتجدد إيمان المؤمن وهو يناجى ربه فى المحراب . ولعل هذه المظاهر هى التى جعلت الكثيرين فى كل أنحاء الصين يعتبرون شيانج نبياً وطنياً ، أوامره وتعاليمه واجبة الطاعة والنفاذ .

وها هو شيانج وقد تعدى الستين لا يزال يناضل ويكافح من أجل بلاده ، ولا يزال يخوض غمار الحرب ضد الشيوعيين . وفى أواخر أبريل عام ١٩٤٩ ألقى شيانج خطاباً فى مدينة شيكاو حيث كان يقيم منذ أن اعتزل الحكم فى شهر يناير السابق ، ناشد فيه الشعب الصينى « أن يتحلى بالصبر ويتمسك بالشجاعة ويبذل كل تضحية ممكنة ... » ثم استطرد قائلا : « إننى مؤمن بأننا ما دمنا نواصل كفاحنا ضد الشيوعية بإصرار وعزم فلن يتمكن الشيوعيون من استعبادنا أو القضاء على استقلال بلادنا ، وسنتمكن من إحراز النصر النهائى عليهم فى خلال ثلاث سنوات ... » .

المـــــراجع

1 — Great Soldiers of two World Wars,
by Mojor H.A. de Wierd.

2 — Great Soldiers of World War II,
by Major H.A. de Wierd.

3 — Montgomery, by Alan Moorhead.

4 — Wavell, by R.H. Kierman.

5 — The Army of the Future, by General de Gaulle.

6 — Our Armoured Forces, by Lt.-General
Sir Giffard Le Q. Martel,
K.C.B., K.B.E., D.S.O., M.C.

7 — The Russian Army, by Walter Kerr.

شركة فن الطباعة
شارع الانتصار رقم 1 شبرا مصر
تليفون ٥٨١٤٩ صندوق بريد ٤ شبرا